وحيد عبد العالم الفقيه

سجن جبل شمدان

رواية

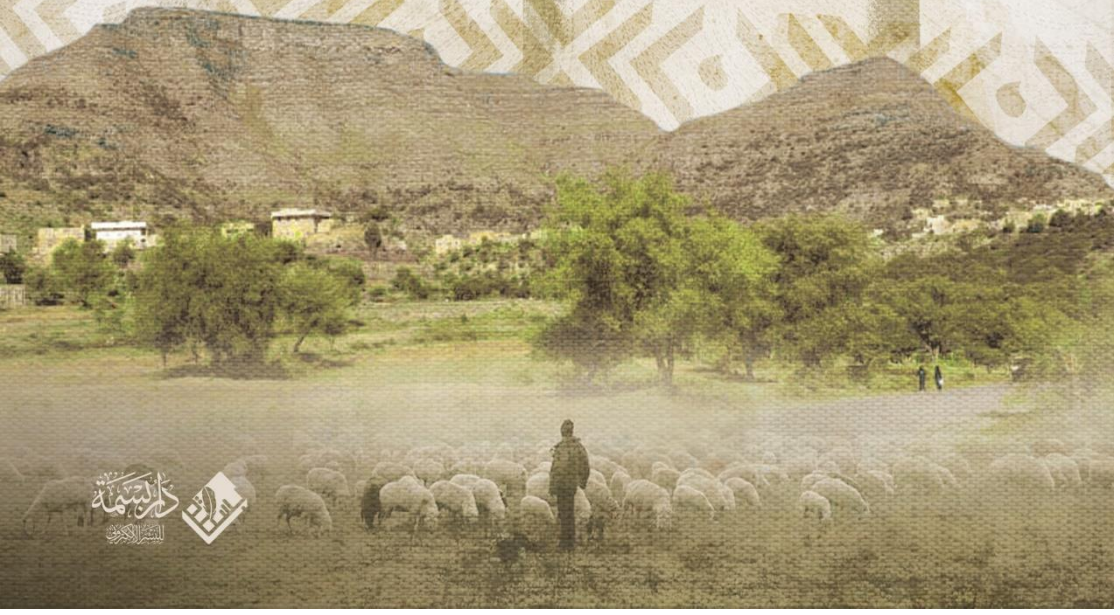

دار اليمامة للنشر الإلكتروني

وحيد عبد العالم الفقيه

اسم الكتاب: سجين جبل سمدان

اسم الكاتب: وحيد عبد العالم الفقيه

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-263-230920

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1445هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

سجين
جبل سَمَدَان

رواية

وحيد عبد العالم الفقيه

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذين خرجوا من سراديبهم المظلمة

إلى نور النهار ورحاب الأرض وهم يمدون أيديهم

ليُخرجوا شعوبهم من سراديبها

أهدي هذه الرواية

فيدور دوستويفسكي

من رواية في سردابي

تنويه

هذا العمل من نسج الخيال، وكل ما فيه من أشخاص وأحداث ليس إلا ثمرة مخيلة كاتبه، أو هو مستخدم استخداماً روائياً محضاً على نحو لا يصح معه اعتباره حقيقة.

كما أن أي شبه بأحداث حقيقية أو بأشخاص حقيقين من أهل تلك البلاد أو غيرها سواءً كانوا أحياءً أو أمواتاً، ليس إلا مجرد مصادفة، بيدَ أن جميع أسماء الأماكن الواردة في هذه الرواية هي حقيقية وموجودة بالفعل.

" لستُ الوحيد الذي يسعى للهروب من هذا الواقع ومن هذا العصر، أفعلُ ذلك بخيالي، لكن آخرين يفعلونه بطرق أخرى"

غيوم ميسو

" لا نستطيع أن نهرب من الخيال؛ فتلك الخيالات ينسجها الأمل، وذلك السراب يبعثه الشوق؛ فالأمل يحرك الأمل، والشوق ينتهي إلى خواء"

مارجريت أتوود – القاتل الأعمى

-1-

خطوات نحو المجهول

كان سعيد المُطَنِّن مستغرقاً في نومه في الخلوة العليا التي تربض فوق العريش[1]، يتململ في نومه ويتقلب أحياناً، فجأة سمع أصواتاً جعلته يراوح بين النوم واليقظة، كانت تلك الأصوات التي انتزعته عنوة من لذيذ نومه هو ما يتوق لسماعه منذ عدة أسابيع من الترقب والتربص، ولكن عفواً أخبرنا ما هي تلك الأصوات ولماذا هو يتوق لسماعها؟

المعذرة يا سادة يا كرام لا تتعجلوا دعوني أحكِ لكم بروية كيلا أنسى أي شيء، أرجوكم لا تقاطعوني، قليلاً من الصبر وستعرفون كل الحكاية.

الجواب ببساطة؛ لأن تلك الأصوات نباح كلاب، بدأت تلك الأصوات مرتفعة جداً كأن الكلاب كانت تنبح بجوار أذنيه، ثم أخذت تبتعد أكثر

---

[1] العريش هو حظيرة الحيوانات والمواشي ويكون عادة في أسفل البيت أو في ملحق مبني خارج البيت.

ويخفت صوت النباح تدريجياً، هذا النباح جعله يصحو تماماً وتنقشع عنه غيوم النعاس.

يعرف الناس في الأرياف أن نباح الكلاب في الليل – وخاصة عندما تكون متوترة وخائفة – أنها تطارد حيواناً مفترساً أو وحشاً كاسراً، وهذا ما يبحث عنه سعيد المطنن، كان يعرف أن أمامه عملاً كثيراً ومتعباً وربما خطيراً أيضاً، رفع ضوء الفانوس الذي قد تركه خافتاً قبل أن ينام بعد أن تناول طعام العشاء وصلى العشاء في جامع عمر عيسى الهتار، نظر لساعة يده فوجدها تشير للثانية بعد منتصف الليل.

كان متيقناً أن عمله الذي ينتظره هذه الليلة يكتنفه خطورةٌ كبيرة؛ فقد يعود منه أو لا يعود، ولكنه لم يكن يبالي أبداً بذلك، لأنه واثقاً من قدراته، وفي نفس الوقت حريصاً على اقتناص الجائزة الضخمة التي رصدها شيخ البلاد.

كانت الشهرة والمجد بانتظاره لو نجح في مسعاه، ومشاهد الشهرة تداعب خياله وتسكره، فلم يحدث من قبل أن أحداً من البشر قام بما يريد أن يقوم هو به، لذا فهو يتلهف للوصول إليها أكثر من حرصه للحصول على الجائزة المالية.

دخل الزولي[1] وعلى عجالة أفرغ مثانته وغسل وجهه، ثم لبس شميزاً[2] أسود اللون كالليل البهيم، ولبس المعوز[3] الأسود الذي في أسفله زخرفة جميلة ضيقة باللون الأبيض والذهبي، ولبس أيضًا الكوت الكحلي بالرغم من أنه كان ممزقاً في أكثر من موضع، ولكن لا بأس فالتمويه والتماهي مع سواد الليل يشكل أولوية بالنسبة لمهمة هذه الليلة.

لبس الكمر ثم جنبيته العتيقة التي ورثها عن أجداده كابراً عن كابر، يقال إن قيمتها تبلغ عشرات الآلاف، غرس خلفها شفرته الحادة التي يتفاخر بأنها أحد من موس كمال المزين، ويستخدمها عادة في الولائم في تقطيع اللحم المكوم أمامه، وهو يستطيع أن يجرد اللحم من شحومه خلال لحظات، وعادة ما يهبه للمدخنين زاعماً أنه مفيد لهم بينما يستأثر باللحم لنفسه.

---

(1) الحمام.

(2) القميص الذي يلبس عادة مع البنطال

(3) المعوز: إزار ينسج محلياً وقد اشتهرت اليمن به منذ الجاهلية وخاصة الإزار الشرعبي، ذكره الشاعر الجاهلي المخضرم الشماخ بن ضرار الغطفاني في إحدى قصائده، وقال عنه الشيخ الأديب محمود شاكر في كتابه القوس العذراء: الأزار الشرعبي من أغلى الثياب وأفخرها.

بحث عن جزمته المريحة في أسفل الكبت، التي ينتعلها عادة حينما ينوي تسلق جبل سمدان[1]، تلك الجزمة التي اشتراها بثمن باهض من متجر شهير في بندر عدن بجوار جامع النور في منطقة الشيخ عثمان، ويقول بأنها مصنوعة من جلد الثعلب الفضي، ولا أحد يعلم إلا الله إن كان هناك ثعلب فضي أم لا، مستنداً في زعمه ذلك إلى اسم ماركتها المنقوش عليها (سفر الثعلب) .Travel Fox

توجه إلى اللهج (النافذة) التي في الجانب القبلي وفوقها بالضبط كانت متكئة على مسمارين بندقيته الجرمل التي يحبها إلى حد العشق والوله، تناولها ثم ربت عليها بحنوٍ كأنه يعتذر لها عن طول الهجران، ثم مسح بمشدته ما علق بها من النورة التي طلي بها الجدار.

تناول من الكوة التي عن يمينه حزام الذخيرة المزخرف بشكله الذي يشبه الحرف إكس والذي يحوي ثلاثين طلقة ولبسه على صدره وربطه

---

(1) جبل سمدان: يوجد بين عزلتي الرجاعية ودبع الخارج اللتان تتبعان إداريا لمديرية الشمايتين محافظة تعز، ويوجد في قمته حصن قديم، ذكر في كتب التاريخ" هو حصن شامخ في بلد الرجاعية من بلاد المعافر غربي مركز تربة ذبحان"، قال عنه القاضي الأكوع:" الحصن منحوت في الصخر الأصم وليس له إلا باب واحد وله درج منحوتة، وكان في قمته القصور الزاهية والمباني العجيبة، وفيه مخازن للمياه ومستودعات للحبوب منحوتة في الصخر، وكان يضرب به المثل في المناعة والحصانة"، قال عنه ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان:

" سمدان حصن باليمن عظيم الخطر، قال عنه ابن قلاقس: فليعلم السمدان إذ فارقته أني لديك بدوة السمدان"

على خصره، فأصبح كأنه واحد من أبطال تلك المسلسلات البدوية خارج ليغزو القبيلة المجاورة.

لف رأسه بشاله ثم تلثم حتى أصبح لا يرى إلا عيناه، تناول عطيفه ذا النصل الحاد، ثم ألقى نظرة أخيرة على نفسه كي يتأكد أنه لم ينسَ شيئاً، وأردفها بنظرة لزوجته، ثم تقدم بهدوء على رؤوس أصابعه صوب الباب كيلا يوقظ زوجته التي كانت تغط في نوم عميق وتشخر وتئن في آنٍ واحد، فلا يعلم هل هي تشخر مستغرقةً في النوم أم أنها تئن من وجع ألم بها.

استودع الله نفسه ثم فتح الباب الأثري في هدوء الذي أطلق أنيناً متواصلاً كأنه يشتكي له وطأة السنين التي أصابته بخشونة المفاصل، أغلق الباب خلفه وهو يخطو أول خطواته نحو المجهول ولا يدري ما الله فاعل به.

-2-

الراعي الملهوف

قبل شهر تقريباً من هذه الليلة كانت قرية الحجر في عزلة الرجاعية على موعدٍ مع حادثةٍ مروعة، ليست هي فقط، بل جميع الناس أصابهم القلق في بقية القرى حولها مثل الشَّظَاهي وقَحْفَة القضاة وهداد وعُفير والكُشَر، كان أمراً نادراً لم يحدث من قبل.

فقد فوجئ الراعي سيف الفقي باختفاء ثلاثة تيوس دفعة واحدة من القطيع الذي يتولى رعايته، كانت تلك التيوس الراسنية هي الأفضل والأقوى، بل وحتى الأجمل، من ينظر إليها يظن أنها نوع من الظباء وليست مجرد تيوس عادية، كانت تلك التيوس في ملكية شيخ البلاد وقاضيها المحترم سلطان القاضي.

كان القطيع الذي يرعاه ابن الفقي يبلغ تعداده مائة واثنين وعشرين رأساً ما بين ماعز وضأن، ومعظم أهل تلك القرى كانوا يسلمون ماشيتهم لهذا الراعي دون غيره لثقتهم بأمانته ومهارته وقدرته، لذا كان

هو الوحيد الذي يقود أكبر قطيع من الماشية على الإطلاق في عزلة الرجاعية.

من المعروف عن الراعي سيف الفقي أنه كان دقيقاً في عمله، حريصاً كل الحرص على قطيعه، لم يحدث أبداً أن فقد معزة أو عولي، بالرغم من العدد الكبير للقطيع لكنه يتحكم به بشكل كامل، فبمجرد أن تُجَمِّع الشمس أشعتها الذهبية مؤذنة بالغروب حتى يقوم هو بالتقام قصبة نايه المصنوعة من عظم ساق الخروف ويقوم بالعزف عليه لحن الرحيل المقتبس من الأغنية الوطنية الشهيرة " بلادي بلادي بلادي اليمن، وأحييك يا موطني مدى الزمن " ومجرد أن ينتشر ذلك اللحن فيبدأ القطيع بالتجمع حوله قافزاً من بطون الأودية والآكام والمروج القريبة.

كان عزفه يختلط بثغاء الخرفان ومأمأة الماعز فيؤلف ذلك الخليط من الأصوات سيمفونية عجيبة تؤديها أغرب أوركسترا ويعجز عن تأليف مثيلها حتى بتهوفن وموزارت.

وتبدأ حينئذٍ مسيرة العودة، وعندما تصل تلك المسيرة إلى القرى تذهب كل غنمة وعولي[1] وكسبة[2] إلى بيتها، وهكذا كل يوم على هذا المنوال، حتى حصلت تلك الحادثة المفجعة، بحث سيف الفقي كثيراً عن

---

[1] العولي هو صغار ذكور الضأن

[2] الكسبة إناث الضأن

التيوس المفقودة دون جدوى، أخذ يفكر ماذا لو سرقت تلك التيوس؟ ماذا لو افترستها الذئاب؟ ماذا سيقول لأهل القرى؟ وكيف سيواجه الشيخ سلطاناً القاضي؟ وبماذا سيبرر موقفه؟ وهل سيفقد الناس ثقتهم به ويتهمونه بالإهمال واللامبالاة؟

بينما كانت تلك التساؤلات تجول في ذهنه أوغل في بحثه متجها نحو دُبع الخارج، وبينما هو مستغرقٌ في تفكيره أفاق من شروده فوجد نفسه في هيجة[1] المشارق، ولمح عن بعد هناك جوار شجرة العلب الضخمة سرباً من الطيور الجارحة، تسارعت دقات قلبه حتى غدت كالمرافع[2]، ولما اقترب شعر بأن قلبه قد انفطر.

هرول مُسرعاً يكاد أن يتعثر وأخذ حفنة من الحصى وقذف بها النسور التي سرعان ما حلقت مبتعدةً، أقترب فوجد أنه يواجه أكثر كوابيسه فزعاً؛ فقد وجد التيوس الثلاثة أمامهُ مجندلةً على الثرى.

تفقد الأول فوجد جسمه سليماً عدا حنجرته التي انتزعت من مكانها ثم تفقد الثاني فوجد حاله مثل الأول تماماً، أما الجدي الثالث فقد كان الأسوأ حظاً بينهم.

---

(1) الوادي العميق

(2) جمع مرفع وهو الطبل الكبير

كانت أشلاؤهُ مبعثرة ولحمهُ مختلط مع جلده وعظامه بطريقةٍ شنيعة، ضاعت جميع ملامحه لم يبق منه عضو سليم، كأنما وضع في خلاطة.

أفاق ابن الفقي من دهشته، وطفق يدور حول المكان باحثاً عن أي أثار لأقدام بشرية أو لحيوانات مفترسة، ولكنه لم يجد إلا آثار أقدامه، لا شيء ينبئ عن الفاعل، كأنما هي جريمة مكتملة، جس الجثتين السليمتين فوجد أنهما ما زالتا دافئتين، عقدت لسانه المفاجأة وأخذ يفرك جبهته في حيرة،

أخذ يتساءل كيف حدث الأمر برمته بهذه السرعة؟

وكيف لم يلاحظ أي شيء ولم يسمع أي شيء أثناء حدوثه؟

هل هم لصوص ماشية من فعل كل هذه الفوضى وبكل تلك القسوة؟

لا يمكن للصوص الماشية أن يسرقوا ثم ينتزعوا حناجر الجديين ويطحنوا جثة الثالث، حسناً هل هو وحش مفترس، أو عدة وحوش؟ لنفترض ذلك لكن أين ذهبت تلك الوحوش؟ ولماذا تركت جثتين سليمتين تماماً؟

بدأت المساجد تصدح بآذان المغرب وبدأ الظلام ينسج خيوط العتمة، تلفت الراعي حوله في حيرة ثم قفل راجعاً عازماً على إعلام الشيخ

سلطان القاضي بما حدث، فهو شيخ البلاد، وهو الذي سيتخذ من الإجراءات ما يراه مناسباً.

كان يعلم أن القاضي يصلي المغرب عادة في جامع عمر عيسى الهتار[1] ثم يمكث هناك مستغرقاً في أذكاره حتى صلاة العشاء، وصل سيف الفقي للجامع وقد بدأ الناس في الخروج من صلاة المغرب، توجه للسقاية[2] وتوضأ منها، ثم صلى في الصرحة[3] التي فوق السقاية، ثم توجه لقبلة المسجد وهناك وجد الشيخ سلطان متكئاً بظهره للقبلة وهو يردد أذكاره.

ألقى السلام ثم جلس مقابلاً له وقال: يا شيخ سلطان هناك مشكلة، اعتدل الشيخ في جلسته ورفع حاجبيه الكثين وقال: خيراً إن شاء الله يا ولدي ما الذي حدث؟ قال الراعي: هناك لصوص اعتدوا على القطيع واختطفوا ثلاثة تيوس، ولما بحثت عنها وجدتها قبل أذان المغرب مقتولة جوار العلبة الكبيرة في هيجة المشارق، وكلها ملكك يا شيخ، فغر الشيخ فمه في دهشة ثم قال اهدأ أولاً ثم أخبرني الحادثة بالتفصيل.

---

(1) جامع أثري معروف في تلك البلاد يزعمون أنه يوجد فيه قبر للولي عمر عيسى الهتار.

(2) موضع على شكل حجرة تتجمع فيها مياه الأمطار وتترك لتركد الشوائب والأتربة ثم تستخدم للشرب أو للوضوء.

(3) فناء المسجد.

بينما كان الراعي يحكي قصته تجمع كل من في المسجد يستمعون لهُ، ثم أجمع الحاضرون على أن يذهبوا برفقة الشيخ لمعاينة مكان الحادثة، حينما وصلوا للموقع تفقدوا الجثتين السليمتين، ثم تفقدوا الجثة الممزقة ثم بدأ كل واحد منهم يدلي برأيه ويفترض الفرضيات، لكن أكبرهم سناً وأكثرهم حكمة وهو الحاج ناصر مرشد- الذي يقال بأنه ربما بلغ التسعين ومازال محتفظاً بقوته وحواسه- ظل صامتاً وجلس القرفصاء يقلب بعصاه أشلاء التيس المغدور به.

تركزت عليه كل العيون تنتظر ماذا سيقول، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، عندئذٍ استحثه الشيخ سلطان للحديث قائلاً: هااه يا حاج ناصر أيش رأيك؟ تنهد الحاج ناصر وقال: يبدو أن التاريخ يعيد نفسه ولكن لم أتوقعه بعد كل تلك السنين، وجه الشيخ نور الكشاف القوي مباشرة نحو وجه الحاج ناصر وقال له: ماذا تقصد يا حاج؟ قال الحاج: هل تذكر يا شيخ سلطان عندما مر بنا نفس هذا الموقف قبل ستين عاماً؟ صمت الشيخ لبرهة ثم قال وهو يفرك ذقنه: لا لا أذكر أنه قد مر بنا كهذا الموقف من قبل.

قال الحاج ناصر: ربما كنتَ ما زلتَ صغيراً آن ذاك، قال الشيخ إذاً وضح لنا رأيك، قال الحاج: أقصد أن هذا ليس من فعل لصوص الماشية ولا الكلاب الضالة ولا حتى العرجة (الضبع) تفعل ذلك.

قال الشيخ ماذا يعني هذا الكلام؟ قال: هذا يعني أن أمامنا مشكلة ليست بالهينة، قال الشيخ سلطان: يا حاج ناصر قل كلاماً غير هذا، كيف؟ وضح لنا أكثر، من الذي سيرتكب هذه الجريمة إذا لم يكن لصوص الماشية أو الحيوانات المفترسة؟ تنهد الحاج ناصر ثم قال بكل هدوء: كل الأدلة تشير أن من فعل هذا هو الطاهش.

انتقلت كلمته تلك ورددتها كل أفواه الحاضرين في خوف ورهبة، سادت لحظات من الصمت الحذر قطعها صوت الشيخ سلطان وهو يقول: هذا لا يُعقل الطاهش لا وجود له ما هو إلا حيوان خرافي أسطورة تتناقلها الجدات وترويها للأحفاد، لم يعلق الحاج ناصر، صمت قليلاً ثم قال: حسناً ماهي الأدلة التي تتحدث عنها؟

قال الحاج ناصر في هدوء ووقار: منذ ستين عاماً مضت وقفنا مثل موقفكم هذا بعد أن فقدنا عشرة رؤوس من أغنامنا، صمت قليلاً ثم قال: والآن إليكم الأدلة، التقط عظم الفخذ الملطخ بالدماء وقال وهو يشير إلى مكان الكسر فيه: انظروا إلى عظام هذه الضحية كيف كسرت كسراً لا يوجد فيه أي شظايا أو تعرجات، بل هو كسر منتظم كأنه ضرب بساطور حاد لجزار متمكن، هل يوجد أي حيوان مفترس يفعل ذلك؟ وما مصلحة لصوص الماشية من فعل ذلك؟

نظر الشيخ وقال مظهراً قلقه: بالفعل كلامك صحيح، تابع الحاج كلامه وقال وهو يشير إلى بقعة من الأرض: ليس هذا فقط، ولكن انظروا إلى تلك العظام كيف طحنت وتحولت إلى ما يشبه كومة من المسحوق الخشن، حتى الضبع كاسر العظام لا يستطيع فعل ذلك، صمت الناس فلا تكاد تسمع إلا صوت أنفاسهم وهي تتردد في جنبات صدورهم.

قطع ذلك الصمت الشيخ سلطان متسائلاً: وكيف واجهتم الأمر في ذلك الحين؟ سكت الحاج ناصر، ثم وضع رأسه بين يديه وقال: لا أريد أن أصيبكم بالرعب واليأس، ولكننا ضحينا حينئذٍ بثلاثة من خيرة شبابنا والرابع هو من استطاع أن يصيبه في مقتل كما قال هو، ولكننا لم نعثر أبداً على جثة الوحش المفترس ولم نتأكد بالفعل من موته، ولكنه لم يظهر بعد ذلك أبداً حتى هذا اليوم.

صاح صالح الجبزي: طيب كيف يقدر هذا الطاهش المزعوم أن يختطف ثلاثة تيوس فتية وقوية في وقت واحد؟ أردف الراعي سيف الفقي قائلاً: كنت أسأل نفس هذا السؤال، أخبرنا يا حاج ناصر.

أجاب الحاج: هذا ما لا يعلمه أحد، لكنني أتذكر أنه اختطف في ذلك الزمان خمسة كباش وبعد يومين خمسة تيوس دفعة واحدة، كيف يستطيع أن يحمل خمسة تيوس دفعة واحدة؟ الله أعلم، لكن لم نجد من العشرة إلا بقايا تيس واحد، كان ممزقاً مثل هذا التيس تماماً وحينما رأيت هذا

المشهد قفز لمخيلتي ذلك المشهد الذي رأيته قبل سنوات، لكن السؤال المحير أيضًا هل هو نفس ذلك الطاهش أم أحد ذريته أتى كي ينتقم؟ أقول أيضًا لا أعلم الله أعلم.

-3-

رحلة في آخر الليل

بدأ سعيد المطنن يمشي ثم تفقد حماره الذي عادة ما يكون جوار الباب، استغرب من عدم وجوده لأنه رآه هناك وهو عائد من صلاة العشاء، لابد وأنه الآن يتجول بين بيوت القرية؛ فهو عادة لا يبتعد كثيراً وهو لا يهتم بربطه في موسم الشتاء، إذ لا توجد مزروعات يخشى أن يقوم الحمار بالعبث بها.

سار خطوات ثم تذكر بندقيته الجرمل[1] فرفعها وسحب المزلاج وتأكد لم تكن هناك أي ذخيرة في داخلها، قام بسحب رصاصة من حزامه الذي يحيط بخصره، أودعها بطن البندقية وأغلق مزلاجها حتى سمع تلك التكة التي يحبها، أعادها إلى كتفه وهو منتشٍ باستعداده للمواجهة المحتملة، حدث نفسه: لو انطلقت منها رصاصة في هذا الوقت لمزقت ستار الصمت وأيقظت عزلة الرجاعية بكاملها من غبيرة الأبشور حتى

[1] بندقية مشهورة نصف آلية صناعة ألمانية من آثار الحرب العالمية الثانية تستخدم للقنص.

الشوحط[1]، كان يفاخر بصوت بندقيته ويزعم أنها تضاهي صوت مدفع.

شعر بقشعريرة من نفحات باردة هبت، رغم أننا في منتصف شهر فبراير وقد بدأ برد الشتاء بالانحسار، كان صوت الكلاب مازال يلعلع رغم أنه كان يخفت حيناً ويرتفع أحياناً.

أصاخ بسمعه يريد أن يحدد اتجاه الصوت، ولكن صوت الصدى كان يخاتله، فلم يستطع أن يفرق بين الصوت وصداه، كان يسمع الصوت أحياناً كأنه يأتي من هيجة سعيد وأحياناً من هيجة سُقَّامي الرُّباح، وكلتاهما قريبة منه في سفح جبل سمدان وأحياناً أخرى يأتي الصوت من جهة المنوار أو قرية عُفَير وهو بعيد نسبياً.

قرر أن يبدأ بالأقرب فاتجه صوب الجبل إلى هيجة سعيد، بينما هو يسير تذكر ذلك اليوم، كان يوم جمعة وقد احتشد الناس في جامع عمر عيسى الهتار الجامع الأبيض العتيق الذي يزين قريته وكان الخطيب هو شيخ البلاد سلطان القاضي الذي ختم خطبته بأن طلب من الناس الاجتماع بعد العصر في ديوانه لمناقشة أمر مهم يتعلق بالأحداث التي ألمت بالبلاد، ثم شرح لهم ما حدث باقتضاب، قام أحد الحاضرين لا

---

[1] ملاحظة: كل أسماء القرى والأماكن التي تضمنتها هذه الرواية هي حقيقية، ولكنها وظفت بشكل روائي فحسب.

أذكر من هو وقال: يا شيخ لماذا كل هذه الضجة على ثلاثة تيوس؟ نظر إليه الشيخ بنظرة حادة وقال: ليست ثلاثة تيوس فحسب، لقد وصل العدد إلى اثني عشر رأساً، وصلتنا شكاوى من رعيان في قحفة حمار ومن غزوة أيضاً، ونخشى أن تكون الفريسة القادمة من البشر لذا كن حذراً يا فلان، ابتلع الرجل ريقه في خوف ونظر للناس ثم استدار فجأة واندفع خارج المسجد كما لو كان بعوضة بائسة اقتربت من ضوء مصباح، بينما كان البعض يرمقونه في شفقة والبعض في سخرية وشماته.

اجتمع الناس في ديوان الشيخ عصر ذلك اليوم وناقشوا الأمر لوقت طويل حتى كادت الشمس أن تدلف لخدرها ولم يصلوا إلى أي نتيجة، حتى قام رجل طويل القامة متجهم الوجه مكتحل العينين من قرية الكشر يسمى شمسان ثابت، واستأذن بالحديث ثم قال: يا جماعة أقترح أن ترصد جائزة مغرية بقدر خطورة العمل، لمن استطاع أن يأتي برأس من كان السبب سواء كان إنسياً أم جنياً أم وحشاً، كانت الساعة قد تجاوزت السادسة بعدة دقائق، وبدا الاقتراح وجيهاَ رغم تضايق بعض الناس وعدم رضاهم ولكن الأكثرية استحسنوا الفكرة، وحدث للحظات بعض الهرج والمرج بين الرافضين والمؤيدين للفكرة.

عاد الهدوء عندما قال الشيخ: نعم الرأي أحسنت يا حاج شمسان، انتفخ صدر شمسان فخراً، ثم قال الشيخ: إذاً سنفتح باب التبرع لجمع

قيمة الجائزة أنا أتبرع بمأتيي ريال، عندئذٍ تقاطر الناس للتبرع حتى تجمع مبلغ ألف وخمسمائة ريال. كان هذا مبلغاً ضخماً في ذلك الزمان ربما يوازي بضعة ملايين في هذا الزمان.

تحلَّبَ ريق سعيد المطنن، من كان يحلم بمثل أو حتى بربع هذا المبلغ، كان يحدث نفسه أنها ستكون من نصيبه وكان واثقاً من قدرته على اقتناص الجائزة، وسيكون حينئذٍ من أغنى أغنياء القرية وسينقلب حاله مثل حال المغتربين في السعودية وجيبوتي الذين ينفقون أموالهم في بذخ وينعمون بالترف والرفاهية؛ لذلك صمم على أن يضحي براحته ويجتهد فيما هو مقبل عليه.

أفاق من شروده وأحلام اليقظة، نظر حوله وإذا به في المحروض وبدأ يدخل هوب أحمد[1]، كان الهدوء مخيماً فلا يكاد يسمع إلا صوت صرار الليل وهو يعزف سيمفونيته المعتادة وأحياناً يسمع صوت نعيب الهِمِّيمَة[2]، تنهد تنهيدةً عميقة كي يملأ رئتيه من نسيم الليل العليل، ثم نظر للسماء الصافية كان القمر يكاد يكتمل فيرسل ضوؤه الشاحب

---

[1] مواضع في أطراف قرية الحُجَر.

[2] الاسم المحلي للبومة.

فوق الجبال وقمم الأشجار، وكانت النجوم تتلألأ وتومض في خفوت كأنها تهمس له.

خُيلَ لهُ أن السماء ما هي إلا قطعة مخمل[1] أسود فاخر انتشرت عليها ملايين من قطع الألماس الصغيرة فجاء المشهد آية في الجمال يجعل اللسان ينطق بالتسبيح رغماً عنه، أعاد له ذلك المنظر ذكريات جميلة عندما كان صبياً يدرس في المِعْلامَة[2]، ذات صيف زارهم خاله عبده الزغير الذي كان يعمل في مصافي عدن، كان معجباً بثقافة ذلك الخال وإجادته اللغة الإنجليزية كأنه واحد من أبناء المستعمر البريطاني وليس ابن قريتهم.

تذكر تلك الليلة التي غاب عنها القمر وتاهت صفحة السماء بنجومها الزاهرة، كان جالساً بجوار خاله فوق سقف بيتهم، حاول خاله تعليمه أسماء النجوم؛ فذلك سهيل والزهرة وتلك الثريا والشعرى اليمانية والتي أغرم بها لأنها كانت أشد النجوم سطوعاً.

ثم حاول أن يعلمه أسماء الأبراج السماوية فأشار لمجموعةٍ من النجوم وقال له ذلك هو برج العقرب، وذلك الثور، والدلو والحمل والجوزاء،

---

(1) نوع من أنواع الأقمشة الفاخرة يسميها البعض قطيفة أو جوخ.

(2) الكُتَّاب المكان الذي يتعلم فيه الصغار القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة والحساب وجمعها كتاتيب ومعلامة ومعلامات.

وذلك المحراث، وكيف تخيله محراثاً من ذهب تجره ثيران ذهبية، ولكنه لم يستطيع أبدا أن يتخيل برج العقرب أو الدلو أو الحوت فلم يرَ في السماء أي حيتان أو دببةٍ أو عقارب، كلما شاهده كان مجرد نجوم فحسب، كان يتوقع أنه سيرى عقرباً حقيقياً عملاقاً معلقاً هناك بين النجوم، فكان يقول لخاله عبده الزغير أينهُ يا خال؟ أنا لا أرى أي عقرب، كيف تراه وأنا لا أراه؟ ويقترب من خاله حتى يكاد يستلقي في حضنه كي يرى ما يراه خاله، فكان الخال يستغرق في الضحك على براءة نسيبه[1] الصغير.

حاول الخال أن يشرح له كيف عليه أن يتخيل النجوم أنها مجرد نقاط لامعة ثم يحاول أن يوصل بينها بخط وفي الأخير سوف يتضح له شكل العقرب، ولكنه كلما حاول أن يطبق ما قاله خاله يفشل في ذلك.

تذكر كيف طلب منه خاله أن ينزل للخلوة[2] التي ينام فيها الخال ويجلب من جيب جانبي في حقيبته مجلة اسمها روز اليوسف، ثم فتح له آخر صفحاتها كانت صفحة تسالي وكان فيها لعبة عبارة عن نقاط مرقمة متقاربة ومرتبة، طلب منه الخال أن يخمن ما الشكل الذي تمثله

---

[1] النسيب في لهجة أهل تعز وبعض المحافظات الأخرى هو ابن الأخت أو بنت الأخت، ويقال نسيبي أو نسيبتي.

[2] الحجرة أو الغرفة التي تستخدم للنوم.

هذه الأرقام، ولكنه فشل فأعطاه قلمه الفاخر الباركر السائل وطلب منه أن يوصل بالقلم بين تلك الأرقام بالترتيب، قام بذلك وحينما وصل للنقاط الأخيرة بدا أن الشكل يتضح له كان شكل قرد، شعر الصبي بالحماس والإثارة وصاح قائلاً وهو يضحك: إنه شكل ربح[1] يا خال ربح يا خال، ضحك الخال واحتضن نسيبه وكافأهُ بقبلةٍ على جبينه، شم فيها رائحة عطر خاله الممتزج برائحة التبغ، كانت تلك الرائحة تعجبه.

عاد سعيد لأرض الواقع من خيالاته تلك فوجد نفسه مُطلاً على هيجة سعيد، كان الدردوش[2] يهدر خافتاً لأن الينبوع الذي يغذيه كان قد خف كثيراً بعد انقضاء أشهر الصيف المفعمة بالأمطار الموسمية، ومع ذلك مازال الدردوش يرتمي على صدر البركة من أعلى الضاحة[3] ناثراً الرذاذ البارد على الوجوه، كان الظلام ينشر ستائر العتمة ويخيم الهدوء على المكان و قد غاب القمر وراء الأكمة، أصغى بسمعه كي يلتقط أي صوت ولكنه لم يسمع إلا صوت صرار الليل ونعيب الهميمة من حينٍ لآخر، جلس على صخرة مشرفة و أطلق صوت ثُغاءٍ كثُغاءِ

---

[2] قرد البابون.

(2) شلال ماء.

(3) منحدر سحيق يكون على هيئة جدار صخري طبيعي.

الخروف، ثم أنصت ولكن لا حركة ولا صوت يعلو فوق صوت المياه وهي ترتطم بالبركة أسفل الدردوش.

تحرك متوجهاً نحو هيجة سُقَّامي الرُّباح، ومر في طريقه بحيد[1] مُجَيّذِمْ، وأضاء كشافه واختبر أرضية الكهف هناك علَّهُ يكتشف أي أثار غريبة، ولكنه عبثاً كان يحاول، واصل طريقه للهيجة وحينما وصل وجد الدردوش هناك أكثر غزارةً من هيجة سعيد، ولكن لا توجد بركة تحته كما هو الحال في هيجة سعيد، جلس هناك على صخرة وبعد لحظات شعر بحركة، ثم تواصلت في عدة أماكن فاستعد لها، كانت الحركة عبارة عن خشخشةً بين الأعشاب ترافقها صوت هسهسة، فاستعد وأتخذ وضعية الهجوم وأسند أخمص بندقيته على كتفه وصوبها نحو الأمام وصوب كذلك نور كشافه إلى أماكن الحركة وأخذ يتتبع مصادر تلك الحركة حتى تبين له بالأخير سبب كل تلك الضجة.

كانت الهيجة في تلك الأثناء تعُجُّ بالأوبار[2]، تنفس الصعداء حينما رأى الأوبار تتقافز في خفة وتنسل نحو جحورها هاربة بعدما سدد نور كشافه عليها، ترك مكانه وعزم على أن يتوجه نحو حيد المنوار ومنه إلى

---

[1] الكهف.

[2] مفرد وبر وهو حيوان قارض أكبر من الفأر بقليل يشبه السنجاب، واسمه العلمي الخنزير الغيني أو (هامستر).

هيجة أسس، هبط مخترقاً سائلة الحجر ومر بمعيان[1] الحُجَرْ وغسل وجهه هناك ثم واصل سيره حتى وصل إلى عِلْبَة[2] المنكر، كانت عِلْبَة "المنكر" في تلك الأيام شجرة سِدْرٍ ضخمة تتكون من ستة جذوع متحدة الأصل، ولها فروع وارفة تطرح سنوياً ما يقارب الطن من الثمار التي يسميها الناس (البُعَار)[3]، أما هذه الأيام فلم يبق منها سوى جذعين هزيلين.

واصل سيره حتى وصل إلى ينبوع(دِمْدِمَة) جلس هناك يسترد أنفاسه ووضع بندقيتَه على ركبتيه وأخذ ينصت، كان الظلام دامساً بعدما أنهى القمر دوامه وانصرف، كانت الريح تهب فيسمع أنينها بين الأشجار كأنها ثكلى فقدت وليدها، فلم يستطع أن يسمع أي صوت آخر.

الهواء ثقيل، كما لو أن ثمة حضوراً لشيء مخيف يقف في مكان ما مترصداً، مستعداً للخروج لاقتناص فريسته، الأغصان الصغيرة تهتاج حوله بفعل نسمة مباغتة، بدت الأشجار الضخمة توحي إليه أن يتوخى الحذر، لكن من يصدق كلامها فهي تقول أي كلام؛ ولا تكترث عادة لما يحدث حولها من أهوال.

---

(1) المِعْيان سد صغير يتجمع فيه ماء الينبوع.

(2) مفرد عِلب وهي شجرة السدر.

(3) ثمرة السدر وتسمى النبق أو الدوم.

وفجأة بينما هو مستغرق في أفكاره شعر بجسمٍ باردٍ يلتصق بخده الأيمن يخرج منه هواء ساخن ورطب، أقشعر شعر بدنه وتصلبت مفاصله وارتعدت فرائصه ونزَّ العرق من جبينه غزيرا، شعر بأنه قد خُدِع وأُخِذَ على حين غِرةٍ وأن الوحش كان أذكى منه بمراحل، وأنه بدلاً من أن يصبح الصياد فها هو الآن سيصبح الفريسة، فلتت منه ضرطةً رغماً عنه وأحس بأنه يكاد يغمى عليه من الخوف، ولكنه تمالك نفسه وقال لنفسه "إذا لم يكن من الموت بُداً فمن العار أن أموت جباناً"، يجب أن أقاوم.

حدث كل ذلك في ثوانٍ معدودة، وضع في رأسه خطةً ونفذها على الفور، لحظات قد تكون الحد الفاصل بين الموت والحياة، بين المجد والمهانة، قفز بمهارة وتدحرج على الأرض حتى أصبح ظهره ملتصقاً بالأرض، ثم وجَّهَ فوهة بندقيته وكشافه للهدف، كانت بندقيته معمرة وجاهزة للإطلاق لنسف رأس ذلك الوحش الذي خاتله وأوقعه في هذه المصيدة، وقبل أن يضغط على الزناد ركزَّ على الهدف كي يختار أين سيضع قذيفته، ولكنه بدلاً من أن يطلق النار أتكئ على بندقيته ووقف مستوياً على قدمه وأخذ يسب ويشتم ويعرعر[1].

---

[1] نوع من أنواع الشتيمة يشتهر بها أهل محافظة تعز.

لماذا توقف عن قتل ذلك الوحش؟ لأنه ببساطة لم يكن هناك أي وحش كان ذلك الوحش المفترض هو حماره، نعم حماره فحسب.

ذلك الحمار الغبي الذي كاد أن يوقع صاحبه في أكبر فضيحة قد يتعرض لها صياد، توجّهَ سعيد إلى حماره وأخذ يركله في بطنه ويصفعه في وجهه، والحمار واقف مشدوه لا يدري ما الذي أَلَمَّ بصاحبه، ثم أخذ ينهق كأنه يشتكي جنون صاحبه.

هدأ سعيد قليلاً بعد أن أفرغ شحنة الغضب ثم جلس واخذ يفكر للحظات، ثم فجأةً أنفجر ضاحكاً واخذ يضحك ويضحك ويضحك حتى أنقلب على بطنه، ثم واصل الضحك وهو مستلقٍ على بطنه وأخذ يضرب الأرض بقبضة يديه ويرفس بأقدامه، لو رءاهُ أحدهم على هذه الحال لصار مآله حتماً الربط بالسلاسل ظناً بأنه مجنون رسمي.

بعد أن فرغت شحنات الضحك أعتدل جالساً ومسح دموع عينيه من أثر الضحك، ثم قام واخذ برأس حماره واحتضنه وأخذ يقبله معتذراً عما بدر منه من حماقة.

-4-

مواجهة مع دخانٍ متبدد

أخذ يفكر للحظات هل يمتطي حماره ويواصل بحثه؟ أم يواصل سيره على أقدامه؟ فلو ركب حماره لاستطاع أن يقطع مسافة أكبر بجهد ووقت أقل، ولكن الجلبة التي ترافقه ستكون أكبر، وهناك احتمال أن تكون سبباً في هروب الطاهش الذي يبحث عنه، وبعد تردد لوهلة قرر أن يواصل سيره على قدميه وسيكون أكثر حذراً واستعداداً أكثر من ذي قبل؛ غسل وجهه بماء بركة دمدمه البارد؛ فأحس بالحيوية والانتعاش والنشاط، ثم واصل سيره حتى وصل إلى حيد المنوار.

تسلق إلى الحيد في خفة وحذر، وحينما دلف إليه أضاء كشافه وجهز بندقيته في وضع قتالي وبدأ يتجول داخل الحيد ويبحث عله يجد أي أثر يثير الاهتمام، لكنه عبثاً كان يبحث، فلم يجد سوى بعر الماشية الذي ينتشر في أرجاء المكان.

واصل سيره باتجاه هيجة أَسِسْ، وحينما وصل أحس برهبة المكان ممزوجة بخوف وتوجس، كان صوت خرير الماء وهو يجري بين الأشجار

ومن خلال الصخور يشعره بالراحة، لكن الهيجة كانت أشبه ما تكون بغابة صغيرة، كانت في ذلك الزمان كثيفة الأشجار متشابكة الفروع، حتى في رابعة النهار لا يكاد ضوء الشمس يمس أرضها، سمع أصواتاً عديدة مختلطة ما بين نقيق الدنادغ[1] ونعيب الهميمات وصرير صرار الليل وحفيف أجنحة الخَوَيف[2]، وظهرت الأشجار على ضوء كشافه كأنها جيش من عمالقةٍ سود، ممسكة بأيدي بعضها بعضاً.

قرر أن ينعطف يساراً فمر سريعاً بين برك الهيجة، بركة الأبال ثم بركة العود وبركة الكرسي، ثم عاد إلى حيث أنطلق وأنعطف يميناً ومر على بركة الكاذية ثم بركة الديك، ثم انطلق، إلى بركة العوراء كان يسير بشكل سريع على ضوء كشافه حتى وصل إلى مستنقعات الماض وغزوة.

كان يجري أحياناً ويهرول أحايين، اتجه نحو الكدرة ومنها إلى قرية الكشر حيث قابلته في أطراف القرية سرية من الكلاب التي تحرس القرية بعاصفة من النباح، وأحاطت به كمن جاثياً على الأرض ووجه ضوء كشافه إلى عيونها مما جعلها ترتد للخلف وهي تزمجر خائفة، من هناك اتجه لقرية مُسَيجدين، ثم هيجة شُهدة ثم عاد إلى قرية الحُجَر، نظر إلى

---

(1) الضفادع

(2) الخفافيش

ساعته كانت عقاربها المضيئة تشير إلى الخامسة إلا ربعاً ولم يتبق إلا نصف ساعة على أذان الفجر.

هناك عند بئر الحُجَر تماماً في تلك البقعة الموحشة التي يزعم الناس أنها مسكونة، واجه سعيد المطنن الرعب كله وجهاً لوجه، كان يمشي وكشافه مطفأ لكنه عندما ارتقى الصفا واقترب من بئر الحجر سمع بوضوح صوت همهمةٍ وتكسير عظام، انزل بندقيته بهدوء وتقدم بهوء وحذر كالقط عندما يريد أن يثب على فريسته، ويا للهول وجد ما كان يبحث عنه، وجدهُ هكذا بكل بساطة قريباً من بيته، يا للعجب فيما كان هو يجوب الهياج والضياح والشعاب والوديان، كانت طريدته بالقرب منه، هل كان هذا نوعاً من أنواع التحدي؟

اعتمد سعيد على ضوء الفجر الخافت فرأى الوحش هناك يأكل شيئا ما بكل طمأنينة، كانت مؤخرته في مواجهة الصياد، كان ضخماً ولكن تفاصيل جسمه لم تتضح بعد، خمن أن المسافة بينهما لا تقل عن مائتي ذراع فقرر أنه من الأفضل أن يجلس فإطلاق البندقية في الوضع جاثياً على الأهداف القريبة له الأفضلية؛ فهو يجعله أكثر تمكناً وسيطرة على ارتداد البندقية عندما يطلق النار، جثا سعيد على ركبة ونصب الركبة الأخرى، ووضع إصبعه السبابة ليده اليمنى على الزناد وأمسك بيده

اليسرى على جسم البندقية واستند بها على ركبته اليسرى، بينما كان أخمص البندقية يستند على كتفه اليمنى.

التفت إليه الوحش التفاته سريعة ثم عاد يأكل كأن الأمر لا يعنيه، عندئذ أضاء سعيد كشافه ووجهه باتجاه الوحش، ألتفت إليه الوحش ثم دار حتى أصبح في مواجهته واستقام واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، ويا للهول اقشعر بدن سعيد وشعر بالقشعريرة وهي تنساب على امتداد عموده الفقري، دقق النظر فيما أمامه وسأل نفسه ما الذي أمامي؟ لم يكن حيواناً أبداً!

كان سعيد المطنن مثقفاً فقد قرأ كثيراً من الكتب والمجلات، والفضل يعود إلى خاله عبده الزغير الذي يأتي له بالكتب والمجلات أو يرسل بها من عدن؛ لذلك نمَّى لديه ملكة القراءة فأصبح قارئاً نهماً، لذا قرر سعيد المطنن أن الذي أمامه لا ينتمي إلى المملكة الحيوانية أبداً، كان طوله عندما وقف يناهز الثلاثة أمتار، أما حجمه فيوازي حجم ثورين من ثيران البتول عون الجمرة، يمتلك جسم ثور وله سنام على ظهره مثل سنام الجمل، وقائمتاه الخلفيتان كأقدام الحمار لها سنابك[1] مثلها تماماً، أما ذراعاه المفتولة العضلات كأنها حبل مرساة سفينة ضخمة فكانتا طويلتين تصلان إلى ركبتيه، وله كفان ككفي القرد.

---

(1) سنابك تعني حوافر ومفردها حافر وتستخدم لوصف أقدام الخيول والحمير.

دقق سعيد وأحد النظر في وجه الوحش؛ فوجد أن القبح كله يكمن فيه، له فك كفك الكلب وله خطمٌ يتحرك يميناً ويساراً كخطم[1] الخنزير، لا أحد يعرف الخنزير من أبناء قريته أما هو فيعرفه تماماً؛ فقد شاهده في عدن في حظيرة من حظائر المحتل البريطاني هناك، وعيناه يا للهول إنهما عينان بشريتان بامتياز، خضراوتا اللون ولهما أهداب كثيفة وطويلة لو رءاها شاعر جاهلي لتغزل بها على الفور، وله شعر كثيف وطويل يغطي جسمه لونه بني فاتح لامع ولا يمتلك أي ذيل.

ظل ذلك المسخ واقفاً يرقب الصياد بلامبالاة كأنه ينتظره، توقع سعيد أنه سينقض عليه بغتة، وسيهاجمه بشراسة وبقسوة ووحشية بالغة، ولكنه لم يحرك ساكناً وظل واقفاً ينظر إليه في تحد تربص، حينئذٍ وضع سعيد الكشاف المضيء بجواره موجهاً نوره نحو المسخ، ثم أمسك ببندقيته وسدد على الهدف أمامه بكل شجاعة واقتدار، وضع عينه مع الفريضة[2] والشعيرة[1] على خط مستقيم مع منتصف صدر الوحش تماماً.

---

[1] الخطم هو الأنف.

[2] جزء من جهاز التسديد في البندقية توجد في منتصف جسم البندقية على شكل مسطرة فيها تدريج يوضح المسافة ويمكن أن يوضع فوقها منظار لتسديد.

بينما الوحش مازال واقفاً هناك بكل رباطة جأش كأنه رجلٌ محكومٌ عليه بالإعدام وهو ينظر إلى السرية المكلفة بإعدامه.

لم يشك سعيد المُطَنِّنْ أبداً برصاصته التي سيطلقها أنها قد تحيد عن الهدف أو أنها لن تؤثر عليه، ولكنه رغم ذلك جهز رصاصة أخرى ووضعها في فمه وأطبق عليها بأسنانه، كان واثقاً من دقة تصويبه ومن قوة وكفاءة بندقيته الجرمل وأنه لا يوازي قوة طلقتها إلا قذيفة البازوكا –هذه طبعاً مبالغة منه–.

أخذ نفساً طويلاً ثم كتم نَفَسَهُ والوحش مازال هناك ينتظر، ثم أطلق الصياد رصاصته على الوحش في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت أذان الفجر مجلجلاً يشق صمت العتمة.

دوى صوت الانفجار صاخباً عنيفاً ممزقاً ستار الصمت ودار على الهياج والضياح والشعاب والأودية المجاورة، وتردد صداه مدمدماً وقوياً حتى صُمَّ أذنيه، وسمع صوت الطنين فيهما، حجب دخان البارود الكثيف الذي نفثته فوهة البندقية الرؤية لوهلة أمام نظره، وعندما انقشع الدخان نظر أمامه فلم يرَ أي شيء، التقط بسرعة الكشاف ووضعه

---

(1) الجزء الآخر من جهاز التسديد في البندقية تكون في مقدمة البندقية على شكل مسمار صغير عمودي على الفوهة، ولابد أن يكون هو والفريضة على خط مستقيم كي يكون التسديد دقيقاً.

تحت جسم البندقية في احترافية بالغة وتجول بالضوء في المكان، لكنه لم يجد الشيء الذي كان قبل لحظة واقفاً هناك.

وفي أقل من ثانية انتزع فارغ الطلقة من داخل البندقية ولم يبال بحرارتها التي لسعت أصابعه وأقحم الطلقة الجديدة مكانها، ثم اتجه حيث كان المسخ واقفا، وحينما اقترب شعر بالخيبة والحسرة تتراكم بسرعة في نفسه؛ فلم يكن هناك أي وحش، بحث بشكل دقيق في المكان عله يجد أي أثر للدماء، لكنه عبثاً كان يبحث، فلم يجد أي أثر حتى الجثة التي كان يأكلها الوحش لم يعد لها أي أثر.

لا شيء ينبئ أن وحشاً كان هنا واقفاً على قدميه، دار سعيد حول نفسه عدة دورات كاملة كأنه قطٌ يطارد ذيله، كان يبحث في الأرض عن أي أثر، ولكن لا أثر كأنه مجرد دخان وتبدد في الهواء.

تساءل في حيرة وذهول، بل انداحت نحوه سيول التساؤلات.

ما الذي كان واقفاً أمامي هنا قبل لحظات؟

هل كان وحشاً بالفعل أو طاهشاً كما يسمونه؟

أم أنه كان شيئاً آخر فوق تصور البشر؟

وكيف تبدد من أمامه بلمح البصر؟

بينما كانت تلك الأسئلة تطرق عقله في عنفٍ وإصرار، سمع أصوات أقدام كثيرة تركض وتقترب يرافقها صياح وأضواء فوانيس وكشافات تتجه ناحيته، اتكأ على بندقيته ثم جلس على أقرب صخرة.

وصل إليه الناس وتكاثرت عليه الأسئلة، على أي شيء أطلقت النار؟ أين هو الذي أطلقت عليه؟ هل أصبته؟ هل قتلت شيئا؟

كان هناك آخرون يجوبون في الجوار يبحثون عن ذلك الشيء الذي قتله صياد قريتهم الشجاع، ولكنه كان واجماً، لاذ بفقاعة صمته وأخذت عيناه تسبحان في الشرود كما هي عادته كلما ألمت به معضلة لا يجد لها جوابا، أخذ يقلب عينيه بينهم وهو يشعر بالحسرة والخيبة والألم يعتصر قلبه.

ارتفعت الأصوات وكثر اللغط من حوله حتى أن أحدهم تجرأ وقال: ربما أن سعيداً فقد صوابه فأطلق النار على الأشجار يظنها وحوشاً، كل ذلك بسبب الجائزة التي رصدوها لمن يقتل الطاهش. وقال الآخر: الله يسامحك يا سعيد فجعتنا وأخرجتنا من بيوتنا في هذا الوقت، لكن كل ذلك لم يحرك فيه ساكناً ولم يكلف نفسه حتى عناءَ الرد عليهم.

فجأة تناهى إلى سمعه صوت نسائيٌ يعرفه جيداً، انتزعه من شروده وأصابه بالقلق، إنه صوت أمه الحاجة رشيدة، تساءل في نفسه ما الذي

أخرجها من البيت في هذه الساعة؟ لا بد أنها صحت من نومها وبحثت عنه في غرف البيت ولم تجده، فيما هو كان يتجول في أرجاء الظلام، وعندما سمعت صوت البندقية نفذ صبرها دفعة واحدة واتجهت إلى هنا، سمعها تقول تنحوا عن طريقي هيا ابتعدوا أين هو ابني أين سعيد؟ هل هو بخير؟ ابتعدوا أريد أن أراه هل أصابه مكروه؟ ابتعد الناس وفتحوا لها طريقا.

حينما وصلت إليه ورأته أمامها جالساً على الصخرة والناس يحيطون به أجهشت بالنحيب وجثت بجواره وأخذت تتحسس جسده وتفتش جسمه وهي تتساءل، هل أنت بخير؟ هل أصبت بأي أذى؟ لماذا أطلقت النار؟ لقد سمعت صوت الطلقة فعرفت على الفور إنها بندقيتك، ما الذي حاول أن يؤذيك فأطلقت عليه النار؟

كان سعيد مازال لا يعي ما حدث وذهنه يعمل بطاقته القصوى يفكر ويقلب الأمر على كل الوجوه، كيف تبخر ذلك الوحش من أمامه وتحول إلى دخان؟ الناس مازالوا يتوافدون من القرى المجاورة، كان صوت الطلقة من القوة بحيث اخترق جدار هدوء الليل كالطائرة المقاتلة التي تخترق حاجز الصوت.

تحول المكان الذي يجلس فيه سعيد إلى زحام وفوانيس وأتاريك[1] ولغط وفوضى وأشخاص يبحثون عن اللاشيء في اللاشيء، كأنه كرنفال أو جمع للولي، لا ينقص هذا المهرجان إلا وجود مجاذيب ابن علوان فقط كي يكتمل المشهد، ظل سعيد ينظر إليهم وهو متعجب ويتساءل في نفسه من أين أتى كل هؤلاء الناس؟

أقيمت صلاة الفجر عندئذ قرر أن يغادر اتكأ على بندقيته التي مازالت سبطانتها ساخنة، ثم مد يده الأخرى واستند على يد أمه وقام متثاقلاً يجر قدميه متجها إلى بيته.

[1] فانوس يعمل بوقود الكيروسين المضغوط بالهواء.

-5-

أسئلة تبحث عن إجابات

دخل سعيد داره وتوضأ وصلى الفجر، ثم أخذت أمه وزوجته تسألانه عما حدث، لكنه التزم الصمت؛ فسكتتا احتراماً لصمته، وقالت أمه لكنتها: لا تتعجلي يا صفية سيتحدث عما قريب عندما تهدأ نفسه.

بعد انتهاء صلاة الفجر في المسجد بفترة وجيزة جاء رجل وطرق باب بيت سعيد فأجابته زوجته، فقال لها: بلغي سعيد أن الشيخ سلطان يريده الآن في المقصورة العليا للمسجد، والمقصورة هي غرفة متوسطة المساحة ملحقة بالجامع تعقد فيها الاجتماعات والموالد ويستقبل فيها الضيوف والزوار الغرباء للولي عمر عيسى الهتار وتوجد منها اثنتان عليا وسفلى.

التقط سعيد عطيفه[1] وأمسك بالنصل واتكأ على مقبضه الخشبي ثم خرج من بيته واتجه للمقصورة العليا التي بجوار المسجد، كان ضوء النهار قد بدأ ينتشر، ولكن الشمس لم تغادر خدرها بعد.

---

[1] العطيف عبارة عن بلطة نصلها حاد، ومقبضها طويل يُصنع من خشب شجرة السدر، تستخدم في التحطيب وكسلاح أيضًا ضد الضواري.

كان سعيد المطنن شخصاً متوسط القامة متين البنية، عريض الصدر، مفتول العضلات، لون بشرته حنطي فاتح مشرب بحمرة، ملامحه عريضة وفيهِ وسامة وجاذبية، جبينه العريض والمعتدل الطول يمنح وجهه شخصية خاصة، ولديه عينان غارقتان في العسل، تستقران عميقاً تحت حاجبين كثين يلتقيان، وأنف مستقيم وعالٍ كالسد، هذه التشكيلة من الملامح المأخوذة من صورته الجانبية، بما في ذلك ذقنه، لم تكن تتلاءم مع لحيته الداكنة، والتي تستلقي كاسية خديه وفكيه، كان لون شعره بنياً داكناً كلون الأرض، كما استقرت حبة خال مدببة بجوار منخره الأيسر، هكذا كانت صورة الرجل الذي يسير للتو متجهاً للمقصورة.

تنهدت ريحٌ باردة عبر الأزقة وجعلتهُ لمستها يرتجف، فقال لنفسه إنه البرد لا أكثر، قشعريرة لا رعدة، حتى الشجعان تنتابهم القشعريرة أحياناً، ثم تقدم بثبات داخلاً وسط أنياب هذه الريح.

دلف للمقصورة فوجدها ممتلئة تماماً على غير العادة في مثل هذا الوقت، حينما أطل بوجهه قام الناس تحية له، فقال لهم: السلام تحية فردوا عليه قائلين: أبلغت، هكذا جرت العادة حينما يكون العدد كبيراً والمكان مزدحماً، بدلا من المصافحة، كان الشيخ سلطان القاضي جالساً في صدر المجلس فترك مجلسه وتقدم وأخذ بيد سعيد المطنن –الذي كان مازال في الباب يجول ببصره– وهو يرحب به حتى أجلسه بجواره،

تنحنح الشيخ سلطان، ثم قال: الحمد لله على سلامتك يا ولدي، أخبرنا ما الذي حدث؟ أخبرنا بكل التفاصيل، عاد سعيد مرة أخرى لفقاعة الصمت التي يلوذ بها منذ حدث ما حدث، كانت عيناه تسبحان في الشرود كأنه أنفصل عن واقعه تماماً.

أعاد الشيخ سؤاله مرة أخرى؛ فتلفت حوله وجال ببصره في وجوه الحاضرين، كان بعضهم ينظر إليه نظرة سخرية وشماتة، بينما البعض ينظر إليه نظرة إجلال وتشجيع، طال صمته وسرى الوجوم حتى كاد ينتهي مطاف صبرهم؛ فهزه الشيخ من كتفيه برفق كأنما يريد أن ينتشله من أعماق الشرود، وقال له: تكلم يا سبع الليل يا أشجع الشجعان فنحن جميعاً فخورون بك وببطولتك، تنهد سعيد كأنما آتت كلمات الشيخ مفعولها.

بدأ بالحديث ببطء وخفوت ثم ارتفع صوته تدريجياً وأخبرهم بمغامرته الليلية بدءاً من خروجه من بيته وحتى عودته، طبعاً هناك أحداث أغفلها ولم يذكرها وخاصة ما حدث مع حماره في دمدمه، وحينما وصل في حديثه لمقابلته مع المسخ الرهيب سكت كأنه يلتقط أنفاسه، فقال له الشيخ: رائع واصل حديثك رعاك الله، واصل سعيد حديثه وتكلم بالتفصيل عما حدث عند بير الحُجر، أقسم لهم أن الوحش وقف أمامه كأنه رجل عملاق، ووصفه لهم بدقة كأنه يراه أمامه، كان الناس في

المقصورة منصتين له كأن على رؤوسهم الطير؛ فلا تكاد تسمع إلا صوت أنفاسهم، وحينما انتهى من كلامه لم يتحدث أحد من هيبة الموقف.

تعلقت عيونهم بشفتي الشيخ يتلهفون لتعليقه على ما قاله الصياد، ولكن الشيخ سلطان قال: هذا أغرب ما سمعته أذناي في حياتي، ثم التفت للحاج ناصر مرشد وقال له ما رأيك يا حاج ناصر، هنا تعلقت العيون والأذان بما سيقوله الحاج ناصر، حتى سعيد المطنن كان مهما بالنسبة له رأي الحاج ناصر.

تنحنح الحاج ناصر ثم بادر قائلاً: كلام سعيد المطنن لم يجاوز الحقيقة، بالفعل... وصفه الذي وصف به الوحش كان دقيقاً، أذكر أن الشخص الرابع الذي تمكن من النيل من الوحش قبل ستين عاماً وصفه بوصف مقارب لما قاله سعيد، ولكن وصف سعيد كان أكثر دقةً وتفصيلا وقد أكد ظني سعيد بكلامه أن هذا الوحش أو الطاهش ليس من عالمنا أبداً، أقصد أنه ليس من عالم البشر؛ فهذا المسخ بملامحه وصفاته التي ذكرها سعيد ليس له شبيه أبداً من الحيوانات المفترسة التي نعرفها أو سمعنا عنها، وسرعة اختفائه من أمام رصاصة وعدم ترك أي أثر خلفه يؤكد هذا الظن.

وهذا الأمر تكرر أيضًا في الماضي؛ فبعد أن أصابه الرجل بسيفه إصابة مؤكدة وبليغة كما أكد الرجل لم يترك وراءه أي أثر من جثة أو دماء أو حتى أثار أقدامه؛ لذا أعتقد أنه غير قابل للقتل على الأقل بوسائلنا التقليدية، لذلك فأنا مقتنع تماماً بكلام الصياد سعيد، وإن كنت لا أوافق ولا أشجعه بالمغامرة التي قام بها؛ فقد كاد أن يفقد حياته، وحتى الآن لا أدري لماذا لم يهاجمه ذلك المسخ واكتفى فقط بالوقوف هناك كالمتفرج.

لذلك أرجو منك يا شيخ سلطان أن تلزمه بعدم تكرار تلك المغامرة، مع أنني أشك أن يظهر مرةً أخرى، ولكنني في الحقيقة معجبٌ أيما إعجاب بشجاعته وإقدامه وبسالته، الأمر الذي قام به لا يقوم به أي أحد، انتزعت ابتسامة من شفتي سعيد المطنن رغماً عنه هذه الشهادة من الحاج ناصر، وترددت كلمات الإعجاب والإطراء من بقية الحاضرين.

ثم تحدث الشيخ سلطان قائلاً: بارك الله فيك وأطال الله في عمرك يا حاج ناصر فقد كشفت لنا بعض الغموض الذي أحاط بهذه الحادثة، لذلك أرجو من الجميع وخاصة سعيد المُطنن الالتزام بما سنتفق عليه الآن، ثم وجه كلامه لسعيد وقال: اعلم أننا جميعاً نفخر بك ونعتز بشجاعتك وإقدامك، ولكن يجب ألا تحاول مرةً أخرى التصدي لهذا

الوحش الكاسر، يمكننا أن نحتمل فقدان بعض الأغنام، ولكننا لن نحتمل فقدان أي أحدٍ من أبنائنا، سكت سعيد فكرر الشيخ كلامه، ثم قال له: والآن ما قولك؟ هل أنت ملتزم بهذا؟

تنهد سعيد وتلفت حوله ينظر في وجوه الحاضرين كأنما يطلب منهم العون، ثم قال نعم، كلامك يا شيخ على العين والرأس ولكن بشرط، نظر له الشيخ باستغراب وقال له: وما هو؟

قال سعيد: إذا لم يعد المسخ للاعتداء علينا فلن أخرج من بيتي، حتى لو شاهده الناس يمشي بين بيوت القرية، أما لو عاد واعتدى ولو على شاة واحدة فأنا لن أقف مكتوف الأيدي ومربوط الأرجل، سأكون له بالمرصاد، ليس هذا من قبيل العصيان لأوامرك، ولكن هذه وظيفتي وهذا عملي، فإما أن نعيش في أمان وسلام وإما أن أهلك وقد بذلت وسعي وقمتُ بما يجب عليَّ القيام به، نظر له الشيخ بامتعاض وهز رأسه والتفت للحاج ناصر وهو يقول: يا لحماسة الشباب واندفاعهم، ثم نهض وهو يقول: يكون خيراً إن شاء الله.

خرج سعيد المُطنن من المقصورة وأخذ نفساً عميقاً، كانت الشمس قد أشرقت منذ فترة قصيرة، مشى خطوات في الطريق بين الحقول متجهاً إلى بيته، ثم توقف واستدار للخلف ونظر إلى الجبل الشاهق الذي تستكين القرية في سفحه، محتضناً أخاهُ الأصغر جبل سُمَّدَين في عطفٍ

وحنو، كان كسولاً وغيرَ مبالٍ، بخفةٍ ينفضُ الفضاءات عن كاهلهِ[1]، يعرف طريقةُ الحمام البري(العيل) الذي يمرقُ فوق البيوت وتحت السماء، وكذلك كانت الجوالب[2] والنسور والغربان.

كان مستغرقاً ومنشغلاً بذاته إلى ما لانهاية، حيث السماء تغطي ما تغطي وتكشف ما تكشف، والشمس تسيل كالذهب فوق منحدراتهِ الشاهقة، ويتساقط الضوء رقائق ذهبية على أكنافه، والسماءُ قبةٌ زرقاء صافية الزرقة تحيط به في جلالٍ وبهاء، تُكلله ندفٌ من السحب البيضاء، ثم تتآلف تاجاً على هامته الشامخة وقمته السامقة.

وعندما تتساقط الأمطار تبدو كأنها حبات لؤلؤٍ مكنون تتناثر فوق سفوحه، ثم تستحيل جداول من فضةٍ لامعة كمرايا تعكس خيوط الذهب المنسابة مع ضوء الشمس الساطع.

كان جبل سمدان هناك يختال كطاووس منتشٍ بجمالٍ لا نظير له، مجتمعةٌ أوصاله ومنتثر، مبدد في صخور مبعثرة، منجرفاً نحو الأعالي منحدراً نحو السفوح، ممزقاً ومجروح، غارقاً ومحتشد، وفي الأسفل هديرُ تلك الشلالات، صوتٌ يشنف الأسماع، موسيقى كونية لا مثيل لها، وصورةٌ بديعة تتلألأ تأسر القلوب وتأخذ بالألباب، ثم تظهر الشعاب تحتضن

---

[1] الكاهل هو أعلى الظهر مما يلي العنق، ما بين كتفيه، معجم المعاني الجامع.

[2] اليمام.

أشجارها في حنان أمٍ رؤوم، تتنوع ما بين علبِ وعسق وظراب وخدشٍ وقرض[1]، ثم دخان يزحف بطيئاً من مداخن البيوت مثل ذيول الثعابين متجهاً نحو الذُّرى.

ها قد بدأ يوم جديد وانتشرت رائحة الخبز الطازج مفعمةً شهية، تدغدغُ الأنوف وتتحرشُ البطون الخاوية، ثم أصوات نباحٍ ونهيق وثغاء وخوار وتغريد طيور، وأصوات أطفال يضحكون ويلعبون، تداعب نسمات الصباح خصلات شعورهم، وتقبل أشعة الشمس وجنات خدودهم، ها هو الصباح قد انبلج وأشرقت معه الحياة كلها دفعةً واحدة في قريته الوادعة، أقسم سعيد لنفسه أنها ستظل وادعة آمنة، ولن يسمح لأحد أبداً أن يحيل أمنها إلى خوف أو ضوءها إلى ظلام، لن يسمح لأحد ولو كان الشيطان نفسه.

[1] أسماء أشجار باللهجة المحلية معظمها شوكية.

-6-

انتقام في رابعة النهار

بعد شهر، جلس الراعي سيف الفقي في ظل شجرة عِلب(سدر)، كان الوقت قبيل الظهر بساعتين، وكانت الشمس ساطعة والسماء تتزين بندف من السحب البيضاء تطارد بعضها بعضاً، والريح تكاد تكون راكدة إلا من نسمات عليلة تهب بين الحين والآخر، كان الطقس قد بدأ يعتدل، وحمل الشتاء عصاه ورحل، وكاد الربيع أن يستوي على عرشه، وها هو الربيع كما قال البحتري عنه: يختال ضاحكاً من الحُسنِ حتى كاد أن يتكلما.

بينما سيف الفقي متكئ على صخرةٍ صغيرة بجواره، كان يبدو عليه أنه شارد الذهن وأنه منفصلٌ عن الواقع، لكنه ليس كذلك، كان يراقب القطيع بعينين يقظتين وذهنٍ حاضر، كان المكان الذي قصده لرعي أغنامه عبارة عن ربوةٍ مرتفعة قليلاً، وتحتها أرض منبسطة مترعة بالحشائش والأعشاب والأشجار والشجيرات، بعضها يجلله الشوك والبعض يخلوا منها.

كان الهدوء يسود المكان يتخلل ذلك الهدوء أصوات الماشية، وزقزقة عصافير مغردة تتقافز بمرح فوق الأغصان، تطير أسراباً تلعب ويطارد بعضها البعض في فرحة غامرة بقدوم الربيع.

شعر سيف الفقي بالجوع يقرص معدته، فهو لم يأكل شيئاً منذ أن أكل لقيمات من خبز الطاوة[1] بعد صلاة الفجر، وقليلاً من التمر الجاف (القَصْب) والقهوة المُرة، التفتَ إلى مخلاته التي كانت بجواره، فتحها وأخرج منها ثلاث خبزات طاوة، ثم أخرج أيضًا وعاء معدنيا صغيرا يسمى (كاتورة)، وقام متثاقلاً واختار عنزة سمينة ضرعها ممتلئ بالحليب كانت واقفة على قائمتيها الخلفيتين تأكل من أوراق شجرة قرض[2] قريبة، أمسك بها ثم حلب قليلاً في ذلك الإناء ثم اتجه إلى عنزةٍ أخرى وحلب منها قليلاً، وهكذا اختار خمس عنزات وحلب من كل واحدة منها قليلاً، جاوز الحليب منتصف الوعاء يعلوه زبدٌ ورغوة بيضاء جميلة.

بالطبع ما كان للراعي سيف أن يقوم بذلك من تلقاء نفسه، وإلا كان ذلك سرقة وخيانةً للأمانة، ولكن كان عرفاً سائداً في البلاد أنه يحق

---

[1] نوع من أنواع الخبز ينضج بوضعه على صاج حديدي يشعل تحته نار، ويرش فوقه قليلا من الزيت كيلا يلتصق بالصاج.

[2] شجرة شوكية تعرف أيضًا بالسنط أو الأكاسيا أو الطلح هو جنس نباتي من الفصيلة البقولية، يتميز بطول أشواكه يستخدم لحاؤه كقابض قوي ويقوي الغشاء المخاطي للمعدة، وكعلاج للإسهال ويستخرج منه الصمغ العربي.

للراعي أن يأخذ لنفسه ما يكفيه من اللبن الطازج بشرط ألا يسبب الضرر، ولا يأخذ منه لبيته إلا بإذن، وهذا العرف يسري أيضًا على حليب الأبقار سواءً كان طازجاً أو حتى اللبن الرائب (الحقين)، كان يعطى لمن يريد بلا مقابل سواء كان للجار أو عابر سبيل، كان يرون أنه من العيب والعار أن يباع اللبن أو يؤخذ عليه أي مقابل، ما عدا مشتقات الألبان مثل السمن والزبدة والجبن فيمكن لهذه الأشياء أن تباع.

تماماً مثل ذلك العرف الذي يحق بموجبه لأي إنسان سواءً كان من أهل البلاد أو عابر سبيل أن يدخل إلى أي بستان بعد أن يرفع صوته بالتهليل كي تتنحى النساء جانباً إن كان أحد منهن في البستان، ثم يأكل من ثماره ما يشاء شرط ألا يدوس بأقدامه الزرع، أو يكسر غصناً أو يخرج من الثمار شيئاً للخارج إلا بإذن صاحب البستان، وغالباً كانوا يأذنون بنفس طيبة إذا كانت الكمية التي سيخرجها معقولة وليس فيها مظنة للتجارة.

أكل سيف الخبز وشرب ذلك اللبن وحمد الله، ثم جال ببصره يتفقد قطيعه، فلما اطمأنَّ عليه عاد مرةً أخرى ليستند على جذع الشجرة ويتكئ على الصخرة وأخذ يستمتع بأصوات تغريد الطيور، كان يحبُ الإنصات إلى موسيقى الطبيعة، يأسره خرير الماء واندفاع السيل وصوت

تساقط المطر وحفيف الأوراق وأصوات البلابل والشحارير وأبا الحناء، حتى أصوات الحيوانات الأليفة، مواء قطة تستجدي طعاماً أو نباح كلب يختصم مع رفيقه، أو خوار بقرة تنادي عجلها، يسعده جداً سماع الأصوات التي يصدرها قطيعه.

كانت هناك علاقة حب ومودة متبادلة بينه وبين قطيعه، كان يسبح الخالق منتشياً كلما سمع تغريداً شجياً لطير ما، بل ويلتقم شبابته يحاول أن يقلد ذلك التغريد، ولكن أنى له أن يبلغ روعة ذلك اللحن الفطري، وبالفعل التقم شبابته (الناي) وأخذ يعزف لحناً بعد لحنٍ وصدى تلك الألحان يتردد بين تلك التلال والوديان.

توقف عن العزف وتذكر ذلك الاجتماع الذي عقده شيخ البلاد في المقصورة الملحقة بالجامع، حينما حكى الصياد سعيد المُطَنِنْ حكايته مع الطاهش، أخذ الراعي يسأل نفسه، هل يُعقل أن ذلك الوحش من الجان مثلاً؟ وإذا كان كذلك لماذا يستهدف قطيعه هو بالذات؟ ما الذي فعله به كي يهاجم قطيعه المسكين؟

لا شك أنه ليس من عالمنا أبداً، كما أكد ذلك الحاج ناصر مرشد، ولكن المحير في الأمر لماذا في هذا الوقت بالذات يأتي ويهاجم قطيعة هو بالذات؟ وهل سيكتفي بما أخذه في ذلك المساء، كما توقع الحاج ناصر أم أنه سيضرب ضربته الثانية؟ والخوف كل الخوف أن يستهدف البشر.

فكر بالصياد سعيد المطنن، كيف لم تخذله قدماه وهو في مواجهة ذلك الوحش القبيح؟ هل كانت تلك شجاعة منه أم تهور؟

في الحقيقة كان في قرار نفسه يحترم جرأة ذلك الصياد وقدرته ومهارته، ولا ينسَ أيضًا كرمه، عدا أن سعيداً المطنن جاره فقد كان كريماً معه إلى حد كبير فلا يكاد يمر يوم إلا ووصلت إلى بيته هدية من سعيد المطنن، أحيانا يرسل له أرنباً برياً سميناً أو عدة أوبار وأحيانا نصف أو ربع ظبي أو عدداً من طيور العُقَب (السَّمَان)، وكثيراً من الأحيان كان يزوره في بيته بعد العشاء ويصطحب معه كِلوات[1] من أفخر أنواع القات ويتسامران حتى قرب أذان الفجر، الحمد لله أنه لم يصب بأذى، لو حدث له مكروه لا سمح الله فستكون خسارة القرية فادحة، وسيحزن عليه كثيرون ممن يصيبهم كرمه وجوده وسماحة نفسه.

قطع عليه خواطره تلك صوت آذان الظهر من جامع الهتار، فترك كل شيء في مكانه وهبط إلى الينبوع المسمى (الفوارة) –المشهور بنقاء مائه وبرودته– فتوضأ وشعر بالانتعاش، ثم عاد لمكانه وشرع في أداء الصلاة.

بعد الانتهاء سمع خطوات يعرفها جيدا كانت ابنته المحبوبة سلمى ذات الثمانِ سنوات تقترب تحمل على رأسها الصغير بُقْشَة (صُرَّة) مزمومة

---

[1] حزمة كبيرة من أغصان القات الطرية.

فيها غداءه، وصلت سلمى وألقت التحية على أبيها وقبلت رأسه فدعا لها بالصلاح، ثم قدمت الغداء وجلست لتأكل معه فهو لا يحب أبداً أن يأكل وحده، وأحياناً كانت تأتي زوجته بالغداء ويأكلان معاً كي تشجعه على الأكل، فتح الصُّرة فوجد فيها كاتورة من النوع الذي غطاءها ملتصق بها بمفصل متحرك، فتحها فوجدها مترعة بعصيدة الذرة وفي وسطها حفرة مملوءة بالوزف[1] السائل ويطفو علية طبقة من زيت السمسم البلدي، كانت الرائحة الشهية تملأ أنفه، شرعا يأكلان حتى شبعا فحمد الله، وقال لابنته سلمى: أصلحك الله يا ابنتي خذي ما تبقى وعودي للبيت.

قام وأعد لنفسه متكأً جيداً استعداداً للمقيل ثم أخرج كيساً مملوء بأغصان القات الغضة، وأخرج جهاز الراديو الصغير الذي يعمل بالبطاريات، وضبط مؤشر الموجات على إذاعة عدن التي تصل واضحة أفضل من إذاعة صنعاء، نظراً لقرب البلاد من مدينة عدن؛ فصدح صوت الموسيقى هادئة رقراقة بأغنية "يا رب من له حبيب لا تحرمه من حبيبه" أعجبته الأغنية؛ فاعتدل مزاجه وبدأ يمضغ وريقات القات الطرية باستمتاع ولذة، وبدأت روحه تحلق في سماء الأحلام الوردية، وأخذ يهز رأسه طرباً ومتعة.

---

[1] نوع من سمك السردين الصغير المجفف، وهو مرغوب عند الناس في محافظة تعز حيث يحمص ثم يطحن وعند الرغبة في أكله يخلط بالماء والفلفل الأخضر والطماطم.

بعد أن انتهت الأغنية مدَّ يده إلى حزامه ليتأكد من وجود المسدس الروسي الكامل[1] الذي أعطاه الشيخ سلطان، وطلب منه إذا شعر بالخطر أن يطلق الست الطلقات الموجودة في خزنة المسدس، كي تكون إشارة لنداء استغاثة، مع أن الحاج ناصراً أكد أنَّ المسخ لن يظهر مرة أخرى بعد تلك الحادثة التي حصلت للصياد سعيد، ولكن الحذر واجب كما يقولون في المثل الشعبي " الحذر ولا الشجاعة".

كان الراعي سيف مستغرقاً في أفكاره وغارقاً في نشوته مع القات والأغاني، وفجأة وبدون سابق إنذار هاجت الرياح، وثارت زوابع في عدة أماكن متفرقة، كانت تبتعد وتقترب منه، وحملت الكثير من الغبار والأعشاب وأوراق الأشجار، حتى كادت أن تحجب عنه الرؤية، أغلق سيف عينيه وتلثم بمشدته كيلا يدخل الغبار والأتربة إليهما، واستغرب كثيرا من هذه الزوابع إذ أنه في شهر نيسان وهو ليس موسم الرياح والزوابع، هذا ليس شهر شباط.

سمع أثناء هيجان تلك الزوابع ضجة كبيرة كانت خليطاً من ثغاء الخرفان ومأمأة الماعز وصلصلة الأجراس المعلقة في رقاب بعض الحيوانات، ظنّ أن الزوابع أخافت القطيع، ولكنه مع ذلك شعر بالقلق، فانتفض واقفاً

---

[1] هو مسدس حربي روسي ذاتي التحميل نصف أتوماتيكي من عيار 7.62 ملم يسمى (توكاريف).

وأخذ يحدُّ النظر يريد أن يعرف ما الذي أهاج القطيع، ولكنه لم يرَ إلا الزوابع التي تدور هنا وهناك، تقدم كي يتأكد عن قرب وبعد أن سار عدة خطوات هدأت كل تلك الزوابع فجأة وساد هدوء حذر، واصل سيره حتى وصل إلى أقرب مكان كانت تدور فيه زوبعة، وهناك اكتشف الفاجعة.

كانت الصدمة شديدة، كانت هناك ثلاث جثث لخروفين وجَدي ممزقة ومطحونة طحنا، بشكل لا إرادي امتشق سيف الراعي المسدس وأطلق جميع الرصاصات التي كانت في جوفه في الهواء، وفي الحال تجاوبت معه كل القرى من حوله وأطلق الناس من بنادقهم طلقة واحدة إشارة إلى استجابتهم لنداء الاستغاثة.

في تلك الأثناء وبينما هو ينتظر وصول الناس قام الراعي بتفقد بقية الأضرار التي أصابت قطيعه؛ فوجد أن الأضرار كانت فادحة، كانت هناك عشر جثث متوزعة في الأماكن التي كانت تدور فيها الزوابع، وهناك أيضًا خمس تيوس مفقودة، خمس عشرة ضحية دفعة واحدة يا للجنون أي كارثة هذه التي ألمت بقطيعه المسكين.

لم يستطع الراعي الوقوف كانت رجلاه ترتعشان من فرط توتره فجلس وشعر بأنه محض إنسان فاشل، راعٍ غير جدير بالثقة، تساءل وهو يضع رأسه بين كفيه: كيف خدع بهذه السهولة، ولكن هل كان في مقدوره أن

يمنع ما حدث؟ وأخذ يهز رأسه بؤساً وخيبة بينما بدأت طلائع الناس في القدوم إلى أرض المعركة.

-7-

إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصارا

بدأ الناس في التوافد على الموقع وطفقوا يتفقدون المكان الذي بدا كأنه بالفعل ساحة معركة، ولكنها غير متكافئة، كانت جثث الماشية المقتولة مبعثرة في عدة مواقع، وكانت تبدو كأنها وضعت في خلاطة أو فرامة، كل شيء مختلط ببعضه، اللحم والعظام والجلود والدماء أصبحت كتلة واحدة غير محددة المعالم.

أخذ الناس يتهامسون وترتفع أصواتهم تدريجياً بأسئلة محيرة، ما هذا الشيء الذي له القوة والقدرة على فعل أمر كهذا؟ ثم تجمعوا حول الراعي المذهول الذي كان ينظر إليهم بشرود، في تلك اللحظة وصل الشيخ سلطان القاضي ومعه بعض أعيان البلاد وكبار السن، أخذوا دورة على موقع المذبحة ينظرون ويتفحصون الأشلاء المبعثرة، ثم اتجهوا للراعي المفجوع فطلب منه الشيخ أن يروي ما حدث بالتفصيل؛ فروى لهم سيف الفقي كيف كان الوضع في غاية الهدوء ثم كيف ثارت تلك الزوابع في وقت واحد، وكيف تم الأمر في خلال لحظات قليلة.

استغرب الجميع، وعقدت الدهشة ألسنتهم، ما حدث فاق كل تصوراتهم بل وحتى خيالاتهم وإمكاناتهم البشرية، صمت الجميع واجمين، ثم قطع ذلك الصمت صوت الحاج ناصر مرشد وهو يقول: يا جماعة نحن في خطر داهم؛ فما نواجهه اليوم لا طاقة لنا به، ولا نعلم ما سبب كل هذا الانتقام، ليته كان جائعاً يريد أن يأكل فحسب لفهمنا دوافعه، ولكنه يقتل لمجرد القتل، كأن الأمر بالنسبة إليه محض متعة لا غير، سكت قليلاً ثم قال: أخشى يا شيخ أن يتطور الأمر.

نظر إليه الشيخ بقلق وقال له: ماذا تقصد يا حاج ناصر؟ رد عليه الحاج ناصر قائلاً: أريد أن أحدثك بانفراد، قال الشيخ لا بأس، ثم قاما واتجها إلى مكان قصي عن بقية الناس، ثم قال تكلم ما الذي تريد قوله وتخشى أن يسمعه بقية الناس؟ حوقل الحاج ناصر ثم قال: أخشى أن هذا ما هو إلا انتقام لما حدث قبل ستين عاماً أو للمواجهة التي حدثت مع سعيد المطنن، وأكثر ما أخشاه ويقلقني كثيراً أن يتطور الأمر ويتعدى استهداف ماشيتنا إلى استهداف البشر.

حملق فيه الشيخ برعب ودهشة وقال: لا تقل ذلك يا حاج ناصر، لا يا حاج ناصر هذا أمر في غاية الخطورة، رد عليه الحاج ناصر: أنا لا أستبعد ذلك، ويجب علينا أن نتوقع أسوأ الاحتمالات صيانة لدماء الناس وكي لا نتفاجأ ونؤخذ على حين غرة كما حدث مع الراعي.

تفصد العرق من جبين الشيخ سلطان وهو يتخيل كيف سيكون الوضع إذا هاجم ذلك المسخ الناس؟ كيف سندافع عن أنفسنا؟ إذا كانت حتى بندقية الصياد سعيد المطنن لم تؤثر فيه، وهي أقوى سلاح متوفر لديهم.

نظر إلى الحاج ناصر وقال له: ماذا تقترح؟ قال الحاج أقترح أن يتوقف الراعي سيف الفقي عن رعي الماشية لفترة من الزمن حتى تنجلي هذه الغمة، ويتكفل كل صاحب غنم برعي أغنامه، والأفضل أن يحتفظوا بأغنامهم في زرائبها ويشتروا الأعلاف من السوق، أعجب الشيخ بهذا الرأي وعاد هو والحاج ناصر إلى مكان جلوسهما السابق بين الناس، وأعلن لهم هذا القرار وطلب من الحاضرين أن يبلغوا الغائبين، ولكن البعض امتعضوا من هذا القرار الذي سيزيد من أعبائهم المالية، وأخذوا يجادلون ويناقشون، ولكنهم في الأخير تقبلوه على مضض.

تلفت الشيخ سلطان حوله وأخذ يتفرس في وجوه القوم من حوله، ثم سأل أين الصياد سعيد المطنن؟ تلفت الناس يبحثون عنه فلم يجدوه، إلا رجلا واحداً لمحه فصاح وهو يشير للجبل قائلاً هناك يا شيخ، التفت الشيخ وبقية الناس فرأوه هناك على سفح الجبل في مكان يسمى (رَكَب شعيرة)، كان واقفاً مشغولاً عنهم يضع على عينيه منظاراً عسكرياً مقرباً من ذلك النوع الذي يستخدم في توجيه مدفعية الميدان.

لا أحد يعلم إلا الله كيف حصل عليه، ولا ما يفعله هناك، كان المكان بعيدا عنهم، حتى لو نادوه بأعلى أصواتهم لن يسمع؛ لذا أمر الشيخ أسرع الموجودين أن ينطلق ويأتيه بسعيد الصياد، ولكن كيف وصل الصياد إلى ذلك المكان بتلك السرعة؟ وأين كان عندما بدأ الناس في التوافد إلى مكان الحادثة؟ الله أعلم.

كان سعيد المطنن جالساً في داره في أمان الله بين زوجته صفية وأمه رشيدة، بينما كان أطفاله يلعبون أمامه في الديوان وطفلته الصغيرة سلوى التي عمرها خمسة أشهر في حضنه، فجأة سمع صوت الطلقات النارية الستة المتتابعة؛ فتشنج جسمه مباشرة وعرف أنها تلك الإشارة المتفق عليها مع سيف الفقي إذا داهمه الخطر، وضع الرضيعة بهدوء في حجر أمها، ثم قام بسرعة وأخذ يلبس ويتجهز، وطلب من زوجته صفية أن تجهز له بعض الطلبات التي استغربت منها ولكنها لم تناقشه فيها وذهبت سريعاً تجهز له حلتيت[1] وصبر ومُر وبسباس زعيتر مطحون، أخذ مخلاته ووضع بها بعض الأدوات التي قدر أنه سيحتاجها، من بينها

---

[1] الحلتيت أو الوشق أو علك الكلخ أو صمغ الأنجدان هو صمغ نبات الكلخ سيئ الطعم مر المذاق رائحته كريهة جدا لونه مائل للاحمرار يذوب في الماء ويجعل لونه كاللبن، هذا الصمغ معروف منذ القدم وكانوا يجعلونه في البخور لطرد الجن والشياطين وله فوائد علاجية إذا استخدم بكمية قليلة.

كشافةُ القوي والمنظار العسكري المقرب (الناظور) وسيفه القصير الذي يبلغ طول نصله نصف متر تقريباً ويسمى(الجُرْدَة).

ثم تناول أيضًا سلاحاً آلياً رشاشاً يطلق الرصاص بشكل سريع، وهو سلاحٌ بريطانيٌ من بقايا الحرب العالمية الثانية يسمى (ستريلنج) 9ملم، ويسمونه الناس هنا (بندق ماكينة) لأنه لا يطلق بشكل فردي وإنما على شكل صليات، وهو سلاح فعال في الاشتباكات القريبة المدى، ويستخدم في حرب الشوارع، وتفضله العصابات وله خزنة سعتها ثلاثين طلقة.

بعد أن انتهى من التجهز وقبل أن يخرج من داره توجه إلى أمه وقبل يديها ورأسها وطلب منها الدعاء له بالتوفيق في مهمته، ثم قبل أطفاله واحتضن زوجته وقبل وجنتيها، ثم اتجه لباب داره ولكنه تفاجأ بأمه تسد بجسدها الباب مانعةً إياه من الخروج، نظر إليها مستفهماً، فقالت له: لن تخرج من هذا الباب حتى تعطيني وعداً بعدم التهور وتعريض نفسك للخطر، كان إحساس الأم يقول لها أن ابنها في خطر حينما يخرج من ذلك الباب، هي تعرف تماماً شجاعته التي تصل في كثير من الأحيان حد التهور؛ لذا طلبت منه هذا الوعد، وانضمت إليها أيضًا زوجته فأخذت تطلب منه عدم مواجهة ذلك المسخ ودموعها تُغرق خديها.

استغرب سعيد كيف قامت أمه وزوجته بتجهيزه ثم فجأة تطلبان منه عدم المواجهة لكن لا أحد يعرف كيف تفكر النساء، طلب منهما أن تتنحيا جانباً ولكنهما لم تتزحزحا وقالت له أمه: أنا أمك وحق عليك طاعتي، فقال لها صدقتِ يا أماه ولكن أرواح الناس في بلادنا في خطر، وقد دعاني واجبي فماذا أفعل؟ هل أطيعكن وأجلس بجواركن؟ أم أقوم بواجبي؟ هناك اعتداء علينا فهل نقف مستسلمين أمامه؟ لقد أمرنا الله أن ندافع على أنفسنا، فقد قال تعالى:(ولمن أنتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) الشورى41.

يا أمي الحبيبة ويا زوجتي الغالية أنا صياد القرية وما كان لي أن أخذل بلادي وقريتي، سأقوم بما يمليه عليَّ واجبي كي أعذر أمام الله وأمام خلقه، ولكنني أعدكن بأن ألتزم الحيطة والحذر وألا أقوم بأي تصرف متهور.

طأطأت أمه رأسها وكذلك زوجته التي مازالت تنتحب، ثم تنحيا عن الباب وقالت له أمه: يا بني قبل أن تخرج ردد معي هذا الدعاء، قال: وما هو؟ قالت: قل (بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أعوذ بك من أن أضل أو أُضل أو أَزل أو أُزل أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يُجهل عليَّ، ربِ أنزلني مُنزلا مباركاً وأنت خير

المنزلين) ثم احتضنته أمه باكيةً وكذلك زوجته وهي تقول أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

خرج من داره وأصوات البكاء تتردد فيها، خطى خطوات قليلة للأمام، ثم عاد وقال لهن هل هذا هو وداعكن لي، بالبكاء؟ كأنكن تودعانني إلى قبري، أين تشجيعكن لي وثقتكن بالله؟ لا أريد أن أذهب حتى أرى الابتسامة على وجوهكن، ترددتا قليلاً ثم ابتسمتا ابتسامة نزعتا رغماً عنهن، غادر داره وترك خلفه سحابةً من أمل تغالب ركام اليأس، وحزناً يشوبه فخر واعتزاز، أنطلق بسرعةً يرقى الجبل حتى وصل إلى (رَكَب شعيرة)، وقف على ربوة ينظر بمنظاره، ظل هناك يستطلع أرض المعركة ويخطط ويقدر من أين أتى المسخ؟ وإلى أين سوف يتجه؟ حتى أتاه رسول الشيخ سلطان وطلب منه إجابة الشيخ.

هبط سريعا يعدو حتى أقبل على الشيخ والناس يتحلقون حوله، كان بجواره الحاج ناصر والراعي سيف الفقي وبعض الأعيان، فأفسح له الشيخ وأجلسه بجواره، وقال له: يا بني كما ترى نحن في حال لا نحسد عليه كما قال الحاج ناصر ما يحدث هو فوق طاقتنا لذا سيتوقف الراعي عن عمله وكل صاحب ماشية سيشتري لأغنامه علفاً من السوق.

تلفت سعيد الصياد حوله ينظر في وجوه الناس فوجد فيها القلق والخوف واليأس تلوح بوادره في عيونهم المنكسرة، فقال: يا شيخ أسمح

لي أن أخالفكم الرأي رغم أنني أعتبر نفسي أحد أبنائكم وعلمي لا يرقى لمستوى علمكم وعلم بقية سكان البلاد، فأنا أقلكم علماً، ولكن أسمح لي يا شيخ أن أطرح وجهة نظري، قال الشيخ: بالفعل فأنا أعتبرك أحد أولادي تفضل اشرح وجهة نظرك.

أخذ نفساً عميقاً ثم أثنى على الله وصلى على رسوله ثم قال: يا أهلي الكرام لابد أننا نعلم أن الله سبحانه لا يمكن أن يحملنا فوق ما نطيق فهو القائل "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"، وقد أمرنا أن ندافع عن أنفسنا وألا نستسلم للذل والخنوع، ونسلم أنفسنا وأموالنا وأعراضنا لأعدائنا فقال "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثلِ ما اعتدى عليكم"، وقال "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين".

لذا يجب علينا أن نقابل الإحسان بالإحسان، والاعتداء باعتداء مثله، لأننا إذا لم نفعل ذلك فإن عدونا كائناً من كان سيتسلط على رقابنا وسنظل عبيداً له ما حيينا جيلاً بعد جيل، فهل سنركع له ونظل نمضغ الذل ونقتات الهوان؟ أم يجب علينا أن نقاوم ونبذل ما في وسعنا.؟

سكت سعيد المطنن فقال الشيخ سلطان: لكن أنت بذلك ستضحي بنفسك، وستقتحم مخاطر لا يعلم سوى الله مداها، قال سعيد وهو يبتسم: ربما نعم وربما لا؛ فقد يكون النصر حليفي، ثقتي بالله تدعوني

كي أتمسك بالأمل ولو كان خيطاً واهياً، رد الشيخ: ولكن الحاج ناصر قال ربما يكون هذا المسخ من الجان، فقال سعيد في شموخٍ وثقة إن كان هو جنياً فأنا مارد وإن كان ريحاً فأنا إعصار، وإن كان برقاً فأنا صاعقة، أرجوكم اتركوني إن بيني وبينه حساباً لم يصف بعد.

أطلب منك الإذن يا شيخ للقيام بعملي فهل تمنحني إياه؟

صمت الشيخ قليلاً وأخذ ينكش الأرض بعصاه كأنه يبحث فيها عن إجابة للسؤال، ثم رفع نظره وعيناه حزينتان وقال: اذهب يا بني، اذهب وعين الله ترعاك، نستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، اذهب وقلوبنا تلهج لك بالدعاء أن يوفقك الله وتعود لنا سالماً غانماً.

انصرف سعيد سريعاً وهو ينظر أمامه قبل أن ينفطر قلبه وهو يرى الدموع تترقرق في عيون بعض الحاضرين، لم يلتفت خلفه بل يمم وجهه صوب جبل سمدان، كأنه يعرف تماماً هدفه، وكأنه يسمع نداء خفياً يناديه.

-8-

نداء الجبل السحري

بمجرد انصراف الصياد واختفائه خلف الأكمة القريبة التفت الشيخ سلطان لمن حوله وقال: لقد لقننا هذا الرجل دروساً في الشجاعة والإقدام والثقة والتضحية، لم أتعرض لها في حياتي، لذا من أراد أن يساعده في البحث فليفعل لكن لا تتبعوه، ابحثوا في أماكن أخرى لأنني أعرف أن ذلك سيضايقه، ثم التفت للراعي سيف الفقي وقال له: عد إلى بيتك وراتبك سيستمر حتى تمر هذه المحنة.

انطلق سعيد الصياد في همة وعزم يبحث ويدقق ويقتص الأثر، في البدء من سفح الجبل ثم وصل إلى هيجة سُقامي الرباح توضأ هناك بمائها البارد الذي ينسكب من الشلال ثم صلى العصر فوق الصخرة الفارهة التي بجوار الشلال، ودعا الله أن يوفقه في مسعاه، ثم واصل بحثه بنفس الحماس الذي بدأ به، وبعد ساعة تقريباً من تحركه من هيجة سُقامي الرباح بدأت تظهر بعض الآثار الغريبة، وجد قطرات حمراء قانية على

أوراق شجرة العنتور[1] لمسها ثم شمها فوجد أنها تحمل رائحة دماء، قال في نفسه ها قد أمسكتُ ببداية الخيط بالرغم من أن الآثار قليلة وتظهر على مسافات متباعدة إلا أنه أيقن أنه على الطريق الصحيح.

أخذ يمشي ببطء ويدقق أكثر فوجد الآثار نفسها تتكرر ووجد أيضًا آثار شعر أغنام مختلطاً بالدماء، كانت الآثار تزداد وضوحاً وتقارباً، توقف قليلاً وأخذ يفكر بصوت مرتفع: عجيب كيف لهذه الآثار أن تكون بهذا الوضوح والتتابع؟ هل هناك من يرتب له ليقوده لفخٍ رهيب أو مصيدة ما؟ طرد هذا الخاطر سريعاً من ذهنه ولكنه أصبح أكثر حذراً.

كان كلما تقدم أكثر يرى الآثار أكثر وضوحاً، ثم رأى آثار سنابك حمار ولكنها أكبر حجماً وأكثر غوراً في الأرض وكان الأثر لقدمين فقط وليس لأربعة كما هو معهود لذوات الأربع؛ فأيقن أن من يطارده ستتقاطع الطرق بينهما قريباً جداً ويجب أن يكون مستعداً، لذا جلس على صخرة وأخذ يسترد أنفاسه ويراجع في ذهنه الخطة التي وضعها والتي لا يعلمها أحد سواه، نزع بندقيته السريعة قصيرة المدى وتأكد من جاهزيتها وأعادها إلى كتفه، ثم أخرج قصبة من الخيزران المجوف يبلغ طولها حوالي نصف متر وأخرج الكيس الذي به الطلبات التي جعل

---

[1] نوع من أنواع التوت البري ثماره تتميز بلونها الأزرق.

زوجته تزوده بها، ثم بدأ يخلط مسحوق الحلتيت والمُر والصَّبِر والبسباس (الفلفل) الأحمر ثم أخذ يحشو تلك القصبة بذلك الخليط العجيب الذي يزعم الناس أنه يؤثر على الجان ويطردهم، أخذ يدك الخليط جيداً في القصبة بواسطة عود طويل اقتطعه من شجرة يابسة حتى امتلأت تماما ثم سدها من طرفيها بواسطة بعض الحشائش والأعشاب وأعادها داخل مخلاته.

قام مواصلاً سيره والآثار تزداد تقارباً ووضوحاً حتى وصل إلى (هيجة عثمان) وهناك يوجد كهف كبيرٌ نسيباً يسمونه الناس (حيد السامعي)، وهذا الكهف يتميز بطبيعته الصخرية القاسية وبالمياه التي تقطر من سقفه طوال السنة، عندما وصل سعيد لهذا الكهف كانت هناك المفاجأة في انتظاره.

كان الكهف يعجُّ بآثار الدماء في كل موضع منه؛ فقد كانت الجدران ملطخة والأرض زلقة أيضاً، كان كهف السامعي كأنما هو ساحة معركة دامية، ولكن العجيب أنه لا توجد أي أشلاء، إنما دماء فقط، كان الصياد مذهولا مما يراه، أخذ يتفحص الأرض ثم انتقل للجدران تلفه الحيرة كأنما هو المحقق شارلوك هولمز يحقق في جريمة مكتملة.

أخذ يتساءل إذا كانت هذه الآثار فأين من سبب كل هذه الفوضى الدموية؟ أين اختفى؟ ولماذا تركزت كل هذه الآثار في هذا الكهف بالذات؟ أين اختفى الجاني؟ وهل سيظهر لي فجأة؟

بينما هو يتفحص الجدران بدقة لمح بريقاً معدنياً يلوح بين حجارة الجدار الجانبي للكهف، فركز ضوء كشافه على تلك النقطة، كان هناك شيء غير طبيعي في تلك البقعة الصغيرة، لكنه لم يستطع أن يحدد ما هو؟

حاول أن يحفر ويوسع البقعة بأظافر يديه لكن الصخور كانت قاسية، توقف قليلاً يفكر ثم قرر أن يستخدم سيفه القصير(الجُردة) ولكنه أحجم عن ذلك فمقبضها مصنوع من الخشب الصلب المغلف بالجلد المقوى بالزيت المغلي، وهو لن يحتمل الحفر به في هذه الصخور القاسية، وكذلك النصل لن يجازف بالحفر بواسطته كي لا يتثلم من جراء ذلك؛ وكذلك عطيفه ذو النصل الحاد لم يرد أن يفقد حدته فقد يحتاج إليه في مواقف أكثر أهمية، لذا قرر أن يستخدم الأخمص المنطوي للبندقية الرشاشة، فتح الأخمص الحديدي ثم بدأ يستخدمه كمعول، كانت كل ضربة من يديه تجعل الحجارة تتناثر على قدمية بكثافة؛ فاستغرب من هشاشة الصخور خاصة بعدما جرب الحفر في الجانب الآخر من الكهف فوجد أن الصخور صلبة جداً حتى أنها أثرت في أخمص البندقية، عاد مرة أخرى للموضع الأول وأخذ يضرب الصخور

بجدٍ وقوة ونشاط وهي تتناثر عند قدميه حتى صنع فجوة صغيرة بحجم الكف أو أكبر.

توقف وسلط ضوء كشافه على تلك الفجوة فاتضح له جزء من جدار من الرخام الأبيض المعشق باللون الأزرق الفاتح، ذلك الاكتشاف أشعل غريزة حب الاستطلاع لديه؛ فواصل جهوده لمعرفة المزيد عن كنه هذا الرخام فأخذ يحفر بقوة وحماس أكثر، واندفع هرمون الأدرينالين في شرايينه يمده بطاقة كبيرة وحماسٍ وافر.

أخذ يحفر ويحفر لا يدري كم من الوقت استغرق ذلك العمل، ثم توقف وهو يلهث وأنفاسه تتلاحق تحاول الحصول على أكبر كمية من الأكسجين، جلس على الأرض يلتمس شيئاً من الراحة، ثم سلط ضوء كشافه الساطع على العمل الذي قام به، ولكن ما شاهده على الضوء جعله يتناسى كل تعبه فقام مسرعاً يتحسس ذلك الجدار وهو لا يكاد يصدق ما تراه عيناه، هل كان ما يراه مجرد خداع بصري؟ لا لا هذه حقيقة ماثلة أمام عينيه بكل جلالها وجمالها وعنفوانها.

لكن ما هذا الشيء العجيب وما الذي أتى به إلى هذا المكان؟ لا يمكن أن ينتمي هذا الجمال الصارخ إلى هذا المكان المقفر، لقد اتضح له جزءٌ من جدار رخامي معشقا بخطوط زرقاء وذهبية، واتضح أيضًا جزءٌ من

زخارف ذهبية في غاية الروعة والإتقان تخلب الألباب كأنها لا تنتمي إلى هذا الزمان ولا هذا المكان.

لاحظ أيضًا وجود نقوش في أماكن متعددة ولكنها من لغة غريبة حاول أن يفك شيفرتها ولكنها كانت غير مفهومة تماماً لم يرها من قبل، أسرته روعتها وجمالها ونظامها، تمنى لو كان يستطيع أن يفهم ما كتب على الجدار.

كان يريد أن يعرف ما حدود ذلك الجدار، كانت الشمس ترنو للمغيب في أُمسيةٍ جفَّ ريقُها، وحَنَا عليهِ شَفَقُها إشفاقاً وعطفاً، ولكن ذلك لم يفتْ في عضده فواصل تحطيمه للجدار وبعد زمن ليس بالطويل انكشف له تماماً ما الذي أمامه، كان ذلك الشيء هو باب، واضحاً تماماً أنه باب، كان الباب الرخامي في غاية الروعة والجمال تؤطره زخارف ذهبية تتلألأ كلما انعكس عليها الضوء، لا يمكن أن يعرف حقيقتها إلا شخص متخصص بعلم الآثار واللغات القديمة، وكان أيضًا مزدحماً في مواضع كثيرة بنقوش من لغة غريبة لا يعلم عن ماذا تتحدث لكنه افترض أنها تشرح ما هو هذا الباب ولماذا يستخدم، ولكنه لم يفترض أبداً أن تلك النقوش ربما تكون تحذيرا أو شيئاً من هذا القبيل.

كان حجم الباب صغيراً نسبياً ولكنه كافٍ لمرور شخص واحد متوسط القامة، وكان ذا مقبضٍ على شكل رأس أسد ذهبي فاغراً فاه وعيناه

تشعان بفعل ياقوتتين تكونان عينيه، كان منظره مهيباً وغريباً كأنه جاء من زمنٍ موغلٍ في القدم.

بعد أن تفحص سعيد الباب الرخامي جيداً، قدَّر أنه وُضِع في غير موضعه، هذا الباب الفائق الجمال مكانه المناسب هو بوابة قصر من قصور الملوك ذوي التيجان والصولجان، وليس في كهفٍ موحشٍ مقفر، في جبل يعج بالصخور والجلاميد.

حدثته نفسه بالانتقال للمرحلة التالية؛ فأمسك بمقبض الباب ذي رأس الأسد الذي كان يفغر فاه كأنما هو يحذره من الاقتراب، وجد المقبض بارداً برودة غير طبيعية، كان أشد برودة من بقية أجزاء الباب الرخامي، أدار المقبض ناحية اليسار فلم يستجب، ثم أداره جهة اليمين فدار بكل يسر وسهولة فسمع تكةً صغيرة تبعها عدة أصوات معدنية عالية كأنها لعدة مزاليج تفتح تِباعاً.

انتظر لبرهةٍ ثم دفع الباب فانفتح بكل سهولة مطلقاً صريراً مزعجاً وأنيناً متواصلا كأنها نغمة نشاز لكمانٍ غير مدوزن يؤديها عازف سيء، وفي نفس الوقت اصطدم بأنفه هواء دافئ مشبع برائحة عطن يصاحبها رائحة أخرى كريهة كأنها رائحة قبر فتح للتو مختزنة منذ مئات السنين.

كان الباب الرخامي سميكاً يبلغ سمكه حوالي شبر، ومبطناً برخام أسود أو أنه ليس رخاماً بل هو مجرد حجارة بازلتية[1] مصقولة، هو ليس متأكد تماماً من بطانة الباب، على كل حال هذا ليس مهماً، ولكن العجيب في الأمر كيف لبابٍ هذا ثقله أن ينفتح بكل هذه السهولة؟ لم يحتج من سعيد بذل أي جهد لفتحه، هو قام فقط بدفعه دفعة صغيرة فانفتح كأنه قام بذلك تلقائياً.

أضاء بنور كشافه ليكتشف ما وراء ذلك الباب فشاهد ممراً حجرياً منحوتاً في صخور سوداء، كان سرداباً يكفي لدخول شخص منتصب القامة ويمتد لمسافة في أعماق الجبل لا يعلمها إلا الله.

احتار في الأمر هل يدخل لهذا السرداب كي يكتشف مجاهله؟

أم يعود أدراجه وينسى الأمر برمته؟

أو يذهب للشيخ ويطلب من الشيخ تشكيل فريق لاكتشاف هذا السرداب الغامض؟

وبينما هو مستغرق في حيرته سمع من بعيد صوت أذان المغرب يعلو حيناً ويخفت حيناً بفعل الرياح، قرر تأجيل اتخاذ القرار إلى ما بعد أداء

---

[1] الصخور البازلتية هي صخور بركانية صلدة سوداء تتكون من الحمم التي تخرج من البراكين. أو من شقوق في الأرض وبعدها تصبح صلبة.

الصلاة، فرش رديفه وهو عبارة عن شال أخضرمن صوف الكشمير الفاخر يضعه غالباً على كتفيه ويلف به عنقه عندما تزأر الريح الباردة في وجهه، وضعه باتجاه القبلة ثم رفع صوته يصدح بالأذان في ذلك المكان الموحش والمقفر، ثم أقام الصلاة وشرع في أداء صلاة المغرب حاضراً منفرداً في كهف السامعي في ظلمة الغسق حيث لا يراه إلا الله.

بعد انتهائه من أداء الصلاة والسنة البعدية رفع يديه بالدعاء قائلاً " اللهم استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنتَ تعلم أنَّ هذا الأمر الذي أنا مقدمٌ عليه خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؛ فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضِّني به".

مسح بكفيه على وجهه وصدره كما هي عادة الناس بعد الدعاء، ثم قام وطوى رديفه وأعاده على كتفيه، ثم اتجه إلى الباب فتفاجأ عندما وجده مغلقاً، وأخذ يحك لحيته مستغرباً، كيف انغلق وقد تركه مفتوحاً؟ ومن الذي أغلقه؟ وكيف لم يسمع صريره عندما انغلق؟ هل يعقل أنه خشع في صلاته لهذه الدرجة التي جعلته لا يعي ما يدور حوله.

أمسك مرة أخرى بالمقبض ذي الأسد الذهبي وأداره ناحية اليمين فانفتح بنفس الأسلوب السابق، أخذ يتفقد الباب ويتفحصه جيداً فوجده مصمتاً ولا تجويف له، ويخرج من أعلاه ثلاثة مزاليج سميكة ومن أسفله ثلاثة أخرى تدخل في تجاويف محفورة في إطار الباب وتتجاوز الإطار إلى الصخر الذي يحيط بالباب، مازال مستغرباً كيف لبابٍ رخامي هذا سمكه أن يُفتح بهذه السهولة؟

أضاء بكشافه مرة أخرى الدرب الممتد أمامه ولكنه لم يرَ له نهاية، فجلس على عتبة الباب محتاراً، هل يُقدم ويقتحم المجهول ويتحمل كافة العواقب والتبعات لهذا القرار؟ أم يعود أدراجه ويرضى من الغنيمة بالإيابِ؟

كان من الأشياء المعروفة عن طباع الصياد سعيد المطنن أنه دقيق في حياته الخاصة، يخطط لكل خطوة يخطوها، مرتب في كل أموره حتى في بيته لا يحتمل أن يرى الشيء في غير موضعه الذي يجب أن يكون فيه، ولا يحب أن يكون في وضع لم يحسب له حساب ولم يتجهز له جيداً.

لكنه في الوقت ذاته كان جريئاً حد التهور شجاعاً بشكل مفرط، كان فارساً مقداماً لا يشق له غبار ولكن من غير فرس، وقف أمام الباب الرخامي المفتوح حائراً مضطرباً، كان الليل قد أسدل ستاره، وهناك أصوات تصرخ في عقله ونقاش محتدم لا يهدأ، فهناك صوت يقول له

مُعنفاً: عد يا سعيد، عد إلى بيتك إلى أمك وزوجتك وأطفالك الصغار، عد ولا تتخذ قراراً قد تندم عليه طيلة عمرك وقد لا تمتد بك حياة كي تجد وقتاً للندم.

وهناك صوت آخر يقول له: لا بأس بذلك، يجب عليك أن تكتشف ما وراء هذا الباب فقد تجد ما تبحث عنه، وقد تجد كنزاً أو موقعاً أثرياً لا يخطر على بال أحد ولم يكتشفه أحدٌ قبلك، ولكن ليس الآن فقد جاء الليل وسيبدأ أهلك بالقلق عليك إذا تأخرت، عد الآن إلى بيتك ثم عاود اكتشاف المكان غداً في الصباح فقد يساعدك ضوء النهار في مسعاك.

لكن صوتاً كان يعلو بقية الأصوات ويلح بشكل أقوى يقول له في إصرار: يا سعيد لا تكن غبياً وتترك هذه الفرصة تضيع من بين يديك، فمثل هذه الفرص لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة لا تتكرر أبداً، ما الذي يضمن لك إذا عدت في الصباح أنه لن يأتي أحد قبلك ويسرق منك هذا السبق الأثري؟ أو أن تجد المكان مرة أخرى كما تركته فقد يختفي فجأة كما ظهر لك فجأة.

حاول أن يطرد تلك الوساوس من رأسه لكن الصوت الأخير كان يجلجل في وجدانه في إصرار، كان الهدف طموحاً ويتطلب قدراً كبيراً من الحظ والمخاطرة؛ فالمخاطرة كالنجوم تظهر أشد سطوعاً وسط العتمة،

ضرب سعيد على صدره بيده وقال لنفسه: بالفعل منذ متى وأنا أخاف من ظلمة الليل؟ حتى لو تأخرت قليلاً في العودة إلى بيتي فلا ضير في ذلك فقد عودتهم أن أتأخر أحياناً إلى ما بعد منتصف الليل عندما أذهب لصيد الطرائد، لا بد أن أُقدم فلا بديل للإِقدام غير سحقةِ الأَقدام.

يا للأسى لقد نسي سعيد أو تناسى أنه خرج من بيته والجميع يبكون عليه كأنهم في عزاء، نسي أن اللحظة تمر عليهم في غيابه كأنها دهرٌ بطوله، ونسي وعده لأمه ألا يعرض نفسه للخطر، نسي ذلك كله وتقدم خطوة للأمام باتجاه الباب.

قبل أن يدخل نظر للسماء كأنه يودعها أو يستمد منها الشجاعة والإقدام، ثم أخذ نفساً عميقاً كأنه يتجهز للغوص في أعماق بحرٍ لجي، وقد كان كذلك، ولكنه لا يعلم، شعر في ذلك الحين بشعورٍ غريب، أحسَّ كأن هناك من يناديه من الداخل، وشعر أيضًا بانجذاب لأعماق الظلام كأنما هناك عشرات الحبال الوهمية تشده.

تدثر بالشجاعةِ، وبظلمة الكهوف الموحشة، وبأطياف الليل الراعشة في منعطفات حالكة الظلمة، وخطى خطواته الأولى إلى الداخل وهو يقول لنفسه: لماذا نخاف من مصائرنا الحتمية؟ ماذا لو عرفنا ما يخبئه لنا الغيب؟ ما الذي سيتغير فينا ما دمنا نمشي إليه رغماً عنا؟

عبر سعيد الباب ودهش من الصمت المطبق الغريب الذي يكتنف السرداب، ثمة شيء آخر شعر به، شعور غريب بالتآمر؛ كأن بدخوله من ذلك الباب وافق على اتفاق لا يعرف عن قواعده شيء.

أثناء تلك المناقشات النفسية مشى عدة خطوات في الممر الضيق وأخذ يتلمس الجدران بيديه وضوء كشافه الساطع مسلط عليها، فقال في نفسه لا بد وأن من شق هذه الصخور كانوا عمالقة ويمتلكون قوى خارقة، الناس الذين تعجبوا من قدرة المصريين على بناء الأهرامات كانوا معتوهين حتماً؛ لأن الصخور التي بنيت بها الأهرامات كانت جيرية ورملية ومن السهولة نسبياً نحتها وتشكيلها.

أما لو أنهم رأوا ما يراه الآن لعقدت ألسنتهم الدهشة، ولتساءلوا في حيرة وذهول كيف للأدوات الحديدية أن تشق طريقها في هذه الصخور الجرانيتية[1] الشديدة الصلابة؟ لو أن أحدهم جاء وحاول بمطرقته وإزميله أن ينحت من هذه الصخور لنحت من جسمه قبل أن ينحت مقدار إصبعٍ واحد.

---

[1] الجَرَانِيت صخر صلب وخشن، يصنفه الجيولوجيون على أنه صخر ناري، ونتيجة لذلك يُعتبر صخرة صلبة قوية التحمُّل ومفيدة في إنشاء المباني. يمكنه تحمُّل عوامل التعرية لقرون، ويمكن صقله حتى يصير أملسا.

كان يسير ببطء للأمام وهو مأخوذ تماماً بما يراه من هذا العمل الجبار المتقن، وفجأة وبدون أي مقدمات أنغلق الباب الرخامي مطلقاً صوتاً مدوياً وعاصفةً من غبار.

من هول المفاجأة سقط الكشاف من يده وأنطفأ، بحث عنه كثيراً ولم يجده ثم أخذ يحبو ويزحف ومسح بيديه كل المساحة التي حوله ولكن دون جدوى.

عاد إلى الباب يحاول فتحه ولكن لم يعد هناك أي أثر للباب، فقد عاد مكان الباب حائطاً من الصخر الجرانيتي البارد والصلب كأنه كان يحلم أو أنه لم يكن ثمة باب هنا، عاد مرة أخرى يبحث عن كشافه ومسح مساحة أكبر ولكن عبثاً كان يحاول.

كان المكان المظلم يجتذبه الآن ويستفرد به، كأنه بيت الهمسات حيث يصبح البشر كلهم عمياناً.

أحسَّ بأصابع المكان الباردة تزحف على جسده، ورائحته الحجرية كانت نفحةً تسللت إلى داخل أنفه، فراح يقاوم الجاذبية التي تشده للداخل لكنه كان صياداً ومتربصاً لا تخيفه الظلمة ولا يأبه لها، وكم هي المرات التي انغمس في لجتها العميقة.

ازدادت حلكة الظلام حتى كست عينيه وأفعمت أنفه وسدت أذنيه، فلم يعد قادراً على الرؤية أو السمع أو الشَّمْ أو حتى الركض، الآن كل شيء أسود وساكن وبارد، ولكن الصوت كان يهمس في خفوت يسمعه عقله لا أذنيه يقول له تقدم..... تقدم.... تقدم.

-9-

من شرايين الجبل إلى قلبه

"الأسطورة هي أكذوبةٌ تهدف إلى تفسير حقيقة شاملة، والأماكن التي تحتضن أرضها الأكذوبةَ والوهمَ خصبة لزراعتها إلى حدٍ كبير، من النادر جداً أن تسمح لنا الحياة بالتجول في أحلامنا وملامسة ذكرياتٍ مفقودة"

كارلوس زافون[1] – متاهة الأرواح

كان سعيد المُطنن يسير في سردابٍ ضيق نحو باطن الجبل، كان يسير نحو عالم مغلق، مظلم، غامض، مرعب مثل أسوأ كوابيسه، لو كان الكشاف مازال معه على الأقل لكان الوضع أفضل.

كان عليه أن يتقدم متلمساً، ماشياً في البداية ثم حابياً أحياناً وزاحفاً أخرى في ظلمة مطبقة لم تعتد عيناه على العتمة الكاملة، يمد يداً يتحسس بها الصخور من حوله كي يقدر عرض النفق ثم يحرك جسده

[1] كارلوس زافون: روائي إسباني اشتهر بكتابته للسلسلة الروائية " مقبرة الكتب المنسية" توفي في يونيو 2020 م

ملتوياً نحو الأمام ذراعاً بذراع ثم شبراً بشبر، وكلما تقدم أكثر بدا له أن النفق يضيق شيئاً فشيئا، وفكر أنه لن يستطيع الدوران إلى الخلف ليخرج، لكن سخر من هذه الفكرة كيف سيخرج وقد انطبق الباب الذي دخل منه وأصبح جزءاً من الجدار الصخري؟

كان الهواء القليل داخل السرداب خانقاً ونتناً كما لو أنه مدفون في قبر، تخيل نفسه في ذلك الحال كأنه فأر أو دودة، ولكن هل الفئران والدود يشعرون بما يشعر به الآن؟

توقف عدة مرات كي يستريح ويعيد تقييم الوضع، لكن الوضع كان بائساً بكل المقاييس، ثم يواصل التقدم يدفعه أمل قوي بأنه سيجد لامحالة مخرجا من هذا المأزق الذي وقع فيه، مع كل لحظة تمر به يزداد الضغط على صدره، والرعب يصبح أكثر تأثيراً وأعمق غوراً في نفسه، كان الصمت مطبقاً حتى خُيل إليه أنه يسمع دقات قلبه، وكان عقله يعمل بكامل طاقته القصوى ويقدر الأخطار التي لا تعد وترصده في كل لحظة، الأسوأ من كل شيء هو أن يبقى مقبوراً حياً في أحشاء هذا الجبل، الذي لطالما سار على دروبه وارتقى قمته الشامخة وهو يبحث عن رزقه، كان لا يخشى الموت أبداً، لكن أكبر مخاوفه والتي كثيرا ما تعاوده في كوابيسه هو أن يدفن في القبر وهو مازال حياً، فيه بقية من رمق وأهله يظنون أنه قد مات.

عاد يتساءل في نفسه كم هو طول هذا السرداب؟ تُراه هل سيصل إلى نهايته وسيرى النور مرة أخرى ويستنشق الهواء النقي؟ أم أنه سيسقط مهزوماً في بداية الطريق؟ هل سيكفيه الهواء أم أنه سيموت اختناقاً؟

قطع مسافة لا يعلم كم هي، وفي لحظة ما سقط سعيد المطنن ممدداً على وجهه، كانت عضلاته متشنجة والدم ينز من الخدوش المنتشرة على وجهه وكفيه وذراعيه، أما بقية جسده فلا يعلم ماذا جرى له، كانت كل خلية من جسمه تئن موجوعة منهكة، كان يشعر أن تفكيره قد توقف، وأن رأسه يكاد ينفجر وأن عشرات المطارق تهشمه من جراء نقص الهواء.

لم يمر قط بمثل هذا الموقف العصيب في حياته كلها، هو الآن وحيد تماماً وجائع وخائف، استسلم لليأس مرتعداً منهكاً مهزوماً، وتوغلت الظلمات في عقله ظن أنه لوقت سرمدي، فأضاع اتجاهه منادياً الموت لكن من دون صوت.

عندئذٍ وحينما كانت روحه تتوغل في ظلمات اليأس والاستسلام، شق صمت الظلمات صوت يعرفه تماماً، صوت لا يمكن أن ينساه أبداً، صوتٌ محفورٌ ذكراه في جدران ذاكرته وفي حنايا روحه، وكيف ينساه وهو من له الفضل بعد الله في وجوده، كان صوت أبيه الحاج عبد الواسع، في البداية كان يوشوش في أعماق عقله كهمسٍ لا يكاد يُسمع،

ثم اتضح أكثر وأكثر، كان يقول كلاماً لا يفهم في البداية لكن بعد لحظات سمعه بكل وضوح.

بينما هو منكفئ على وجهه سمعه يقول:" سعيد بُنَي، هل أنت سعيد ابني الذي أعرفه؟ أم أنت شخص آخر مختلف؟ كيف تستسلم يا سعيد بكل سهولة؟ كيف يصيبك اليأس والقنوط؟ هل هذا هو ما تعلمته مني؟ كيف تُعلم الناس في قريتك معاني الثبات والعزة والتوكل ثم تسقط بالضربة القاضية في أول جولة من الصراع؟ لقد خيبت ظني بك كنتُ أعدك قوياً شامخاً تهتز الجبال الرواسي وأنت لا تهتز.

ماذا دهاك يا بُني؟ أين إيمانك بالله وثقتك بفَرَجه؟ هل نسيت أنه معك وأنه لا ينساك إلا إذا نسيته؟ سعيد ... ابني الحبيب هل التجأت إلى الله؟ هل طلبت منه المدد والعون؟ إنك الآن في حال المضطر والله هو الذي يجيب دعاء المضطر إذا دعاه، وهو من يكشف البلاء ويرفع الضراء... ادع الله يا بني أن يفرج عنك والجأ إليه في محنتك.... الجأ إليه في سرائك وضرائك... الجأ إلى الله ... الجأ إلى الله... الجأ إلى الله" خفت الصوت تدريجياً ثم تلاشى تماماً.

أفاق سعيد ودفن وجهه في التراب وأخذ ينتحب لأول مرة في حياته، كانت دموعه تبلل الثرى وجسده المنهك يرتجف كأنه غصن شجرة تعصف به رياح الخريف، نسي كل الأدعية التي كان يحفظها عن ظهر

قلب، وأخذ يردد يا الله.... يا رب... يا رب واستمر على هذا الحال فترة من الزمن ثم سكن تماماً وأخذته غفوة قصيرة.

أفاق ورفع رأسه ونفض عن رأسه ووجهه التراب، أحس بالقوة والإصرار والنشاط تسري في جسده وتعود مرة أخرى بعد أن كانت قد نضبت، تحرك للأمام بنشاط وحيوية وهو يردد "يا رب عونك قد ضاق بي كونك" واستمر يتحرك للأمام ويندفع بكامل جسده.

بعد فترة من الزمن توقف كي يستريح وهو يلهث والعرق يتقاطر من رأسه ويصل إلى حاجبيه ثم ينحدر إلى عينيه فيشعر بالحرقة فيهما، وفجأة وبدون أي مقدمات شعر بهواءٍ باردٍ يداعب وجهه ويحرك بلطف خصلات شعره المبتل بالعرق، كان ذلك النسيم الذي شعر به مفاجأة أشعلت جسده حماساً وسعادة، وأعادت جذوة الأمل متقدة مشعة في نفسه، تلك الهبة من النسيم جعلته أكثر نشاطاً وإصراراً على الوصول إلى نهاية هذا النفق المشؤوم .

أيقن أن النهاية... نهاية هذا الوضع الغريب قريبة جداً؛ فوجود الهواء المتحرك دليل لا ريب فيه على وجود مخرج قريب، نظر إلى ساعته فوجد عقاربها المضيئة تشير للثالثة والنصف فجراً؛ فقدر أن أمه وزوجته سيبدؤون من الآن القلق عليه، وهو ما حدث بالفعل ولكنه بدأ قبل ذلك بوقت طويل.

واصل زحفه بهمةٍ ونشاط والهواء البارد يجفف عرقه المتصبب؛ فيشعر بالبرودة تسري في جسده المنهك، ولكنه لم يبالِ بذلك كان يجتهد في الوصول إلى المخرج الذي يتسلل منه نسيم الفجر، تحرك أكثر من ثلاثين ذراعاً، مسافة لا بأس بها في الوضع الذي هو فيه، ولكن وفجأة شعر بجسده ينحشر داخل النفق.

حاول أن يحشد جميع قوته كي يتحرك وحاول أيضًا أن يستخدم تقنية الدودة في الحركة، حاول أن يتملص يساراً ويميناً، ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح، كان جسمه محشوراً تماماً ولا يوجد أي فرصة للتقدم.

ها قد حدثت أسوأ مخاوفه، وها قد حانت اللحظة التي كان يخشاها وكثيراً ما كان يحاول طردها من مخيلته عندما تطرأ عليه، ها هو الآن محشورٌ تماماً في نفقٍ مسدود من إحدى طرفيه وضيق من طرفٍ آخر لا يكاد يسع جسده.

هل حانت لحظة النهاية؟

هل هذا هو قبره؟ هل قدر الله أن تكون هكذا نهايته؟

كان جسده عالقاً تماماً لا يستطيع أن يتحرك للأمام ولو قيد أنملة، قالت له نفسه: لقد حانت نهايتك يا سعيد وستموت ظامئاً جائعاً وحيداً فريداً حبيساً، ستشعر بكل لحظة من لحظات نهايتك المحتومة

وستحس بروحك وهي تسحب من جسدك شيئاً فشيئاً، سيكون موتاً بطيئاً ومؤلماً، أيها الصياد لطالما كنت تضع المصائد لطرائدك، وها أنت تقع في مصيدةٍ لا فكاك منها.

قالت له روحه المحلقة في سماوات اليقين: لا تخف يا سعيد ولا تفقد إيمانك بفرج الله، هو سبحانه من يغيث الملهوف ويجيب دعاء المضطر، لا تنس أنه هو من فرج عنك ما واجهك من صعاب فيما سبق، وهو من سيفرج عنك هذه الأزمة التي وقعت بها، فقط اجعل ثقتك به سبحانه وستذهلك رحمته ولطفه، قال في نفسه آمنت بالله وبقدرته، سكن تماماً وظن أنه لا فائدة من المقاومة وأنه هالك لا محالة إلا بتدخل العناية الإلهية وهو ينتظرها الآن ويدعو الله بقلبه أما لسانه فلم تعد تقوى على نطق ولو حرفاً واحداً.

رأى نفسه جالساً على أرضٍ صلبةٍ باردةٍ مستديرةٍ لا يزيد قطرها عن ذراع، كانت الريح صرصراً والأرض قرقراً[1]، وقد تدلت ساقاه فوق هوة بلا قرار كما تتدلى سعف النخيل في الخريف، رغب أن يتمدد على ظهره فإذا بالهوة من ورائه كما هي من أمامه وتحيط به من كل جانب

---

[1] ريح صرصر: شديدة البرد أو شديدة الصوت، والقرقر من الأودية والقيعان: الأملس الذي لا شجر فيه ولا حجارة، القاموس المحيط الفيروز آبادي.

فإذا تحرك فسيهوي لا محالة، فأيقن أنه جالس على قمة جبل منيف والريح تعصف به من كل جانب والظلام يحيط بالمكان.

صرخ بكل صوته.. النجدة.. النجدة... أنجدوني.. الغوث... الغوث.... أغيثوني يا عباد الله، هل يسمعني أحد؟ فعاد إليه رجع الصدى واضحاً كلمةً كلمه، وحرفاً حرفا، فعلم أنه جالس على علو شاهق، أخذ يسترجع ويهدئ نفسه ويبعد الخوف عنها ويمنيها بأن هذا ما هو إلا كابوساً سيزول عن قريب، راح يسلي نفسه ويخفف من وحشته بمجاذبة الصدى أطراف الحديث، كان حديثاً طريفاً حتى أن الهوة افتَرَّ فمها عن ابتسامة فجرٍ أغبر كأنها العبوس القمطرير.

نادى على نفسه قائلاً: هدئ من روعك يا سعيد واجعل أمرك شورى مع عقلك، ما الذي أوصلك إلى هذا الوضع العجيب؟ كنت قبل قليل تسير حيث تشاء مالكاً أمرك تملأ نفسك الطمأنينة والثقة، ثم أصبحتَ محشوراً في سردابٍ لا يعلم أحد مكانه إلا الله، ثم ها أنت تجلس على قمة جبل في مساحة ضيقة كأنك جالس على رأس عصا؟

تأبى نواميس الطبيعة وأحكام المنطق، فأنا إذاً في حلم لا غير، على الرغم من أنه حلم طويل، ما بالي أظل جالساً في هذا المكان يطرقني البرد وينشرني الخوف والجوع، لا ستر ولا ظهر ولا أنيس... ولا أنزل؟

هـذا كـابوس لا محالـة، كـابوس عـن مكـان لا يليـق بـه أن يوجـد إلا في الكـوابيس؛ فـإذا نزلـتُ نفضـته عـن صـدري وعـدتُ إلى بيـتي آمنـاً بـين أطفالي، هيا قم يا سعيد واحتضن هذا الجبل بساعديك وساقيك وبكل ما فيك من عزم وحزم وإرادة، ثم اهبط من عليه كما يهبط القرد من على الشـجرة، بـدأ بالتنفيـذ على الفـور، وأخـذ يهبـط، ولكنـه وجـد أنـه كلما هبط ازداد الجبل توسعاً، ثم بدت الصخور أكثر زلقاً ثم أصبحت ملساء تماماً فأخذ ينزلق ثم أصبح يهوي في الفراغ ويهوي وهو يصرخ محاولاً التمسك ولو بقشة، ثم غاب عن الوعي تماماً.

أفاق فوجد نفسه مازال في ذلك السرداب الضيق وجسمه محشور ولا يستطيع التقدم، فاستغرب هل يعقل أن هناك كابوس يقود إلى كابوس أفظع منه؟ " هـذه هـي المرة الأولى التي أرى فيها حلماً كهـذا، لسبب وجيه وبسيط هو أن ما عشته لم يكن حلماً، كان شيئاً مختلفاً، تصوير ذهني منسوج بخيوط قادرة على استنساخ ذكرى إلى حد الكمال، واقع أكثر واقعية من الواقع، كم من الوقت دام هذا الوهم؟ بضع دقائق أو بضع ساعات؟"[1] ما هذه الورطة التي وقعتُ فيها؟ أعادت إليه الغفوة التي راح فيها بعض القوة والنشاط مع أنها كانت مفعمة بالكوابيس، فكر قليلاً ثم أخذ يختبر الأرض من حوله فوجد أن الجانب الأيسر منه

---

[1] من رواية " الحياة رواية" غيوم ميسو.

يحوي صخوراً صلبة لا تعمل فيها المعاول وكذلك سقف النفق، أما أرضية النفق والجانب الأيمن منه فهي عبارة عن تربة طينية تختلط مع حجارة صغيرة.

صمم على أن يحفر ويشق طريقه وسط هذا الأنبوب الضيق، لا خيار له غير هذا الخيار الصعب؛ تمثل قول الشاعر العربي القديم: " إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها" لذا بدأ يزحف للخلف قليلاً كي يجد مكاناً أوسع يستطيع أن يحرر يديه ويصل إلى بندقيته ويبدأ في عمل مضنٍ يستخدم فيه مرة أخرى أخمص بندقيته كمعول.

في البداية وجد صعوبة في الحفر ولكن الأرض استجابت لضرباته المُلِحة وبدأت تلين تدريجياً، ولكنه احتار ماذا يفعل بالتراب المتراكم جراء عملية الحفر؟ هل عليه أن يدفعه للأمام أم يسحبه للخلف؟ لو أنه دفعه للأمام لكون أمامه تلالاً وسدَّ عليه النفق؛ لذا قرر أن يسحبه للخلف مع أن ذلك يرهقه.

واصل الحفر وتقدمه ببطء ولكن بإصرار، كان يردد في نفسه لن أموت هنا، لن يكون هذا مكان موتي، حتماً سأخرج من هذا السرداب وسأعود إلى بيتي سالماً غانماً، لا أشك في ذلك، سيعينني الله فأنا أثق به وبقدرته ولطفه، لن يتركني الله في محنتي وحدي، كان يتقدم ببطء كأنه يسير على حد السكين، دامي القدمين والركبتين والمرفقين والكفين، في

بردٍ وخوف وجوع، غاض معين دمه ونضبت قواه وذهب عقله أو كاد وهو يتقدم بعنادٍ كعناد النملة.

بينما هو يحفر وجد بعض العظام لأضلاع وترقوة وعظام أخرى طويلة، لكن بسبب الظلام الدامس لم يتبين هل هي عظام بشرية، أم حيوانية، لم يؤثر هذا على معنوياته بل واصل عمله بانهماك وإصرار وعناد وهو يردد: " يا رب يا رحمان عليك توكلنا، عبدك سعيد يدعوك، اعطيه ما تمنى، العفو والعافية والفوز بالجنة".

لم يشعر بالوقت ولا بالمسافة التي قطعها، ولكنه شعر فجأة بأن المكان اتسع ولم يعد بحاجة للحفر وبأنه يستطيع أن يمشي وإن كان منحني الظهر لكن لا بأس أمر أهون من آخر، مشى عدة خطوات ثم شعر بأنه واقفٌ على شفا حافة وأن السرداب أنفتح على هوة.

وقف على الحافة وهو لا يعلم ما الذي أمامه؟ هل هي هوة مخيفة مثل تلك التي رءاها في الكابوس؟ أم هو مجرد سردابٌ آخر، ولكنه أكثر اتساعاً؟ لذا أخذ حفنة من الحصى وأخذ يرمي بها ليسمع صوت ارتطامها بالقاع، كي يقيس عمق المكان المجهول الذي أمامه، ثم أخذ يرمي بالحصى أبعد وأبعد في اتجاهات مختلفة كي تتضح له أبعاد المكان، وبعد أن قام بتحليل البيانات المتجمعة لديه اتخذ القرار بالنزول بعد أن

قدر أنها مجرد غرفة متوسطة المساحة يبلغ عمقها من المكان الذي يقف عليه قامة[1] أو تزيد.

توكل على الله وبسمل وحوقل ثم قفز في حذر وهو لا يرى شيئاً أمامه؛ فوقع واقفاً على قدميه، نفض عن ثيابه التراب الذي علق بها جراء عمليتي الزحف والحفر، ثم طفق يتفقد المكان، كان المكان واسعاً مربع الشكل يبلغ طوله تقريباً عشرة أقدام وعرضة كذلك، كانت الغرفة جيدة التهوية جدرانها ملساء باردة، والظلام يلفها تماماً.

بينما كان يسير فيها مكتشفاً زواياها وأطرافها كانت ترتطم بقدميه بعض العوائق فلم يأبه بها، فلما بدأ يتحسس أرضيتها ليكتشفها وجد شيئاً اقشعر له شعر بدنه وانقبض قلبه وتسارعت أنفاسه وعادت الهواجس والمخاوف تنهش روحه، لقد وجد الكثير من العظام مبعثرة بغير انتظام في أرجاء المكان؛ فلما اختبر تلك العظام تحسساً بيديه اكتشف أنها عظام بشرية، كانت هناك خمسة جماجم بشرية بالإضافة إلى عدد لا محدود من العظام المتنوعة وكلها بشرية.

بعدما رأى ما رأى أيقن أنه في مقبرة بشرية، وأنه ربما من سبقه قد وصل إلى هذا الموضع ولم يخرج منه، اعتصر الخوف قلبه وشعر بأنها النهاية

---

[1] القامة هي وحدة محلية لقياس الارتفاع والعمق وتبلغ تقريباً 180 سم.

وأنه قد وصل إلى نهاية رحلته التي ربما أوصلته إلى قبره، جلس متربعاً وأخذ يردد بعض الآيات والأدعية حتى هدأت نفسه قليلاً، وتذكر الدعاء التي طلبت منه أمه أن يتلوه، وتذكر أيضًا دعاء الاستخارة الذي تلاه قبل أن يدخل من ذلك الباب الرخامي؛ فشعر ببعض السكينة والطمأنينة وسلم أمره لله، ثم أخذ ينزع عنه الأدوات المعلقة على خصره وكتفيه؛ فأرخى حزامه ونزع سيفه القصير ووضع البندقية جانباً ووضع مخلاته بجوار رأسه، كان يشعر بالجوع والعطش والبرد والإنهاك، وتحسر أنه لم يتزود بالطعام والماء فهو لم يكن يتوقع أن رحلته ستطول كما هو الحال الآن، افترش الأرض الصلبة وفرد رديفه الصوف الكشمير وتغطى به واتخذ من مخلاته مخدة ثم استسلم لنوم لا يدري ما بعده.

-10-

البحث عن الرجل المفقود

لا شيء يمكن أن يختفي ويضيع تماماً كأن لم يكن، هكذا فجأة بدون أن يترك أي أثر خلفه، حتى ضباب الصباح المتلاشي يترك خلفه الندى، ربما لو أننا أمعنا النظر في البدايات لأمكننا أن نتوقع النهايات، ولو اجتهدنا أكثر في البحث والتقصي لاستطعنا أن نزيل ما أُبهم من قضيانا المتشابكة، ربما لو أننا قلبنا كل حجر أمامنا وبحثنا خلف كل شجرة واجهتنا، واتهمنا كل غيمة أنها تخفي فوقها ما يمكن إخفاؤه؛ لوجدنا ما ضاع منا أو على الأقل وجدنا ما يدلنا عليه، إلا إذا كان ما نبحث عنه سراباً خادعاً أو وهماً متبدداً.

بعد صلاة مغرب ذلك اليوم بقليل أرسلني أبي، أنا وائل سلطان القاضي إلى دار الصياد سعيد المطنن كي أسأل عنه أهله، توجهت مسرعاً هرولة أحياناً وقفزاً حينا آخر، كنتُ في تلك الأثناء في العاشرة من عمري وكنتُ أحد المعجبين بالصياد، كان يمثل لي القدوة في شجاعته وثباته وتواضعه وقوة حجته وثقافته الواسعة، كنتُ منذ فترة ليست بالقصيرة

أتتبع أخباره وقصصه المثيرة التي يحكيها للمقربين منه، وكان أبي الشيخ سلطان القاضي أيضًا معجباً به هو الآخر ويبادله الود والاحترام.

وصلتُ إلى داره وأنا ألهث بالرغم من قربه لكنني كنتُ أجري بسرعة، طرقتُ الباب وناديت سعيد المُطنن لكن والدته الجدة رشيدة هي من أجابتني سألتها عن ابنها الصياد سعيد فأجابت بأنه لم يأتِ حتى الآن، اجتهدتُ رأيي وقلت لها: حسناً إذا عادَ ونحنُ ما زلنا في المسجد فأرسلي من يبلغنا بعودته فالشيخ باله مشغول عليه كثيراً.

عدتُ لأبي جرياً كما ذهبتُ كي أبلغه وأنا أفكر ما الذي يفعله سعيد المطنن في هذا الظلام الدامس؟ هل يعقل أنه ما زال يبحث عن الطاهش؟ أم أن الطاهش قد فتك به؟ لم يسمع أحد بطلقات نارية هذا يعني أنه لم يواجه أي متاعب في بحثه حتى الآن على الأقل، إذاً لماذا لا يعود إلى بيته ويواصل بقية العمل في الصباح؟ لماذا يترك أهله نهباً للهواجس والظنون؟

وصلت للمسجد وأبلغت والدي بما قالته الحاجة رشيدة وما قلته لها فتغير وجهه، ورأيتُ القلق يكسو سحنته، عاد لاستغراقه في أذكاره وأدعيته، وخرجت أنا إلى صرحة المسجد ألتمس شيئاً من النسيم البارد، أُذن لصلاة العشاء ثم أقيمت الصلاة، وبعد أن فرغ الناس من الصلاة قام أبي وقال للناس: إن سعيداً الصياد لم يعد إلى بيته وأنه سيرسلني مرة

أخرى كي أتأكد من عودته، وهذا ما حدث فقد انطلقت مسرعاً إلى بيت الصياد فخرجت أمه وكانت تمسح بمقرمتها[1] الدموع في عينيها، وسمعت نشيجاً مكتوماً يأتي من الداخل، فهمت بلا داعي للكلمات أنه لم يعد حتى الآن، وأن كأس الصبر قد فاض عند أهل بيته وبدأت المخاوف تنهش قلوبهم.

عدت مسرعاً للمسجد والناس مازالوا فيه محتشدين فأشرت لأبي بأنه لم يعد، أطرق أبي برأسه ثم أطلق تنهيدةً طويلة وقال للناس: كلنا نعلم بأن الصياد خرج من بيته عصر هذا اليوم مضحياً بنفسه ليواجه كائناً لا ندري ما هو؟ هل ينتمي للوحوش أم هو من الجان؟ كل هذا دفاعاً عنا، وحتى الآن لم يعد سعيد إلى بيته، وأصبح أهل بيته في حالٍ لا يعلم بها إلا الله؛ لذا فأنا أُهيب بالجميع، وبكل من هو قادر أن يبذل وسعه في البحث عن أخينا سعيد المطنن، سنتوزع بعد قليل إلى مجموعات للبحث ولن نعود حتى نحضره سالماً غانماً إن شاء الله، أو ميتاً لا سمح الله.

بينما هو يتحدث للناس سَمعوا ضجيجاً وجلبة في الساحة خارج المسجد ودخل صالح ذياب شيخ الأخدام[2] (المهمشين) الساكنين في منطقتي

---

[1] المقرمة هي غطاء للرأس تلفها النساء حول رؤوسهن، كي تغطي شعورهن.

[2] الأخدام، أو المهمشين حسب التقسيم الطبقي هم فئة من فئات الشعب اليمني يقال إن أصولهم حبشية ويقال إن أسلافهم كانوا عبيدا لدى الأيوبيين ثم أعتقوهم قبل أن يأفل نجمهم=

(السَّلم) و(الصَّبَرية)، انحنى بقامته الفارعة كي يستطيع أن يدخل من باب الجامع، كان عملاقاً بالنسبة للحاضرين، كان بسحنته السمراء الداكنة ويعتمر عمامة خضراء فاتحة وصدره عارٍ ويلبس إزاراً رمادياً مخططاً باللون الأصفر وعضلاته المفتولة يبدو كأنما هو مارد القمقم خرج للتو من مصباح علاء الدين ويوشك أن يصرخ قائلاً:" شيبك لبيك لمح البصر بين يديك".

ألقى السلام على الحاضرين ثم تقدم ووقف بن ذياب – كما يحلو للناس أن يسموه– أمام القاضي قائلاً: ونحن أيضًا نريد أن نكون معكم في هذه المحنة؛ فقد جئتُ بجميع إخواني من السَّلم والصَّبَرية ونحن في كامل استعدادنا لمشاركتكم في البحث عن الصياد سعيد المطنن.

لقد كان سعيد رجلاً مختلفاً لم نرَ مثله أبداً، كان يعاملنا نحن الأخدام معاملة مختلفة، كان يزورنا ويحنو علينا ويشاركنا في أفراحنا وأحزاننا ويمازحنا ويمرح معنا ولا يبخل علينا بعطاياه، لقد كان معنا في شدتنا ورخائنا وأقسم أننا لن نتخلى عنه في شدته هذه ولن نعود حتى نبذل كل ما وسعنا في البحث، وستُكلل مساعينا ومساعيكم إن شاء الله

=وهم يسكنون في مجمعات خاصة بهم ويعيشون في بؤس، ويقومون بالأعمال التي يأنف منها بقية أفراد المجتمع.

بالنجاح وسنعيده إلى بيته سالماً كي تعود الفرحة والأمان إلى أطفاله، تهامس الناس معجبين بشهامة بن ذياب.

ربت الشيخ على كتف بن ذياب وهو يقول: بورك فيكم لقد كبرت في نظري وأسعدني كثيرا موقفكم هذا المعبر عن شعوركم المؤثر، ولكن كم جاء معكم من الناس؟ أجاب بن ذياب قائلاً: كل سُكان السلم والصبرية رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً هم الآن في الساحة أمام الجامع رهن إشارتك يا شيخ سلطان، ذُهلَ الشيخ وتعجب الناس من استجابتهم الجماعية، رد الشيخ سلطان قائلاً: جزاكم الله خيرا لكن أعيدوا النساء والأطفال وكبار السن إلى بيوتهم، ولا يبقَى إلا من يستطيع البحث والتسلق، رد عليه بن ذياب: حاضر يا شيخ كلامك ينفذ للتو واللحظة، ثم ألقى التحية واستدار عائداً للساحة التي أمام المسجد التي كانت مكتظة بالناس.

قام الشيخ بمهمته بكل حماسة واقتدار ووزع الناس إلى مجموعات كل مجموعة مختصة بمكان، ووزع الأخدام حسب رغبتهم إلى ثلاث مجموعات كل مجموعة مكونة من ثمانية أفراد، ووضع الشيخ خطته بحيث يغطي البحث كل الأماكن التي يتوقع أن يصل إليها سعيد الصياد؛ فشمل البحث جميع مناطق جبل سمدان من الجهة الشرقية وجميع الهياج والضياح والشعاب الموجودة ضمن الجبل، ووصلت تغطية البحث إلى

قحفة الضراب والمدورة وركب شعيرة وركَب الأمعار وغبيرة الأبشور وهداد والمنوار وقحفة حمار وهيجة أسس وغزوة والماض والكدرة وبيرعامر والجنع.....

تحركت قوافل الباحثين، كل مجموعة حسب المكان المحدد لها، ودمدمت طبول الأخدام ومرافعهم الضخمة تشق سكون الليل وتمزق صمت الوديان والآكام، كأنها هزيم الرعود؛ فترتج القلوب وتشتعل حماسة الناس.

سار الناس وهم يشعلون المشاعل والفوانيس والمصابيح اليدوية التي تعمل على البطاريات الجافة والأتاريك التي تعمل بالجاز المضغوط، فبدا المنظر من على بُعد كأن النجوم قد هبطت من علياء سمائها كي تنهل من ينابيع الجبل الباردة، استمر البحث طيلة تلك الليلة الاستثنائية التي لم يمر عليهم مثلها من قبل، ولم يتذكر أحد أن الليلَ تحول إلى نهارٍ إلا في تلك الليلة الفريدة. كان بحثاً مُضنياً وجاداً، لم يترك الرجال موضعاً إلا وبحثوا فيه، حتى في أعماق الأدغال الموحشة، ساروا ساعات عديدة سالكين طرقاً لم تستخدم منذ زمن بعيد.

استمر البحث ثلاثة أيام متوالية، وبعد الليلة الأولى تحولت المجموعات إلى نظام المناوبة؛ فهناك مجموعات تبحث ليلاً وتستريح في النهار، وهناك مجموعات تواصل البحث نهاراً وتستريح في الليل، بل هناك بعض

الأفراد كانوا ينامون ساعات قليلة كي يشاركوا في كلتا المناوبتين، حتى إن الشيخ سلطاناً استغرب من حماسة الناس في البحث، وقال لمن حوله أنه لم يشهد من قبل قضية كهذه أجمع عليها الناس وتحمسوا لها.

مع غياب شمس اليوم الثالث وقف شيخ البلاد بعد صلاة المغرب وشكر الجميع حاضرهم وغائبهم على جهودهم الحثيثة في البحث ودعا الله أن يبارك في تلك الجهود وأن يتقبلها، ثم أتت اللحظة الحاسمة وأعلن الشيخ سلطان بصوته المتهدج- ينضح حزناً وأسى- انتهاء البحث الذي لم يثمر عن أي نتيجة؛ فلم يتم العثور على أي أثر لسعيد الصياد،

أعلن الشيخ أن سعيداً الصياد يعتبر مفقوداً، عندئذٍ حانت لحظة من لحظات القدر القاسية فجاءت مثقلةً بالدموع مثخنة بالأسى مترعةً بالألم، لم تكتم العيون دمعها... لأنهم أحبوه ... لأنه ترك في نفوسهم أثراً لا يزول ... ولا تمحوه الأيام، لأنه لم يُعرف عنه أنه سبب الأذى لأحد، بل كان سبباً في سعادة أُناس وأمن آخرين.

طفق الشيخ سلطان يمسح الدموع من عينيه بشاله وهو يقول: لنترك الزمن يقوم بعمله فلعله يعود فجأة كما اختفى فجأة إن كان مازال على قيد الحياة، وإن كان قد مات فليتغمده الله برحمته ويجزهِ عنا خير الجزاء؛ فقد كان إبناً باراً وأخاً يعتمد عليه في الشدائد والمُلِمات، ولكن اختفاءه سيظل جرحاً نازفاً في صدري وندوباً في روحي لا تزول؛ لأنني أعتبر

نفسي مسؤولاً عما حدث له، ليتني منعته بالقوة، ليتني وقفت أمامه بل وحبسته كيلا يخوض تلك المغامرة، لذا أرجو من جميع الحاضرين أن يرسلوا نسائهم لبيت سعيد الصياد كي يقمن بواجب المواساة تجاه عائلته، ثم انسحب الشيخ بهدوء إلى بيته والأسى يعتصر قلوب الناس من حوله.

تقاطرت النساء من جميع بيوت قرية الحُجَرْ والشظاهي وقحفة القضاة إلى بيت الصياد المفقود كي يقدمن واجب المواساة وليس العزاء، ولكن بمجرد أن سمعت الأم رشيدة بجلبة خارج بيتها لبست مقرمتها وخرجت فوجدت جمعاً من النساء بالقرب من الباب ففهمت المقصود.

وقفت بالباب وقالت لهن مرحباً بكن زائرات ولكنني لن أتقبل منكن أي عزاء أو مواساة؛ فابني سعيد لم يمت بل هو حيٌ يرزق، وسيعود عن قريب إلينا مكللاً بتاج النصر سالماً غانماً، أنتن كلكن أمهات والأم تشعر بابنها إذا أصابه مكروه، قلب الأم يعرف، أنا قلبي يحدثني أن ابني حيٌ لم يمت، نعم هو في محنة شديدة، أشعر بذلك لكنني واثقةً كل الثقة بالله أولاً ثم بقدرة ابني على تجاوز محنته، تفضلن ادخلن على الرأس والعين، امتلأت حجرة الضيوف (الديوان) بالنساء وأخذت رشيدة تحدثهن عن بطولات ابنها ومغامراته.

ظل الناس في ترقب وتربص، وطال انتظارهم لعودة الصياد المفقود، سبعة أيام بعد توقف البحث وإعلان الشيخ أنه مفقود، وفي اليوم السابع حدثت حادثة مثيرة، لم يرجع الصياد المفقود ولكن حدث أمر غريب.

بعد عصر ذلك اليوم، اليوم العاشر لاختفاء سعيد الصياد، نفد كل مخزون الصبر لدى أمه الحاجة رشيدة، لم تعد تطيق جلوساً ولا تستسيغ طعاماً أو شراباً، بيتها فارغ من صوت ابنها وقهقهته بالضحك، لم تعد تكتحل عيناها بابتسامته، لم تعد تهنأ بنوم أو يقظة، صورته لا تكاد تفارق مخيلتها، تنظر لباب البيت وتكاد تراه وهو يدخل منه، كانت في حالة إنكار لا تصدق أنه اختفى ولن يعود.

أصبح فؤادها فارغاً ولم يعد في القوس منزع، وشعرت أنها لم تفقد وحيدها فحسب بل فقدت الدنيا بأسرها، حياتها أصبحت بلا معنى ولا جدوى، ضاقت عليها جدران البيت، وشعرت أنها لم تقم بواجبها تجاه فلذة كبدها كما ينبغي، وأنها استسلمت ببساطة لليأس وتركت ابنها يتخبط وحيداً في محنته، لذا عزمت أمرها وأسرت في نفسها أمراً.

قامت من فورها ولبست من الثياب التي كان يلبسها ابنها، واعتمرت عمامة خضراء، واعتجرت بحزام جنبية زوجها الراحل المرحوم عبد الواسع ردمان المطنن، وعلقت على عاتقها سيفه، وطلبت من زوجة

ابنها صفية أن تتجهز وتلبس أطفالها ملابس العيد، دهشت صفية حينما رأت عمتها وهي في شكل رجل وتلبس ملابس الفرسان، وسألتها ما الخبر لماذا تلبسين ملابس الرجال؟ فقالت لها: يا صفية لقد أصبحنا في زمن عزَّ فيه الرجال، ثم استعجلتها وقالت لها: البسي كأنك ستذهبين عند أناس أغراب، ازدادت دهشتها، ولكنها أطاعت عمتها[1] وقامت على الفور وتجهزت هي وأطفالها في وقت وجيز على غير العادة، خرجوا جميعاً من باب الدار، وصفية زوجة الصياد لا تعلم ما نية عمتها وإلى أين ستذهب؟

شاهدت عمتها وهي تلف شال من شيلان ابنها حول وجهها وتلثمت تماماً ولم يعد يظهر سوى عينيها، وسار الجميع نحو دار الشيخ سلطان والذي لا يكاد يبعد عنهم سوى أقل من نصف ساعة مشياً على الأقدام.

بينما كان الشيخ سلطان القاضي جالساً في ديوانه الواسع الذي يقع في الطبقة الثالثة من داره الذي يقبع شامخاً فوق ربوةٍ مرتفعة، كان ديوانه في ذلك الوقت ممتلئاً بالناس وهم يخزنون القات ويمتصون قصبات مداعاتهم التي تقرقر بصوت رتيب كأنها تقهقه ساخرة ممن حولها، كان

---

(1) حماتها.

الصمت هو المسيطر على الوضع في الديوان، والكل كان يسبح في خيالات وأحلام القات.

فجأة دخل سلاّم الخادم وقطع على الجميع خلوتهم وأحلام اليقظة الوردية، وقف سلاّم على باب الديوان وقال: يا شيخ هناك من يستأذنك يريد أن يكلمك، نظر إليه الشيخ وهو يرفع حاجبيه الكثيف مدهوشاً، وقال: من هو؟ لماذا لا تنطق اسمه؟ أم أنه غريب عن بلادنا؟ رد عليه سلاّم قائلاً: هو ملثم، أنا لا أعرفه فهو طويل ونحيف ويلبس جنبية ثمينة ويعلق سيفاً على عاتقه، لكن الغريب أنه يصحب امرأة تصحب أطفال سعيد الصياد، ردد الجميع في صوتٍ واحد قائلين: سعيد المطنن، التفت الجميع باتجاه الشيخ في حيرة تشوبها العجب.

بادر الشيخ قائلاً: يا رب استر، بسرعة دعهم يدخلوا، وفي لحظات دخل فارس ملثم يعلق سيفاً له مقبض من العاج المطعم بالفضة ويجرُّ خلفه امرأة لا يظهر منها شيء وخلفها صغار سعيد الصياد يتشبثون بها في خوفٍ ووجل، فتح الفارس لثامه فصاح الشيخ: الحاجة رشيدة سيف! ما الذي حدث؟ لم تجبه رشيدة ولكنها وبحركة سريعة ومفاجئة لم يتوقعها أحد، انتزعت مقرمة زوجة ابنها من على رأسها وألقت بها على الأرض في منتصف الديوان، وبنفس السرعة باغتت صفية أقرب رجل منها وانتزعت مشدته من على رأسه وسترت بها رأسها.

كانت رشيدة بتلك الحركة التي قامت بها تطبق عرفاً قبلياً معروفاً مع أنه نادر الحدوث إلا في الحالات الاضطرارية، وهو عبارة عن عملية استغاثة أو استجارة لمن يطبقه، فعندما ينزع أحدهم رديفه أو مشدته أو شاله ويلقي بها أمام الناس فهذا يعني أنه يطلب عونهم وأنه ملهوف يطلب غوثهم وهذا التقليد يسمى: "رمي الجاه".

أما عندما يرمي أحدهم خمار زوجته أو يحرقه فهذا يعني أن الأمر جلل، وأنه قد وصل إلى أقصى درجات الحاجة واللهفة وطلب العون، ويطلب من الجميع الوقوف إلى جانبه ونصرته ضد من ظلمه، وعادة لا يقوم أحد برمي خمار زوجته إلا عندما يحيق الظلم بشخصٍ ما ولا يجد من ينصره ويرفع عنه ظلم من ظلمه، وحصول هذا الأمر كما قلنا نادر جداً فلا يتذكر أحد أن شخصاً ما فعله.

أما أن تأتي امرأة وترمي بخمارها أمام الناس فهذا لم يحدث أبداً من قبل، وهذا يعني أنها تستنهض الهمم وتستثير نخوة الناس وشهامتهم، أو كأنها تقول لهم: أين هي رجولتكم وشهامتكم ونخوتكم أيها القوم؟

سمرت المفاجأة الناس في أماكنهم للحظات، ثم عادت لهم عقولهم فقاموا دفعة واحدة وهم يرددون في وجل: الله المستعان يا حاجة رشيدة، الله المستعان، وتقدم الشيخ سلطان والتقط الخمار الملقى على أرض الديوان وأعاده إلى صفية زوجة الصياد، وقال لها غطي رأسك يا ابنتي،

ثم عاد إلى مكانه وأشار إلى مجموعة من الناس أن يتنحوا جانباً ويفسحوا مكان للمرأتين، ولكن الحاجة رشيدة ظلت واقفة في تحفز، فقال الشيخ اطلبي يا حاجة وطلبك مجاب في التو واللحظة ولو كان في أعماق البحر أو فوق السحاب.

تنحنحت الحاجة رشيدة، ونزعت السيف المعلق برقبتها، واتكأت عليه كأنها ستبدأ بإلقاء خطبة رنانة، ثم نظرت في وجوه الحاضرين وقالت والشرر يكاد يتطاير من عينيها: هنيئاً لكم؛ أنتم هنا جالسون تستمتعون بأوقاتكم وتمضغون القات في دعَةٍ واسترخاء، ثم تعودون إلى بيوتكم عند الغروب وتلاعبون أطفالكم، وتتجاذبون أطراف الحديث مع أمهاتكم وتمازحون زوجاتكم بينما ابني سعيد مختطف منذ عشرة أيام، وأنا لا أعلم ماذا أقول لأطفاله عندما يسألوني عن أبيهم؟

كيف سأشرح لهم أنَّ أبوهم خرج دفاعاً عن قريته وأهلها، وعندما وقع في المحنة والشدة كلهم تخلوا عنه؟

هل أقولُ لهم أن الوفاء عزَّ في هذه الديار، واستبدله أهلها بالجحود والنكران؟

أين هي نخوتكم هل تحولت إلى دخان؟

أين رجولتكم وشهامتكم هل غارت في أعماق الأرض؟

كيف يطيب لكم القعود؟ كيف تهنؤون بطعام أو شراب؟ بل كيف يتسلل النوم إلى عيونكم؟ وكيف لا يقض مضاجعكم غياب أحد إخوتكم، وهو الذي خرج من بيته دفاعاً عنكم وعن أمنكم وأموالكم وشرفكم ثم أنتم تتناسوه هكذا بكل بساطة تخليتم عنه وأسلمتموه للمجهول.

لقد منعته في ذلك اليوم من الخروج ووقفت له بالباب وقلت له: لن تخرج من هذا الباب حتى تعطيني وعداً بعدم التهور وتعريض نفسك للخطر، كان إحساس الأم يقول لي أن ابني في خطر حينما يخرج من ذلك الباب، ولكنه أصرَّ على الخروج وقال: يا أمي أنا صياد القرية وما كان لي أن أخذل بلادي وقريتي، سأقوم بما يمليه عليَّ واجبي كي أعذر أمام الله وأمام خلقه، وها أنتم خذلتموه ونسيتم كل ما قدم من تضحيات، فهل ضمائركم الآن مستريحة؟ ألا تشعرون بعذاب الضمير وتأنيبه؟

كانت تهدر كسيل جارف حتى صخور الوادي لا تطيق وقوفاً أمام تياره الصاخب المتدفق، وبينما كانت براكينها تغلي وتثور وترمي بحممها المنصهرة على الجالسين، أطرقوا جميعاً برؤوسهم شاعرين بغيوم الخزي والعار تحوم فوقهم، صمتت الحاجة رشيدة لهنيهةً والجميع صامتون أيضاً، ولكن فجأة تجرأ أحدهم ولا يدري أحد كيف طاوعته لسانه

وقال: يا حاجة يكفيك لوماً وتوبيخاً لنا، لقد فعلنا ما بوسعنا وبحثنا في كل مكان لم ندع شبرا من الأرض إلا ونقبنا فيه، لو كان ابنك حياً لوجدناه ولكنه مات ويجب عليكِ أن ترضي بقضاء الله وقدره.

استشاطت الحاجة رشيدة غضباً وطرقت بالسيف الموضوع في غمده على الأرض عدة طرقات وهي تقول: هل هذا ما قدرتم عليه؟ هل هذه هي الكلمات التي اختبأتم خلفها كي تبرروا عجزكم؟

إن ابني لم يمت، ابني حيٌ يرزق أكاد أشعر بأنفاسه، وأسمع دقات قلبه، أنا واثقة بأنه حياً لم يمت، إحساس الأم أبداً لا يخيب، لو كان ميتاً كما تقولون فأين هي جثته؟ هاتوا لي جثته أدفنها وأبكيه ما حييت، بل هاتوا لي حتى قطعةً من ثيابه، أو أثراً منه أي أثر تجدونه، لكنكم لم تجدوا أي أثر له، هذا يعني أنه حي لم يمت بل هو مخطوف، وإذا لم تكونوا قادرين على ذلك فأعلنوا عجزكم وسأقوم أنا وزوجة ابني بالبحث عنه ونشهدكم ونشهد الله أننا لن نعود إلا وهو معنا أو نموت معه.

اكتمل المشهد التراجيدي عندما اختبأت صفية خلف عمتها والتصق الأطفال بأمهم وطفقوا يجهشون بالبكاء؛ فجثت أمهم واحتضنتهم وأخذت تنتحب معهم.

لم يستطع البعض احتمال الوضع فأسرعوا بالخروج من الديوان وهم يكتمون انفعالاتهم، أما رشيدة فلم تفقد جديتها وتماسكت، ولم يرعها مشهد كنتها وأحفادها وهم ينشجون عند قدميها، ولم تذرف دمعة واحدة بل وقفت شامخة وأخذت تنظر بحدة إلى الشيخ سلطان وكأنها تنتظر ردة فعله.

أحس الشيخ سلطان كأنما ألف صفعة توجهت إلى جبهته دفعة واحدة، جراح الهزيمة النائمة فغرت أفواهها، وخناجر الخزي تتناوش الوجوه من حوله، نظر إلى الحاجة رشيدة كانت عيناها سهمين قاتلين، وكلماتها سائمات تأكل من ربيع قلوبهم، وتقتلع بقايا الكبرياء في حلوقهم، غارات اليأس اجتاحت نفوسهم والألم يسري في أجسادهم كأنياب الصقيع.

استرد الشيخ رباطة جأشه وقطع ذلك الصمت الحذر قائلا: ابشري يا حاجة رشيدة أنت ومرافقيك، أنا أيضًا أشعر بنفس شعوركم، لدي يقين نفسي أن ابننا سعيداً حي لم يمت، ولكننا لم نستطع أن نصل إلى أي خيط يوصلنا إلى مكانه، لذا سأقوم بما توجب عليَّ فعله وسأرفع بالأمر للجهات الأمنية بالحكومة، الآن ادخلوا إلى عند النساء حتى تستريحوا، ثم عودوا إلى بيتكم وليس لكم إلا ما يرضيكم، أما أنا فسأنطلق الآن

إلى مدينة تربة ذبحان كي أعرض الأمر على الجهات المختصة وأطلب العون من عامل قضاء الحجرية[1] وضابط الأمن فيها.

هتف بعض الرجال قائلين: ولكن يا شيخ والوقت الآن متأخر ولم يبق للمغرب سوى أقل من ساعة، رد الشيخ سلطان: نعم سأتحرك الآن لأنني المسؤول الأول عما حدث لسعيد المطنن، كان عليَّ أن أمنعه من هذه المجازفة التي أدت إلى اختفائه، ولكنني لم أفعل، جهزوا لي بغلتي، وأريد خمسة رجال أشداء يرافقونني في رحلتي وكل واحد يصطحب معه سلاحه، والأمر بالخيار من أراد أن يرافقني فلا بأس، بعد عشر دقائق تماماً تحركت بغلة الشيخ ترافقها عشرة حمير تحمل فوقها وفداً متجهاً إلى مركز القضاء الذي يبعد أربع ساعات.

---

[1] عامل القضاء هو لقب قديم كان يطلق على مدير عام المديرية وهو أعلى سلطة تنفيذية فيها.

-11-

قافلة سُراة الليل

سقطت الشمس خلف الأفق وبدأت السماء في ارتداء وشاحها الأسود البهيم، ونزل المطر بخفةٍ ثابتةٍ؛ ليسيل برفق على وجوههم وكتم وقع حوافر الحمير، كان القاضي راكباً بغلته البيضاء الفارهة التي يسميها " قطوف "، وخلفه مباشرة كان مرافقه الشخصي نعمان الحداد متوشحاً بندقيته الآلية من طراز كلاشنكوف 47 K، ثم بقية الركب. كانوا يتحركون جنوباً باتجاه مدينة تربة ذبحان، وهي قرية كبيرة نسبياً في ذلك الزمان لا تكاد تصل إلى مسمى مدينة، ولكن لأنها مركز القضاء، فيطلق عليها مجازاً اسم مدينة.

سلكوا طريقاً زراعياً مختصراً ولكنه كثير الحفر والعقبات يمضي ملتوياً كأفعى بين الحقول المجتثة، كان القاضي سلطان في المقدمة يهمز بغلته ليستحثها على الإسراع؛ فراحت تَخبُ بتهور لا يخلو من رشاقة إلى أن تكاثفت الأشجار من حولها وأصبحت تعيق حركتها، كان يسمع صوت أنفاسهم الثقيلة بينما أخذت الكلاب تعوي من بعيد، رانَ عليهم

صمتٌ مطبق في البداية، وبين الفينة والفينة كان القاضي يلتفت ليتأكد من أن أحداً لم يتخلف كثيراً.

كانت الرياح تزأر عالياً في الطريق المشجر، والأشجار تتقوس وتحني ظهورها يميناً ويساراً، وأشعة القمر تنثر ضوؤها بوحشية بين قطرات المطر الخفيفة التي يطلقون عليها (هثيم)، ثم ما لبث ذلك الهثيم أن توقف وأسفر القمر عن وجهه المنير فبدا وكأنه يبتسم بطريقةٍ ما، وكأن ضوؤه نبعٌ من النور لا يجف أبداً.

غرق القاضي سلطان في أفكاره لعله يجد حلاً لهذه المعضلة التي حاقت بهم، لم يحدث من قبل أن صادفته معضلة عصية على الحل مثلها، كانت بامتياز مشكلة شائكة، فهو واقع بين أمرين أحلاهما علقم، عالقا بين الرمضاء والنار؛ فقد كان يطمح من خلال الصياد سعيد أن يوقف الخطر الداهم الذي ألمَّ بالبلاد، وفي نفس الوقت كان يخشى أن يكون هذا الهدف فوق احتمال الصياد، وقد يؤدي إلى أمور لا تحمد عواقبها كأن يتحول الصياد إلى فريسة فيفقد حياته أو يصاب إصابة بالغة تعيقه بقية حياته، لكن القضية كانت تستحق المحاولة لأنها تمس أمن الناس وحياتهم ومعاشهم، ولكن المخاطرة كانت كبيرة واحتمال النجاح ضئيلاً؛ لذلك كان القاضي سلطان يلوم نفسه كثيراً ويسألها لماذا لم يوجه أمراً قاطعاً وحازماً للصياد بالتزام بيته؟ لماذا تساهل بالأمر وغض الطرف عن

مغامرة الصياد؟ لماذا لم يفكر ملياً في العواقب والمخاطر المحتملة؟ هل كان حظ النفس له دور في ذلك؟ كي يُقال إذا نجح الصياد في القضاء على الوحش أن القاضي هو من شجعه ودعمه؛ فيكون له نصيب من المديح والثناء على ألسنة الناس.

حدثته نفسه: لماذا كل هذا اللوم والتقريع لنفسك؟ لماذا تلقي بالمسؤولية الكاملة عما حدث على نفسك؟ لقد تحدث الحاج ناصر مرشد أنهم نجحوا قبل ستين عاماً في تحييد ذلك الوحش، ولم يظهر مرة أخرى على الأقل لفترة ستين عاماً، ولكنهم مع ذلك قدموا تضحية كبيرة حينما فقدوا ثلاثة من خيرة شبابهم الشجعان الذين أخفقوا فيما نجح به الأخير، بينما نحن لم نفقد إلا شخصاً واحداً؛ إذاً ثلاثة مقابل واحد، هذا بحد ذاته إنجاز كبير لابد أن يؤخذ بالحسبان، ولكنه ملتزمٌ الآن أمام أهل الصياد بل وجميع أهل البلاد بمحاولة أخيرة للبحث عن سعيد المطنن عبر طلب العون من الجهات الحكومية التي هي مسؤولة عن الجميع، مع أنه يشك أنهم سيجنون أي ثمرة من هذا العون، ولكن لا بأس بالمحاولة كي يريح ضميره على الأقل ويعذر أمام أهل الصياد وجميع أهل البلاد.

أفاق القاضي سلطان من أفكاره وخيالاته عندما لاحظ أن بغلته حرنت وأخذت تدور في مكانها في خوف وتوتر، وكذلك فعلت بقية حمير

القافلة التي أخذت تدور حول نفسها في عصبية وخوف، قدر شيخ البلاد أن هناك أمراً ما أخافها وجعلها تتصرف بغرابة؛ لذا طلب من الجميع النزول وربط حميرهم جيداً والاستعداد بأسلحتهم، وكذلك فعل هو أيضًا وأخرج مسدسه الروسي، تمركز الجميع في وضع قتالي وتمترسوا خلف الصخور المتناثرة في الوادي تحسباً لما سيحدث.

لاحظوا أنهم في بطن وادٍ كثيف الأشجار وأنهم أصبحوا قريباً جداً من مدينة التربة، ولم يبق إلا جبل صغير يصعدونه ويصلون إلى ضواحي المدينة، كمنوا متربصين لفترة وجيزة وهم لا يعرفون ما سبب خوف القافلة، ثم اتضح السبب، كان هناك قطيعٌ من الضباع الجائعة (العرج) يبلغ عددها حوالي عشرين ضبعاً يحيطون بهم.

كانت تكر وتفر وتتقدم وتتأخر وتنبح نباحاً يشبه نباح الكلاب ولكنه يختلف عنه أحيانا يسمع كأنه صوت قهقهة أو ضحك، تحفز الجميع واستعدوا وانتظروا توجيهات القاضي، فكر القاضي أن الضباع تخاف من النيران ولكن فكرة إشعال نار في هذا الوادي تتطلب منهم جميعاً الانتشار في الأرجاء لجمع الحطب ثم إشعال النار، وهذا كله يحتاج إلى وقت وتفرق للجماعة وهذا خطر في هذا الوضع، ينبغي عليهم عدم الاستهانة بهذه الوحوش الجائعة، لذا أمر الجميع بالاستعداد لإطلاق النار والتصويب بشكل جيد وعدم إهدار أي طلقة إلا في مكانها

الصحيح، ثم طلب منهم التريث وعدم إطلاق النار إلا بعد أن يعطيهم الإذن بذلك.

بدأت الضباع بالتجمع والتقدم نحوهم بينما استند الرجال العشرة إلى صخرة ضخمة كانت خلفهم ووضعوا كذلك دوابهم جميعها خلفهم، كانت الصخرة من الضخامة بحيث يتعذر على الوحوش تسلقها ومهاجمتهم من الخلف، انتظر القاضي سلطان حتى اكتمل تجمع الوحوش أمامهم وبدأت في شن هجومها، فأعطى حينئذٍ إشارة البدء.

بدأ مرافقه الشخصي وحارسه الأمين نعمان الحداد وأردى أول ضبع كان يقترب منهم ويبدو أنه قائد المجموعة، توالى إطلاق النار من البقية، كان ضوء القمر يساعدهم وكشافاتهم أيضًا كانت تنير لهم المساحة التي أمامهم بشكل جيد، استمرت المعركة أقل من عشر دقائق، ثم ما لبثت بقية الضباع أن ارتدت على أدبارها وهربت وهي تنبح وتضحك مقهقهه.

انتشر الرجال يتفقدون ساحة المعركة، طبعاً هذه معركة لا توجد فيها غنائم الغنيمة الوحيدة التي حصلوا عليها هي سلامتهم وسلامة دوابهم، كانت حصيلة تلك المعركة أحد عشر ضبعاً مجندلاً وتسعة نفذوا بجلودهم، صمت الجميع وأخذوا يعيدون تأمين بنادقهم ومسدساتهم، ثم فجأة انفجر أحد الرجال بالضحك وهو يقول: كانت معركة حامية

الوطيس لم أشهد مثلها في حياتي؛ فقد تصدينا لكتيبة من الضباع الجائعة التي كانت تعدنا وليمة شهية، أجابه الآخرون بالتعليقات الطريفة والضحك.

لم يجرؤ أحد من الرجال أن يتهم الشيخ أو يؤنبه ويحمله المسؤولية عن تعريض حياتهم للخطر، بل أشعروا الشيخ بأنهم استمتعوا برحلتهم وغيروا شيئاً من رتابة وروتين حياتهم الممل، فقد قضوا معظم الطريق وهم يتسامرون ويتجاذبون أطراف الحديث ويتبادلون الطرائف والنكات والضحك على بعضهم البعض، هذا ما جعل الرحلة تبدو وكأنها نزهة ليلية فحسب تضاف إلى ذكرياتهم الجميلة.

وصل الركب إلى بيت عامل القضاء قرابة التاسعة ليلاً، كان المدير نائماً، ففي ذلك الزمان الذي لا يوجد فيه تلفاز أو حتى كهرباء أو غيرها من وسائل الترفيه، كان الناس ينامون مبكرين غالباً بعد صلاة العشاء؛ فالبعض كان يتناول طعام العشاء بعد صلاة المغرب والبعض بعد صلاة العشاء، ليس من المستغرب أن يكون المدير نائماً في ذلك الوقت المبكر بمقاييس زماننا نحن.

كان العامل مستغرباً من هذه الزيارة غير المتوقعة في الزمن غير المتوقع ولهذا العدد الذي يشكل وفداً رفيع المستوى، لكنه لم يسألهم عن سبب قدومهم بل بادر بتقديم واجب الضيافة وأعد لهم عشاءً فاخراً، كان

الضيوف لا يشعرون برغبة في النوم مع أنهم قاموا بجهد كبير في رحلتهم، ولكن المعركة التي حدثت في الوادي طردت النوم وأشعلت حماستهم وأخذوا يحدثون مضيفهم عنها وهم يضحكون، فبادلهم الضحك وأخبرهم أن ذلك الطريق الذي سلكوه عبر الوادي الضيق خطير ومهجور مع أنه الأقرب، ولكن كثير من الناس يتجنبون السير فيه نهاراً لكثرة قطاع الطرق والوحوش الضارية، ويتجهون نحو الطريق الذي يلتف حول الجبل من الجهة الجنوبية الشرقية .

خلد الجميع للنوم بعد يومٍ مرهق مفعم بالأحداث المثيرة بدءاً من زيارة الحاجة رشيدة حتى رحلتهم الليلية ومواجهتهم مع الضباع؛ لذا استغرقوا في النوم، حتى أذان الفجر لم يسمعه أحد سوى مضيفهم والشيخ سلطان الذي عادة ما يصحوا على الأذان الأول؛ لذا فقد توضأ سريعاً ثم عاد يحاول إيقاظهم، ولكن عبثاً كان يحاول؛ فقد كانوا مستغرقين في النوم تماماً بسبب إرهاق السفر، لذا تركهم وتوجه للجامع المجاور الذي يسمى جامع الشيخ الطيار وهو مسجد أثري قديم.[1]

---

[1] جامع الشيخ العارف عمر بن محمد المسن المشهور بالطيار، وفيه ضريح له يعرف بتربة الشيخ الطيار والتربة هي الضريح الذي عليه قبة وسميت مدينة التربة نسبة لتربة الشيخ عمر المسن.

تناول الضيوف طعام الصبوح[1] مع العامل وأخذوا يتحدثون في أحاديث شتى منها موسم الأمطار وغلة الأرض في السنة الفائتة، ويرجون أن تكون غلة هذه السنة أفضل من سابقتها، ثم بعد الانتهاء عقدوا جلسة عمل مع المدير وشرح الشيخ سلطان كل ما حدث منذ بداية اعتداء الطاهش على أغنامهم حتى اختفاء الصياد سعيد المطنن، وكيف بحثوا عنه وشكلوا فرقا ظلت ثلاثة أيام بلياليها تبحث ولم يصلوا إلى أي نتيجة، ظل عامل القضاء الشيخ قاسم السلامي ينصت باهتمام لحديث سلطان القاضي ولم يقاطعه أبداً، وبعد انتهاء القاضي من سرد قصته، استمر صمت الشيخ السلامي وهو يفرك لحيته، كان يبدوا مصدوماً ومذهولاً في آن واحد، وطال صمته حتى استحثه القاضي قائلا: ما رأيك يا شيخ قاسم؟

نظر إليه الشيخ السلامي مشدوها وقال: هذا أمر يفوق الخيال لو لم أكن أعرفك جيدا وأثق فيك لقلت أنها ربما تكون قصة من بنات أفكارك، لكن لقد تأخرتم كثيرا لماذا لم تبلغونا فور اختفائه؟ رد عليه القاضي: لقد بحثنا جيدا لمدة ثلاثة أيام بلياليها واستنفرنا كل جهود أبناء البلاد ولكننا لم نعثر له على أثر، لذلك ظننا أنه ربما يظهر ويعود لنا من

---

[1] الصبوح هو طعام الإفطار بلهجة تلك البلاد.

تلقاء نفسه، ولكن بعد مرور عشرة أيام أصابنا اليأس وقررنا أن نستعين بخبراتكم؛ فأنتم تمثلون الدولة ولديكم إمكانيات لا نملكها نحن.

أخذ عامل القضاء الشيخ السلامي يفكر لبرهة ثم قال: لا بأس لكن بعد مرور كل هذا الزمن لا تتوقعوا منا أن نفعل الكثير، فكلما مر يوم آخر على اختفاء الصياد صعب ذلك مهمتنا وابتعدنا أكثر عن احتمال العثور عليه حياً على الأقل، سأستدعي الضابط مدير الأمن في القضاء وسنقوم بتشكيل فريق من المختصين في الأدلة الجنائية وذوي الخبرة في البحث عن المفقودين، على افتراض أن ما حدث للرجل هي قضية جنائية فهي إما أن تكون قضية قتل أو اختطاف؛ لذا اطمئنوا تماماً وتأكدوا أننا سنقوم بواجبنا تجاه ابننا المفقود.

تحرك القاضي سلطان ومرافقيه في رحلة الإياب نحو بلادهم بعد أن أكرمهم الشيخ السلامي ودعا أعيان المدينة إلى وليمة غداءٍ فاخرة، ثم ودعهم بعد الغداء داعيا لهم بالسلامة ونصحهم بعدم سلوك الطريق الذي جاؤوا منها، وأكد لهم أن هناك لجنة مختصة ستصل إليهم غدا، وستباشر عملية بحث منظم عن الصياد المفقود.

في صباح اليوم التالي وصلت لجنة أمنية مكونة من سبعة اشخاص بقيادة ملازم شاب متحمس اسمه فؤاد الأصبحي وتضم نخبة من شباب البحث الجنائي المشكل حديثاً، وقد استعانوا أيضًا برجل في الستين من عمره

اسمه صالح المذحجي وهو خبير في قص وتقفي الأثر ويعتبر الأفضل في هذا المجال والجميع يشيد بموهبته في علم الفراسة، ويرافقه أيضًا كلب مدرب على تقفي الأثر اسمه رعد.

استقبلهم الشيخ سلطان في حفاوة بالغة وقدم لهم وجبة خفيفة ثم بدأوا في مباشر عملهم وسأل الضابط عن مكان تواجد الصياد آخر مرة رآه فيه الناس وطلبوا أيضًا شيئاً من ملابسه لم تغسل بعد، فأجابهم الشيخ ووفر لهم كل ما طلبوه، تحرك رجال اللجنة الحكومية يرافقهم بعض الرجال من أهل البلاد الذين يعرفون المسالك والطرق بشكل جيد كأدلة لهم، ثم طلب الحاج صالح المذحجي من رئيس البعثة الفندم[1] فؤاد الأصبحي أن يأذن له بالتحرك بشكل منفرد.

تردد الضابط قليلا في البداية بمبرر الخوف من تشتت الجهود، ولكن الحاج صالح أقنعه بأنه مقتفي أثر وتحركه سيكون بشكل سريع ولا يستطيع الالتزام بحركة بقية الفريق؛ لذا قرر الضابط أن يعطي له الإذن بالتحرك منفرداً، وطلب من الرجال الذين من أهل البلاد أن يأخذوهم إلى بيت الصياد سعيد لأنهم سيبدؤون عملهم من هناك.

---

(1) لقب يلقب به ضباط الجيش والشرطة يقصد به الاحترام وأصله تركي مشتق من كلمة أفندي.

حينما وصلوا إلى بيت الصياد المفقود كانت أمه الحاجة رشيدة تراقبهم من على سقف البيت، قام مقتفي الأثر بتفحص المكان بتمعن واهتمام وثم قال للفندم فؤاد: أرجوا أن تخبر أهل المفقود أن مهمتنا صعبة بل هي شبه مستحيلة فاقتفاء أثر شخص غاب منذ أكثر من اثني عشر يوماً أمر قد ينجح أو لا، واحتمال الفشل كبير؛ فلا يتوقعوا الكثير منا، ورغم ذلك فإنني سأبذل أقصى ما في وسعي، فأجابه الفندم: لا تقلق أبدا يا حاج صالح وقم بما عليك فعله وأنا سأوضح لهم الأمر، مع أن الشيخ عامل القضاء قد أخبرهم بذلك، وأنا أيضًا أخبرت الشيخ سلطان بذلك.

عندئذٍ شمر الحاج المذحجي ساعد الجد وأعطى رعد كلبه البوليسي – إذا صح التعبير – فنيلة داخلية كان يلبسها سعيد الصياد ولم تغسل بعد زودته بها أم الصياد، أخذ الكلب يتشمم قطعة الثياب تلك ثم أخذ يتشمم الهواء من حوله والأرض ثم دار حول نفسه عدة دورات، ودار حول الناس المجتمعين واتجه نحو باب بيت الصياد ولكن صاحبه الذي كان ممسكا برسنه بثبات منعه من ذلك، عوى الكلب وكأنه يحتج على ذلك، ثم فجأة انطلق يجري في أزقة القرية ومازال صاحبه ممسكا به.

تحرك الكلب في البداية بخطى سريعة ثم أخذ يبطئ من سيره وصاحبه يتفحص الطريق من حوله، كان رجال القرية وأطفالهم واقفين أمام أبواب

بيوتهم يراقبون المشهد بصمت أما النساء فكن يشاهدن ما يحدث من النوافذ، والأطفال كانوا هادئين على غير عادتهم فلم يحاولوا الاقتراب من الكلب إذ أن هذا الكلب كان شكله مخيفا ومختلفاً عن الكلاب التي يعرفونها، أخذ الكلب رعد يسير ثم يقف و يتشمم الأرض والهواء ثم يسير مرة أخرى، وبعد فترة من الزمن يبدو أن الكلب وصاحبه اتفقا على التحرك باتجاه الجبل.

فيما كان الفندم فؤاد الأصبحي وبقية أفراده منشغلين باستجواب أكبر عدد من أهل القرية، ويسألونهم عمن رآه أخر مرة، متى كانت؟ وأين؟ اتجه الحاج صالح وكلبه باتجاه المحروض ومنه إلى تلة النوبة، ثم واصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى شعيرة، وهناك أخذ الكلب يشم الأرض والهواء وصاحبه منكب على الأرض يتفحصها بدقة فترة من الزمن، ثم فجأة تحرك الكلب باتجاه القرية مرة أخرى لكن صاحبه أمسك بقوة برسنه؛ فأخذ الكلب يعوي وينبح كأنه يريد أن يشرح لصاحبه المبرر لذلك، حينما رأى الحاج صالح إصرار الكلب على السير في ذلك الطريق أرخى له الرسن وترك له حرية الحركة.

استمر الفندم فؤاد وأفراده أخذ أقوال الأهالي وكلف الملازم أحد أفراده بكتابة المحضر، وجلسوا جلسة مطولة مع الراعي سيف الفقي واستمعوا له باهتمام وهو يصف ما حدث منذ المرة الأولى التي حدثت قبيل

المغرب حتى وصل لنهاية الأحداث حينما غادرهم الصياد عازماً على مواجهة المسخ وإنهاء تهديده لمواشي البلاد.

طلب الملازم أن يستمع لأقوال الحاجة رشيدة، فأخذت الحاجة تسرد عليهم الحكاية منذ بدايتها في ليلة خروج ابنها وإطلاق النار على المسخ وحتى غادرهم بعد ظهيرة ذلك اليوم المشئوم، كانت تتحدث بثقة وثبات ورباطة جأش فلم تتلعثم أو تتردد. واصل الفندم فؤاد ومعاونوه في أخذ أقوال الأهالي، انتقلوا إلى مكان الحادث الأول ثم إلى مكان الحادث الثاني، وعاينوا المكانين بدقة واحتراف، كان القاضي سلطان يتحرك معهم ويجيب على أسئلتهم، ثم اقترح عليهم أن يعاينوا مكان المواجهة بين الصياد والمسخ عند بئر القرية فاستحسنوا الفكرة وتحركوا للموقع.

عندما وصلوا أمر الضابط أفراده بالانتشار والبحث عن أي أدلة لها فائدة في تحقيقهم، نفذ الأفراد الأمر على الفور وانكبوا يبحثون بين الحجارة والأعشاب والحشائش، فيما وقف الضابط يتحدث مع القاضي وطلب منه أن يعيد على مسمعه قصة الصياد مع المسخ في هذا المكان، مرت تقريبا نصف ساعة وفجأة أقبل أحد الأفراد وهو يقول وجدت شيئاً يا فندم، فقال له: ما هو، قال انظر ووضع بيد الضابط شيئاً معدنيا يلمع، أخذ الضابط يتفحص ذلك الشيء باهتمام، ثم قال له أين وجدتها؟ فقال هناك، فوجه الضابط حديثه للقاضي سلطان: هل حدثت

أي أمطار من الفترة التي تلت إطلاق النار وحتى اليوم؟ فهز الشيخ سلطان رأسه نافياً فانتقل الضابط للمكان الذي أشار إليه الرجل وهو يقول للقاضي بالفعل هذه فارغ طلقة من بندقية جرمل، ويبدو من مظهرها أنها حديثة العهد، أي لم يمر عليها سوى عدة أيام لأن لونها لم يتغير بفعل العوامل الجوية، ثم قال: أخبرني يا شيخ سلطان حسب رواية الصياد أين تعتقد أنه وقف؟ وأين كان المسخ واقفاً؟

تلفت القاضي في المكان ثم تحرك خطوتين لليمين وثلاث خطوات للخلف ثم قال: أتوقع أنه كان في هذا المكان، وقال إنه جثا على ركبتيه حينما أطلق النار ووضع كشافه على صخرة صغيرة بجواره، ثم التفت لليمين فوجد صخرة صغيرة تبعد عدة أذرع وقال: وأظن أن هذه هي الصخرة التي وضع عليها كشافه، وإذا صحَّ ظني فإن موقعه كان في هذا المكان وتحرك القاضي خطوة نحو اليمين حتى أصبح بمحاذاة الصخرة تماماً، والمسخ كان أمامه مباشرة ويبعد عنه حوالي خمسين خطوة.

وقف الضابط خلف القاضي وأخذ ينظر أمامه بخط مستقيم، ثم طلب من أفراده أن يبحثوا عن المقذوف الذي قدر أنه منغرسٌ في التلة الطينية التي تعلو البئر، أخذ الأفراد يعملون بجد في البحث حتى أثمر جهدهم ذلك بعد عدة دقائق عندما وجدوا المقذوف منغرساً عدة سنتيمترات داخل تلك التلة الطينية التي أشار إليها الضابط.

وضعه الشخص الذي وجده في منديل ورقي وذهب به إلى الضابط الذي أخرج عدسة مكبرة وأخذ يتفحص الطلقة، ثم قال بهدوء: نعم هذا هو مقذوف طلقة بندقية الجرمل، ولمعانه يدل على أنه لم يمض وقت طويل على إطلاقه، ثم فتح كيساً صغيرا من النايلون ووضعه بداخله، وقال للشيخ سوف نرسلها للمعمل الجنائي لنبحث عن آثار الدماء، يبدو أن حكاية الصياد حقيقية وليست محض خيال، أو على الأقل جزءٌ منها تأكد لنا أنها حدثت في هذا المكان.

كان وقت أذان الظهر قد أزف لذا اقترح القاضي على الفندم فؤاد أن يذهبوا للجامع لأداء الصلاة ثم سيأخذهم إلى بيته لتناول طعام الغداء، ولكن الضابط استدرك قائلاً: طيب والحاج صالح المذحجي؟ قال الشيخ سلطان أعتقد أننا سنجده قد سبقنا للجامع أو أنه في الطريق إليه، رفع أذان الظهر بينما هم في الطريق للجامع وحينما وصلوا إليه لم يكن ثمة صالح المذحجي.

بعد الانتهاء من الصلاة انتظروا وصول الحاج صالح لكنه لم يظهر؛ لذا قرر الشيخ أن ينطلق مع ضيوفه للبيت وينتظروا هناك ريثما يصل الحاج صالح وترك رجلا بجوار الجامع كي يقود الحاج صالح حينما يصل إلى بيت الشيخ، طال انتظارهم للحاج صالح ولكنه تأخر؛ لذا خير القاضي الفندم بين تناول الطعام والانتظار فاختار الانتظار، وبالفعل انتظروا حتى

طال انتظارهم واقتربت الساعة من الثانية ظهراً فقرروا تناول الغداء وترك نصيبه جانباً.

بعدما تناولوا الغداء استمر غياب الحاج صالح حتى أصاب الجميع القلق، وكان الشيخ سلطان يطل من النافذة بين كل فينة وأخرى لعله يلمحه قادما وأحيانا يصعد إلى سطح البيت على أمل أن يراه قادما من بعيد، ثم ينزل فيسأله الضابط ما الخبر هل ظهر الرجل؟ فيجيب الشيخ لا، لكن الله يستر أخشى أن يكون أصابه مكروه لا سمح الله، فيتغير وجه الضابط ويصيبه الشحوب.

رفع أذان العصر ثم أقيمت الصلاة واصطف الجميع خلف الإمام لأدائها، وبينما هم في منتصف الفريضة سمعوا صوتاً مألوفاً يأتي من بعيد فتنفسوا الصعداء وانقشعت عنهم غيوم الخوف والقلق؛ فقد كان ذلك صوت نباح رعد كلب الحاج صالح، وصل الحاج صالح وهو متغير الوجه متلاحق الأنفاس يبدو عليه الإرهاق يعلوه الغبار، وتلوح على شفتيه حكاية مكبوتة توشك على الإفصاح، لم يبادر أحد بسؤاله عن سبب تأخره شفقة عليه بل تركوه يتوضأ ويصلي العصر بينما يجهز له طعام الغداء، بعد الانتهاء من تناول الغداء اتكأ على أقرب متكأ وبدأ بتناول وريقات القات وأبصارهم متعلقة به ينتظرون توضيحه بفارغ الصبر.

ابتسم لهم في وداعة ثم قال: أعتقد أنني مدين لكم بتوضيح سبب تأخري؟ سكتوا فقال لهم: لقد وجدته، ثم سكت وهو يقلب بصره بينهم ليعرف أثر كلماته، فهتفوا بصوت واحد ماذا قلت؟ هل وجدته؟ أين؟ وكيف؟ هل هو حي أم ميت؟ هل تقصد أنك وجدت جثته؟

ترك لهم لبرهة حرية التساؤلات، شعر بالفخر وبأهميته بالنسبة للضابط والشيخ، أعجبه ذلك، ثم قال: لا هذا ولا ذاك!! قالوا: ما هو قصدك ألم تقل إنك وجدته؟ قال: نعم قلت؛ ولكنني لم أقصد أنني وجدت الصياد، قالوا: فمن وجدت إذاً؟ قال لقد وجدت أثره، كانت أثاراً كثيرة وواضحة إلى حدٍ ما، قالوا له لا تختبر صبرنا وضح الأمر برمته.

قال الحاج صالح: لقد تتبعتُ أثره إلى التلة التي في سفح الجبل، والتي أفاد الشهود أنهم رأوه فيها، ثم أخذ كلبي يلح في الهبوط مرة أخرى فظننتُ أنه سوف يعود إلى أزقة القرية، ولكنه هبط قليلاً ثم عرج بي نحو الجنوب ومررنا بعدد من الوديان والتلال التي تحوي عدداً من الكهوف الصغيرة، وواصل كلبي سيره حتى وصلنا إلى كهفٍ كبير نسبياً له جدران صخرية سوداء وينز من سقفه الماء ويتجمع في بركة صغيرة في وسطه، قاطعه الشيخ سلطان قائلاً: هذا الوصف ينطبق على حيد السامعي فماذا وجدت فيه؟

واصل الحاج قائلاً: لقد كانت آثاره واضحة هناك بشكل كبير سواء رائحته التي التقطها أنف كلبي أو أثار أقدامه ويديه، كانت الآثار تكاد تندرس، فبذلت جهداً كبيراً في تتبعها لكنني أجزم بأنها آثاره، بيد أن العجب كل العجب أن تلك الآثار توقفت هناك.

سأله الفندم: كيف يعني توقفت؟ قال: لم أجد أي آثار له بعد ذلك حتى أن كلبي جن جنونه فأخذ يعوي ويخمش بمخالبه الجدران بشكل هستيري، يبدو أن آثار رائحته كانت ملتصقة بالجدران بشكل كثيف ولا أعلم ما سبب ذلك، حاولت تتبع أثره خارج الكهف فلم أجدها إلا في الجهة التي أتينا منها؛ لذا لم أستطع أن أحدد الجهة التي يمم إليها بعد خروجه من الكهف وقد تجولت كثيراً في كل الجهات التي حول الكهف ولكن عبثاً كنت أحاول.

سكت الرجل فقال الفندم فؤاد: لقد أحسنت صنعاً يا حاج صالح لقد بذلت جهوداً رائعة، لذا تأخرت حتى بدأت الهواجس والظنون تنهش قلوبنا حتى أن الشيخ سلطان توجس خوفاً أن يصيبك ما أصاب الصياد، لكن الحمد لله على سلامتك والشكر لك على النتائج التي توصلت لها، لكن لدي سؤال هل وجدت أي أثار لملابسه أو أي شيء من حاجاته، أو أثر دماء أو شعر أو غير ذلك؟

أجاب الحاج صالح: للأسف لم أجد إلا أثار أقدامه ويديه ورائحته التي التقطها أنف كلبي رعد، فقال الفندم موجهاً حديثه للشيخ سلطان نريد أن نذهب ونعاين ذلك الكهف فهل يكفي الوقت قبل غروب الشمس؟ رد عليه الشيخ: نعم المكان لا يبعد كثيرا لمن يسير بسرعة وسنأخذ معنا كشافات وأتاريك تضيء لنا إذا تأخرنا في العودة.

أتجه الجميع إلى هناك وقام الضابط وأفراده بالتجول في الكهف بحذر والحاج صالح يشرح لهم ما وجد من آثار واستخدموا أضواء الكشافات و الأتاريك والفوانيس التي تعمل بالجاز (الكيروسين)، فحصوا الكهف بدقة واحترافية بالغة، لم يتركوا موضعاً منه إلا وقاموا بمسحه، الأرضية والجدران والسقف ومع ذلك لم يجدوا أي أثار مادية عدا تلك التي وجدها مقتفي الأثر وكلبه، اتجهوا خارج الكهف وبحثوا لمسافة عشرات الأمتار لعلهم يجدون أي أثر ينبئهم عن الوجهة التي سلكها الصياد بعد خروجه من الكهف، ولكنهم لم يحصدوا أي نتيجة وذهبت محاولاتهم أدراج الرياح العاصفات.

تجمعوا حول الشيخ وبجواره الفندم فؤاد والحاج صالح كي يتشاوروا، كانت الحيرة تلفهم وكانوا يتساءلون ما الخطوة القادمة، لكن خيوط الشمس قد آذنت بالمغيب وبالكاد كان الوقت يكفيهم كي يعودوا أدراجهم للقرية؛ فقرر الضابط العودة وانتهاء البحث في هذا اليوم.

بعد صلاة العشاء عقد الضابط مع أفراد بعثته جلسة نقاش في وجود الشيخ سلطان وبعض وجهاء القرى المجاورة، وتم استعراض الإجراءات التنفيذية التي قاموا بها خلال اليوم، ثم استعرضوا النتائج التي توصلوا إليها من جولتهم، ثم فتح باب الاقتراحات للجميع.

فقال الشيخ: أنا في غاية الحيرة كيف اختفت أثاره في الكهف ولم يتضح إلى أين ذهب بعد ذلك؟ رد عليه الحاج صالح المذحجي: هناك عدة احتمالات هل أطرحها عليكم؟ قال الفندم: هات ما عندك يا حاج، تنحنح الحاج واعتدل في جلسته كأنما سيلقي خطاباً جماهيرياً ثم قال: الاحتمال الأول أنه استدرج إلى الكهف واختطف من هناك، و من ثم قاموا بإخفاء جميع آثاره وهذا عمل يحتاج إلى جهد مضنٍ وخبرة كبيرة وفريق متكامل، لكنني استبعد حدوث ذلك لأنكم قلتم أنه ليس له أعداء بل بالعكس، فهمت منكم أنه شخص محبوب من الجميع، إذن لا أحد لديه الدافع للقيام بهذه الجريمة، أنت تعرف يا فندم فؤاد أنه عند حدوث أي جريمة فإننا نبحث عن المستفيد من وقوعها، ولكن لا يوجد مستفيد في هذه الحالة، إذن نستبعد هذا الاحتمال.

الاحتمال الثاني: أنه لم يخرج من الكهف بل هو ما زال هناك، قال ذلك ثم سكت ونظر في وجوه من حوله كي يعرف تأثير كلماته، كانوا ينظرون إليه بذهول، ثم قال الشيخ سلطان كيف يمكن أن يحدث هذا، قال

الحاج: قد يكون الكهف ابتلعه، وقد يكون هناك باب سري فتح ثم انغلق عليه.

قال الضابط: يا حاج صالح هذا غير ممكن استحالة أن يحدث هذا الأمر فنحن فحصنا الكهف بدقة كل جوانبه ولم نجد أي قرينة تدل على وجود هذا الباب، والأبواب السرية أو السحرية لا توجد إلا في القصص الخيالية مثل قصص ألف ليلة وليلة، أم أنك تريد منا أن نعود غداً للكهف ونهتف قائلين افتح يا سمسم فينفتح لنا بابٌ سريٌ، انفجر الجميع بالضحك وشاركهم الحاج صالح بالضحك وهو يقول: اعذروني يا جماعة أنا أمام قضية محيرة لم يقابلني مثلها طيلة حياتي، هذه قضية في غاية الغرابة فلا عجب إذن إن كان حلها غريباً مثلها، هناك احتمال ثالث وأخير هل تتركونني أطرحه عليكم أم أنكم ستسخرون مني، قال الضابط لا لن نسخر ولم نكن نسخر منك حاشا لله أن نسخر من شخص جاد مثلك وله تاريخ عريق في حل قضايا كثيرة، تفضل بالحديث وكلنا آذان صاغية.

الاحتمال الثالث: أن يكون خرج فعلا من الكهف ولكنه طار في الجو أو أنه مُسخَ وتحول إلى شجرة أو صخرة من تلك الأشجار والصخور التي تنتشر حول الكهف بفعل مردة الجان، ضج الجميع بالضحك، قال الشيخ: كنا نشكي من غرابة احتمالك الثاني؛ فإذا بالثالث أدهى وأمر،

على كل حال نحن عاجزون عن التحقق من احتمالاتك التي طرحتها ما عدا الأول؛ لذا سيكون عملنا مرتكزاً على الاحتمال الأول، لأنه ليس لنا القدرة على مواجهة مردة الجان.

قطع الملازم فؤاد النقاش وشكر الجميع على الجهود التي قاموا بها وشكر الشيخ سلطاناً القاضي على تعاونه، ثم اتخذ قراراً بمواصلة البحث في اليوم التالي وعدم اليأس على أن يقوم مع أفراده بمتابعة عملهم في أخذ أقوال الأهالي، وكلف الحاج صالحاً أن يواصل جهوده وتقفي أثر الصياد المفقود، مع توسيع المساحة التي سيبحث فيها.

طلب من الشيخ سلطان أن يكلف شخصاً أو اثنين من شباب البلاد الذين لديهم المعرفة الكافية بالطرق والمسالك كي يكونوا أدلة للحاج صالح، وهكذا تواصل البحث لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع ظهراً بعد طعام الغداء شكر الملازم فؤاد الأصبحي الشيخ سلطان على جهوده وحسن ضيافته، كما شكر جميع من تعاون مع لجنته وسهل عملها، ثم أعلن انتهاء البحث بدون إي نتائج ملموسة، وأكد أنه سيكتب تقريرا مفصلاً عن مهمته ويرفعها للجهات الرسمية ثم ودع الجميع وغادر باتجاه مدينة تربة ذبحان.

-12-

أشياء تحدث في الظلام

برد.... بردٌ ينهش الجلد ويمزق اللحم، يثقب العظام، بردٌ رطب يطحن العضلات ويحرق الأحشاء، برد... في تلك الوهلة الأولى التي استعاد فيها وعيه، لم يستطع أن يفكر إلا بالبرد.

الظلام مطبق أو يكاد، لا شيء سوى منفذ في الأعلى ينهمر منه الضوء، ضوء شحيح وخافت يلتحم بالظلال كالغبار المتلألئ مبرزاً حدود المكان الذي يتواجد فيه، حدقتا عينيه تتسعان، فيتمكن من رؤية غرفة ذات أبعاد صغيرة، الجدران من الحجر الأسود العاري، ترشح منها رطوبة لامعة وسط الظلام، كأنها دموع قاتمة تنزلق عليها، الأرض الحجرية تطفو بشيء لا يبدو أنه ماء، ورائحة العفن التي تغمر الهواء كثيفة جداً.

حاول سعيد المطنن النهوض على قدميه لكنه لم يستطع شعر بآلام فظيعة في جميع أجزاء جسمه، كان يشعر كأنما جسده مدينة اكتسحها زلزال مدمر فاستحالت إلى ركام، أخذ يتمطط لعل تلك الآلام تختفي،

ثم وقف بصعوبة، بحث حوله فلم يجد أي حاجة من حاجاته التي وضعها بجواره عندما نام، حزامه وسيفه وبندقيته حتى مخلاته التي اتخذها وسادة اختفت كلها، لم يبق معه إلا رديفه الذي تغطى به وثيابه التي كانت عليه؛ فحمد الله على أنها لم تختفِ هي الأخرى وتتركه عارياً.

تفقد الغرفة التي وجد نفسه فيها مرة أخرى فوجد أنها مربعة الشكل وجدرانها عالية ملساء، ولها سقف مرتفع يناهز ثلاث قامات تقريباً، ويوجد في منتصف السقف كوة صغيرة لا يزيد قطرها عن شبرٍ واحد، يدخل منها ضوء شاحب وتمد الغرفة بالهواء، بحث في كل الجدران من حوله عن باب الغرفة متلمساً بكلتا يديه، ولكنه لم يجد أي باب.

أخذ يتساءل من الذي نقله من تلك الغرفة المظلمة، شعر في أعماق نفسه بالارتياح والتفاؤل؛ فخروجه من تلك المقبرة البشرية بحد ذاته أمرٌ إيجابي، ووجوده في هذه الغرفة أيضًا يبعث في نفسه الأمل، والأمر الأكثر أهمية من هذا وذاك أن نقله من مكان إلى آخر أفضل يدل أن هناك من يهتم لأمره ومن يتابع وضعه، استنتج أن وجوده في هذا المكان ليس أمراً اعتباطياً أو وليد الصدفة، بل هو أمر مخطط له بعناية، وهذا أمر يبشر بخير.

واصل بحثه في أرجاء الغرفة إن صح تسميتها كذلك فأكتشف وجود دكةٍ مرتفعة عن الأرض مكونة من صخور مشكلة على هيئة سرير

ويوجد عليها فرش اسفنجي مريح ومخدة قطنية وغطاء صوفي وآخر قطني، أسعده ذلك وأخافه في آن واحد لأن هذا يدل على أنهم– على افتراض أنهم مجموعة– خططوا لبقائه طويلا في هذا المكان.

لم يشعر كم مرَّ عليه من الوقت منذ أن نام في تلك الغرفة المليئة بالعظام البشرية ثم أفاق في هذا المكان، نظر في ساعته كي يعرف الوقت الآن، لكنه دهش عندما وجد معصمه فارغاً، فقال في نفسه: حتى ساعتي أخذوها؟ ماذا يريد مني هؤلاء؟ وإلامَ يخططون؟ نظر للكوة التي في السقف محاولا تخمين الوقت، فوجد أن ضوء الشمس غير موجود فاستنتج أن الوقت قد يكون قبل المغرب أو قبل الشروق، سيعرف بعد قليل إذا تلاشى الضوء أو ازداد.

شعر بجوع شديد وعطشٍ لا يحتمل، بحث في كل أنحاء الغرفة لعله يجد شيئا يسد رمقه ولكن بحثه باء بالفشل، فتساءل هل يعقل أنهم سيتركونه يموت صبراً[1]، استبعد هذا الاحتمال لأنهم كانوا سيتركونه في تلك المقبرة إذا قرروا موته مسبقاً؛ لذا اعتصم بالصبر افترش الأمل وتدثر بالتفاؤل، وجلس على فراشه الذي شعر بأنه وثير بعد أن قضى سابقاً في حفر و زحف متواصل ونوم على أرض باردة صلبة وجوع أليم.

---

[1] يطلق لمن يحبس ويعذب حتى الموت: "مات صبراً"

تمدد على الفراش وشبك يديه على صدره وأخذ ينظر للكوة التي في السقف في شرود، طرأ على باله أنه سجين لا شك في ذلك، لكنه لا يعرف ما الجريمة التي يعاقب عليها بالسجن في أعماق جبل، في غرفة لا يوجد لها باب أو نافذة، ولا صلة له بالعالم إلا تلك الكوة التي لا يمكن الوصول لها، فكأنه جنين في بطن أمه وتلك الكوة هي الحبل السري التي تشعره أنه مازال على قيد الحياة مع وقف التنفيذ، أي سجن هذا الذي هو فيه، إنه رهين المحبسين كأبي العلاء المعري[1]، سجن وظلام وخوف وجوع وعطش وحيرة، ولا أحد من أهله يعرف أين هو؟ هل حي فيرجى أم ميت فينسى؟

أضر به الجوع والعطش، وإذا تجاوز المرء حداً معيناً على هذا الصعيد شعر بأن نفسه تضمر حتى الزوال، مؤلم مثل هذا البؤس الروحي والجسدي الذي يبتلى به المحروم من الغذاء، مؤلم بحيث يثير فيه ردود فعل بطوليه هي مزيج غريب من الكبرياء وغريزة حب البقاء.

بينما هو غارق في أفكاره وبصره معلق في تلك الكوة التي في سقف زنزانته، وجد خيطاً من نور الشمس يتسلل خلسة ويرتسم على جدار

---

[1] هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري، شاعر ومفكر ونحوي وأديب من عصر الدولة العباسية، نسب إلى معرة النعمان من بلاد الشام، لقب برهين المحبسين أي محبس العمى ومحبس البيت لأنه اعتزل الناس حتى وفاته.

الغرفة، فرح به كثيراً كأنه فارقه منذ سنوات طوال، أراد أن يلمس تلك البقعة المضيئة، ولكنها كانت بعيدة عن متناوله، لذا أخذ يترقب هبوطها التدريجي بنفاذ صبر استغرق ذلك وقتاً رآه طويلا حتى وصلت قريبا منه.

وقف وألصق بدنه على الجدار ومد كلتا يديه فلامست الشمس أطراف أصابعه ثم كفيه وذراعيه وقمة رأسه، وأخذت تلك البقعة من الضوء – التي على شكل دائرة لا يتجاوز قطرها شبراً واحداً– تهبط حتى وصلت إلى أرضية الغرفة؛ فاحتفل بها وأخذ يتقلب فيها كأنه يريد أن يغتسل بذلك النور، مر بذهنه خاطر أن هذا النور نفسه ينسكب الآن على بيته ولا بد أن أمه الآن على السقف تعرض جسد الرضيع لنور الشمس تمنى لو كان يستطيع أن يودع تلك الدائرة المضيئة رسالة كي توصلها إلى أهله وأحبابه، تقول لهم أنه هنا محبوس، كان يريد أن يقول لهم أنه هنا حي ولكنه أسير، كان واثقا أنهم لو علموا أنه هنا لدكوا الجبل كي يصلوا إليه.

أخذ يتابع تلك الدائرة ويجلس تحتها كما تتابع زهرة دوار الشمس ضوء الشمس، هذا الاحتفاء بنور الشمس لم ينسه قرصات بطنه ولا آلام عطشه، لم يكن يعلم كم مضى عليه من الوقت منذ حرم من الطعام، لأنه لا يعلم أصلا كم قضى من الوقت في هذا المكان، لكنه خمن أنه قد

مر عليه يومان أو ثلاثة، وحينما أصبحت الشمس عمودية تماما على أرض الغرفة قدر أن وقت الظهيرة قد أزف، أنتظر قليلا زوال الشمس ثم قام وتيمم وأذن لصلاة الظهر وقدر أنه أول انسان يرفع الأذان في هذا المكان، وهكذا أصبحت تلك البقعة هي مصدر الضوء والدفء وساعة التوقيت بالنسبة له.

كان الجوع الممض والعطش المنهك قد أخذ منه كل مأخذ، شعر بقوة جسده تتلاشى شيئا فشيئا، وأخذ يتساءل: إذا كان هناك من يراقبه ويهتم بأمره وقام بنقله إلى هذا المكان وجرده من جميع أشيائه فلماذا يتركونه نهباً للجوع والعطش؟ هل يتعمدون قتله جوعاً؟ أم يريدون تحطيم إرادته لأمر ما يبيتونه؟ كانت هذه الأسئلة مثل ذبابة زرقاء تطن في أذنيه ولا تتركه في سلام.

أخذته أفكاره بعيدا وتذكر حال نبي الله يونس عليه السلام، كيف ابتلاه الله بالسجن في ظلمات ثلاث، الليل والبحر وبطن الحوت، تذكر الآيات التي ذكرت قصة يونس، كان سيئ الحفظ ولكنه سيحاول تذكرها، وطفق يقرأ بصوت يقطر شجناً وحزناً وحنيناً من سورة الصافات من قوله تعالى" وإن يونس لمن المرسلين... " إلى نهاية السورة.

تفكر في كيف أنجى الله نبيه يونس بدعائه وكثرة ذكره وتسبيحه، وذكر الآية التي ذكرت ذلك في سورة الأنبياء " وذا النون إذ ذهب مغاضباً

فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ألا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"؛ فأخذ يردد بصوت مرتفع: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وظل يرددها حتى غلبه النعاس فراح في سبات عميق مفعم بالكوابيس والأحلام المرعبة.

أفاق من نومه لا يعلم كم قضى من الوقت، فوجد أن الغرفة تغرق في لجة ظلام لا يكاد يرى فيه يده، قام متثاقلا يجر قدميه جرا، وتيمم، ثم أدى فرضي المغرب والعشاء جمعاً، ثم جلس على فراشه مستنداً للجدار، وأخذ يردد أذكاره وابتهالاته، وبعد أن فرغ من ذلك استفتح بفاتحة الكتاب ثم شرع يقرأ من سورة يوسف التي حفظها من كثرة سماعه لها من شيخ المسجد وعجائز القرية، بصوت رخيم يفيض حزنا ويقطر حنيناً واستمر يبحر في خضم تلك السورة، حتى وصل إلى قوله تعالى على لسان نبيه يعقوب عليه السلام:" إنما أشكو بثي و حزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون" لم يستطع أن يكمل، خنقته العبرات وأستبد به الألم ولفه الحزن العميق لما وصل إليه حاله، سالت الدموع تترا من عينيه مدراراً، حتى أغرقت لحيته وأخذت تتقاطر على صدره.

لم يكن يدرك أن الدموع التي ذرفتها عيناه هي آخر ما تحافظ على توازن المحتوى المائي في جسده، وأنه دخل منطقة الخطر على حياته، واصل قراءته حتى ختم السورة، ثم شعر بدوار خفيف وثقل في رأسه يرافقه

صداع نابض، تمدد وحاول أن يخلد إلى الراحة كيما يخف ذلك الدوار والصداع ولكنهما لم يخفا قط، وكيف لهما أن يخفا؟ وكيف له أن يخلد للراحة وهو يعاني من الجوع الممض والعطش المضني؟ ومعدته تقرصه قرصات متتابعة، حاول أن يتناسى بؤسه باسترجاع ذكريات جميلة من طفولته وشبابه.

"وقبل أن يسري به الحلم ليغرق في لذات الزمن المفقود، زعزعته رجةً كأن كابوساً انتزعه من رؤيا اليقظة؛ ليفسد عليه لا رحلته في اللاوعي فحسب، بل خلوته أيضاً؛ فقد تسللت إليه مخاوف غامرة وهاجمته كوسواسٍ لئيم فتبلبلت نفسه وانقطع فجأة حبل تحمله، فأطلق أنيناً فاجعاً، ثم تشبث بقلبه كأنه يغالب وجعاً مباغتاً يفوق طاقته، غزا سيماه الشحوب ونز العرق من جبينه بغزارة واختلطت الرؤيا أمام عينيه، وشعر بحرارة في رأسه، ثم شعر بأن المكان يدور من حوله، ثم انكفأ على وجهه"[1]، ودخل في غيبوبة عميقه شعر قبلها بأنه يغرق في بحر لجي ليس له قرار.

كانت تلك نتيجة حتمية لانخفاض مستوى السكر في دمه وانخفاض ضغطه واختلال كبير في توازن المحتوى المائي في جسده..... كان يسير بخطى حثيثة نحو حتفه المحتوم.

---

[1] من رواية " الورم" إبراهيم الكوني.

لم يكن قد أفاق تماماً ولم يكن في غمار الغيبوبة المطلقة، ولكنه في برزخ بينهما، كان واعياً لما يدور حوله لكنه غير قادر على التفاعل أو التجاوب مع محيطه، أحسَّ بجسمه يرتفع من على فراشه، لا يعلم هل هناك أيدٍ رفعته؟ أم هو يرتفع من تلقاء نفسه؟ ولكنه أضمر في نفسه أن هذا الأمر من صنع خياله.

شعر أيضًا أن هناك حركة ما تدور حوله، لم يكن هناك أي أصوات تنتج عن تلك الحركة، لكنه يشعر بتغير متواصل في كثافة الهواء من حوله فاستنتج أنها حركة من نوع ما، أراد أن يستيقظ من غفوته ويجلس كي يطرد ذلك الحلم أو يتبين ما يدور حوله، لكن جسده أبى أن يستجيب لإرادته، كان جسده متصلباً كأنه قُدَّ من سبيكة من الحديد أو الرصاص.

مرت لحظات ثم شعر برائحة لذيذة تدغدغ أنفه، لم يصدق ما تشمه أنفه وكذبها في البداية، قال في نفسه: لابد أنني قد دخلت في مرحلة متقدمة من الهلوسة السمعية والشمية، لكن الرائحة كانت تحتدم على فتحتي أنفه، كانت تلك رائحة شواء لحم ضأن طازج تشبه تلك التي يجهزها لأهله في عيد الأضحى، مرت لحظات وهو يستمتع بتلك الروائح المختلطة شواء وأشياء أخرى لا يعرف ما هي؟

ثم فجأة تطور الأمر فشعر بأشياء تدخل في فمه بلا إرادة منه فأخذ يلوكها بأسنانه ويقلبها بلسانه ويستحلب نكهتها الرائعة، كانت قطعاً

صغيرة من اللحم المشوي حتى الاستواء التام، كان الطعام لذته لا توصف ورائحته شهية لا تقاوم؛ لذا أخذ الطعام يأتي إلى فمه ولا يعلم من هو الذي يلقمه.

شبع تماماً ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بل ازداد الأمر تعقيداً فقد شعر بشرابٍ يسكب في فمه، كان في قمة اللذة هو أيضًا أخذ يجول به في فمه كأنه يتمضمض به كي يترك فرصة لحلمات التذوق في لسانه كي تستمتع به، حاول أن يكتشف ماهيته، كان شيئا بين نكهة الرمان والعنب والعسل أو ربما يكون خليطاً منها.

بالرغم من جميع ما أكل وشرب إلا أن عقله لم يستوعب ما حدث، لذا قال في نفسه: قد أكون الآن ميتاً وهذه الأمور التي تحدث لي هي ما يشعر به الميت عندما يدخل إلى الجنة، لابد أنني الآن قد انتقلت إلى الحياة البرزخية وهذا هو الاحتفال ما هو إلا احتفاء بوصولي.

تذكر حديثا سمعه من فقيه القرية الحاج محمد الفقي في إحدى خطب الجمعة، كان يحدثهم عن أن الميت المؤمن يستقبل بعد دفنه استقبالا حافلاً ويوسع له في قبره مدَّ بصره وتفتح له نافذة إلى الجنة يرى نعيمها وأنهارها وأطيارها فيقول الميت: ربِ أقم الساعة كي أعود إلى أهلي ومالي، ولكن أين منكر ونكير لماذا لم يطرحا عليه الأسئلة؟ لعلهما الآن ينتظران انتهاء مأدبته الفاخرة ويتجهزان كي يقدمان له الاختبار المعتاد

في مثل هذه الحالة، ولكن لا ضير في ذلك فليأتياه فهو مستعد تمام الاستعداد للإجابة على أسئلتهما بكل ثبات وثقة.

شعر بالطمأنينة تتسرب إلى قلبه وتتشربها أعماق روحه، وقال: إذا كان هذا هو الموت فما أجمله، لماذا كانوا يخوفوننا منه ويقولون بأن سكرات الموت تساوي ألف ضربة بالسيف؟ لماذا لم يشعر بسكرات الموت؟ هل كان الحديث عن ذلك غير دقيق ومبالغ فيه؟ أم أن هناك خطباً ما؟

ما أسهل الموت مجرد انتقال من حالة إلى أخرى أسهل من خلع المرء ثيابه، أمر رائع ها هو قد تخلى عن كل همومه ومخاوفه وتركها خلفه في الحياة الدنيا ولا ينقصه إلا الاجتماع مع عائلته الصغيرة، لكنه يشعر بالقلق عليهم كيف سيكون وقع خبر موته على أمه وزوجته؟ وكيف سيكون حالهم بعده؟ لكن الله لن يتخلى عنهم، أخذ يفكر ويتخيل ما الذي سيحدث عندما يعلمون أنه مات حتى غلبه النعاس وذهب في سبات عميق.

أخذ الصحو يقترب منه شيئاً فشيئا، كان يسمع كأن هناك خرير ماء يأتيه من بعيد محملاً بالكثير من الصدى، كان يتساءل أين هو ذلك الجدول الذي يأتي منه هذا الصوت؟ إذا كان قد مات فمن أين يأتي هذا الصوت؟ وإن كان مازال حياً فلماذا مازال تفكيره مشوشاً؟

أصغى جاهلا إن الصوت قد نفذ من حلمه إلى عالم الحقيقة، أم تسلل صوت من عالم الحقيقة إلى مملكة أحلامه البعيدة، نعم صوت خرير ماءٍ بالتأكيد، خيط رفيع من صوت خفيض لكنه ينبض في الليل الغافي.

استمر يفكر حتى اكتمل صحوه تماماً لكنه كان يخشى أن يفتح عينيه فيتفاجأ بوضع لا يتمناه، تشجع ثم فتح عينيه فوجد نفسه في تلك الغرفة، كان الضوء يغشى المكان متسللا من تلك الكوة، تساءل في نفسه: إذاً أنا لم أمت ولم أدخل الجنة كما كنت أظن، ولكن من الذي أطعمني وسقاني؟ هل كان ذلك حلماً أيضًا من ضمن أحلام حديث النفس؟

لا ليس حلماً فهو بالفعل يشعر بالشبع ولم تعد معدته تقرصه من الجوع والظمأ لقد اختفت كل أعراض الجوع والعطش وهو الآن يشعر بالحيوية والنشاط، وضع يده على جبهته وهو يقول: يا الله أي حال أنا فيها؟ أنا في أشد حالات الحيرة،

استوى جالساً على فراشه فسمع صوت خرير الماء يأتيه واضحاً قريباً كأنه داخل الغرفة، تعجب وقال: إذا هذا الصوت حقيقي ولم يكن من ضمن أحلامي، خطا خطوات في غرفته يستطلع مكان الصوت وأخذ يصيخ سمعه ويتتبع جهة الصوت حتى وصل إلى أحد أركان الغرفة، وإذ به يجد في أسفل الجدار بالقرب من أرضية الغرفة فتحة على شكل أنبوبة

واسعة قليلا بحيث يمكنه أن يدخل يده فيها حتى المرفق، والماء ينحدر فيها من الأعلى ويذهب هادراً نحو الأسفل، ازدادت دهشته، أين كانت هذه الأنبوبة؟ لم تكن موجودة من قبل.

لقد تفحص الغرفة من قبل شبراً شبرا ولم يجدها فمن أين أتت؟ أخذ غرفة بيده وشرب فوجده ماءً عذباً بارداً، التفت فوجد على يمينه في ذلك المكان زيراً من الفخار المحروق عليه غطاء خشبي موضوع عليه كوب من الفخار أيضا، فتح الزير فوجده مملوء ثلثيه، فاغترف منه بالكوب فوجده كماء الينبوع تماماً.

كان هناك أيضًا طبق بجوار الزير مغطى بقماش خفيف كشفه فوجد فيه تمراً وتيناً مجففاً وزبيباً وقطعة من جبن الماعز المدخن، ووجد أيضًا شرائح مرصوفة فوق بعضها لا يعلم ما هي، تناول واحدة وتذوقها فإذا هي لحم مجفف ومدخن، استنتج من كل تلك الأحداث أن هذا المكان سيكون سجنه لفترة غير محدودة وأن عليه أن يعتصم بالصبر ويوطن نفسه على أسوأ الاحتمالات.

على أي حال هو حتى الآن لا يعلم لماذا هو سجين ولماذا تم تجويعه حتى أشرف على الهلاك؟ ولماذا أطعموه، وبعد ذلك وفروا له ماءً جارياً وطعاماً يمكن حفظه؟

عليه ألا يتعجل في الحصول على إجابات لكل تلك الأسئلة؛ من يعلم فقد تأتيه الإجابات تباعاً أو دفعة واحدة، لا يهم الآن عليه أن ينظم شؤون إقامته، بحث في أرضية الغرفة عن حجر مدبب يصلح أن يخدش به الجدار؛ فوجد حجراً جيرياً يمكن استخدامه كطباشير، ثم توجه للجدار المقابل لسريره، حاول تذكر تاريخ اليوم الذي غادر فيه قريته وكتبه على الجدار، ثم قدر الأيام التي قد انصرمت منذ دخل ذلك السرداب فوجدها تقريبا خمسة أيام؛ فمثل كل يوم منها على شكل خط على الجدار؛ فوضع أربعة خطوط رأسية والخامس وضعه أفقيا يقطع بقية الخطوط من الوسط.

توقف قليلا يفكر وأخذ يتساءل كيف صمد لخمسة أيام بلا طعام أو شراب؟ الذي يعرفه أن الإنسان يمكنه أن يصبر على الطعام لأيام معدودة أما الماء فلا يطيق أن يصبر على فقده لأكثر من يومين، فكيف صبر لكل تلك المدة؟ هل كانوا يسقونه خفية وهو في فترات اغمائه؟ أم أن الإنسان له قدرات خارقة تظهر عند وضعه في حالة استثنائية، ربما كلا الاحتمالين قائم.

عاد إلى فراشه وجلس فيه فلمح في نهاية الفراش من جهة قدميه كومة غامضة لم يرها من قبل، اقترب منها وأخذ يفتشها فوجدها ثياباً مرتبة بعناية، كانت عبارة عن إزار ورداء من القطن الأبيض الموشى بخيوط

ذهبية متموجة، ووجد أيضًا عمامة خضراء وملابس داخلية بيضاء من القطن الفاخر، وبساطاً يصلح أن يكون سجادة للصلاة، ووجد كيساً قماشياً صغيرا فتحه فوجد فيه قطعة من الصابون شم رائحتها فميز فيها رائحة زيت الزيتون، ومرآة صغيرة ومشط ودهان للشعر وموس حاد، ضحك وقال: هكذا إذاً، نوى الاغتسال ثم يقوم بتغيير ثيابه.

كان يشعر بالانتعاش والنشاط بعد أن اغتسل ولبس ثيابه الجديدة، جلس مستنداً للجدار، أغلق عينيه، ذكريات متناثرة ترددت في فكره تذوي لفترة ثم تعاود الظهور، كل شيء عاد إلى ذاكرته من خلال عملية هادئة صامتة، كأنه عرض سينمائي صامت، ارتعشت شفتاه، الذكريات التي كاد ينساها من حياة يعرفها منذ سنوات عديدة راحت تحوم أمام ناظريه وتصبح ضباباً، ثم تتلاشى تماماً.

موجة من الحزن انتابتهُ بقوة لا تقاوم، عاد إليه الشعور بالوحدة والوحشة، لجة من الحزن لا يُسبر غورها بدت وكأنها تغمر نفسه، شعر كأنه ذبابة عالقة في شبكة عنكبوت، لكنه وقبل أن يغرق تماما في تلك اللجة أفاق فجأة من شروده وأفكاره السوداء، صمم على المقاومة، لن يعاود السير في تلك الدروب الموحشة من أعماق مخيلته لأنها حتماً ستؤدي به إلى الجنون، قرر أن يستدعي أجمل ذكرياته، الذكريات

الجميلة التي مرت بنا في حياتنا تقوم بدور رائع حينما نستدعيها في أقصى حالات بؤسنا وحينما تحاصرنا الآلام ويفتك بنا اليأس والقنوط.

لذا اتخذ القرار بأن يقاوم ويتحدى الجدران ويحطم حدود الأسر، من هذه اللحظة لن يعيش في أسر هذه الغرفة الموحشة، بل سيسافر بعيداً إلى زمن جميل وأماكن تغتسل بالنور وتكتحل بالنسيم، قد لا يستطيع جسده الانتقال لكن روحه هي من سيطير كعصفور نجا من إساره، الروح الحرة يستحيل أن تسجن في قفص ضيق، لذا آن الأوان أن يطلق العنان لروحه كي تتجول وتنطلق حرة طليقة في دنيا الله.

هو يعرف تماما أن هذا الأمر ليس بالسهولة كما يعتقد البعض، بل هو يحتاج للكثير من التدريب والممارسة والمغالبة، لذا استرخى تماما وأخذ نفساً عميقاً ثم أخذ ينظم تنفسه، ثم أغمض عينيه وشعر بالسكينة والسلام تغمر روحه، شحذ خياله وامتشق فطنته وامتطى صهوة آماله وأمنياته ثم أطلق روحه كي تسافر عبر الزمان والمكان.

عاد من نفس الطريق التي دخل منها سار في ذلك السرداب المظلم الضيق، شعر بالبرودة تسري في جسده، وصل للباب الذي انغلق عليه واختفى موقعه لكنه لم يشكل له أي عائق بل اخترقه وخرج منه إلى حيد السامعي، كان الوقت حينئذٍ قبل الظهر، شعر بضوء الشمس يخترق

جمجمته ويصل إلى أعماق نفسه، أحسَّ لوهلة أن تفكيره بدأ بالشرود ومحاولة العودة إلى أرض الواقع ولكنه شد لجامه وواصل كبح جماحه.

سار على الدروب المقفرة الخالية من السابلة في هذا الوقت من النهار، كانت الشمس تصب جام غضبها على الآكام والشجر والشعاب وبطون الأودية، وكانت الطيور تغرد وتقفز من غصن لآخر وتنتقل من شجرة لأخرى، واصل مسيرته كانت وجهته الأولى هي بيته، شوقه برح به لأمه وزوجته وأطفاله، وصل إليه بسرعه لأن العوائق الطبيعية لا تحفل بها الأرواح.

كانت ابنته الصغيرة ميسون ذات الخمس سنوات تلعب أمام باب بيته مع صويحباتها، اقترب منها وأخذ يتملأ بمنظرها، كانت تلعب مع الصغيرات لعبة نط الحبل ثم لعبة الحجلة فلعب هو معهن، ثم فجأة خرج ابنه البكر شوقي يجري من باب البيت حافي القدمين ففتح ذراعيه ليحتضنه، أراد أن يحتوي جسده الغض الصغير لكنه اخترق طيفه ومضى باتجاه بيت الجيران.

دخل بيته فوجد أمه جالسة في غرفة الديوان تصفي حبات الدجر[1] من الشوائب والحجارة الصغيرة ثم تتوقف وتبدو ساهمة واجمة كأنها تدخل في

---

[1] الدجر هو اللوبياء

الشرود وتنفصل عما حولها فعلم أنها تفكر فيه، أراد أن يقول لها: ها أنا ذا يا أمي بجوارك ولكن أنى له ذلك؟

رأى دمعة تند من عينيها ثم تتدحرج على خديها الذابلين فشعر كأنهما جمرتان تدحرجتا على خده هو، أخذت طرف مقرمتها ومسحت دموعها وتنهدت وقالت: يا رب استودعك ابني فلا يصاب بمكروه وأنت رجائي، ثم عادت مرة أخرى للصحن الذي في حجرها تواصل عملها، كاد هذا الموقف أن يفقده توازن روحه ولكنه تصبر.

أخذ يتجول في البيت يبحث عن صفية زوجته فوجدها في غرفة النوم وقد أغلقت النوافذ وأشعلت الفانوس وأدخنة بخور المستكة تكاد تخنق روحه، كان أمامها طشت غسيل وسطل صغير به ماء دافئ، كانت مستغرقة في ترويش[1] الرضيعة تصب عليها الماء بيد واليد الأخرى تمسك بها صدر الصغيرة الواقفة على قدميها الصغيرتين وهي تتشبث بالحلي التي في ذراع أمها كأنها خائفة من أن تفلتها فتسقط.

أخذ يشاهد هذا المنظر وبعدما أكملت لفتها في منشفتها وأخذت تنشف جسدها ثم وضعتها على السرير وأخذت تمرخ[2] لها جسدها

---

[1] تحميم أو تغسيل الجسم يسمى باللهجة الدارجة ترويش.

[2] التمريخ هو تدليك الجسم بزيت السمسم.

بالسليط الحالي[1] وهي تكركر وتناغي أمها، كم شاهد هذا المنظر من قبل عشرات المرات حينما كانت زوجته تغسل أطفاله وتمشط شعورهم، ولكن هذا المشهد لم يحرك فيه أي مشاعر أو عاطفة، لم يكن حنان الأم يجتذبه لأنه كان يشاهده بعيون جسده أما الآن فهو يشاهده بعيون روحه وشتان بين الأمرين.

ظل يتابع زوجته وهي ترضع طفلته ثم تضمها لصدرها وتطبطب على ظهرها بحنان حتى نامت، ثم وضعتها بلطف في الهندول[2] وغطتها بغلالةٍ رقيقة كيلا يؤذيها الذباب والبعوض، وأخذت تتأملها للحظات ثم أخذت تنشج ودموعها تتقاطر بصمت، قال لنفسه يا لهف نفسي من حنان الأمهات، يا لصبرهن وقوة تحملهن.

قطع صوت أذان الظهر حبل تأمله فخرج من بيته متوجها إلى المسجد وتوضأ ودخل المسجد، كان الناس يتواردون تباعا للصلاة وهو يصافح أرواحهم ويحتضنهم فرداً فردا كان أول من صافح المؤذن محمد أحمد ثم الحاج ناصر مرشد ثم سيف الفقي وسلطان القاضي وسيف غانم وعبد الله طاهر، عانقهم جميعا، كان يتمنى لو يستطيع أن يحدثهم ويقول لهم أنه يحبهم ويشتاق إليهم، وأنه حزين جدا لفراقهم.

---

[1] زيت السمسم.

[2] الهندول هو المهد الهزاز يستخدم للأطفال الرضع.

كان يريد أن يعتذر عما سببه لهم من ألم وأنه غير نادم أبدا على ما فعل، لكنه كان يعرف أن ذلك مستحيلٌ فاكتفى بعناق روحه لأرواحهم، ثم غادر بعد أن صلى معهم، وأخذ يتجول في أزقة القرية والحقول والبساتين المحيطة ويراقب حيواناتها، دجاجاً وأغناماً وأبقاراً وثيراناً وحميراً، كان يشتاق لكل دكة وكل منحنى وكل شيء في قريته حتى رائحة فضلات الحيوانات التي تفعم أنفه وأصواتها التي تملأ أذنه كانت تطربه، أحس أنه فارق قريته منذ زمن بعيد ربما سنوات عديدة بينما في الواقع لم تنقضِ سوى عدة أيام.

عاد إلى الواقع حبيساً بين أربعة جدران صماء خرساء يلفها الصمت المقيت وتحيط بها الصور الباهتة بلا ألوان ما عدا الأبيض والأسود، لكن لا بأس لقد كانت محاولة جيدة تلك ركوب متن الخيال عاد بعدها بروح معنوية جيدة.

لكن كيف للإنسان أن يعيش في عالم خالٍ من البشر، هذا أمر يفوق الاحتمال، قد يؤدي للجنون، لذا كان أقسى عقوبة قد يتعرض لها إنسان هو أن يحتجز في سجن إنفرادي، لا يراه أحد ولا يرى فيه أحداً، فيبدأ السجين يحدث نفسه ثم يحدث الجدران من حوله ثم تبدأ الهلوسة السمعية والبصرية ثم في نهاية الأمر الجنون الحتمي، وإذا كان من الصعب أن نحيا في عالم البشر هذا، فلابد من وجود عالم أفضل يمكننا

العيش فيه بأمان، غير أن الحياة في عالم خالٍ من البشر يعد أمراً مستحيلاً.

ولما كان العيش في عالم البشر الذي لا نستطيع مغادرته أمراً شاقاً؛ فإن علينا أن نجعله مريحاً قدر الإمكان كي نقوى على احتمال حياتنا العابرة فيه ولو لفترة وجيزة من الزمن، وهذا ينطبق أيضًا على حال الشخص السجين في عالم يخلو من البشر، يحدث ذلك من خلال العيش في شرنقة الخيال، مثل أن يتخيل أنه في عالم مثالي، بستان يحوي كل أساليب الراحة استثنائي الجمال، فيه من كل أنواع الزهور وتسري الجداول من خلاله وتشدو العنادل والشحارير على أفنانه، هذا يخفف نسبياً من وحشته ويؤنس وحدته، وهذا ما حاول سعيد المطنن أن يطبقه.

مرَّ عليه أسبوع وهو يمارس تمارينه العقلية؛ فيغرق في أحضان أحلامه الوردية، محاولاً صنع عالمٍ خاصٍ به لا يشاركه فيه أحد، عالم يختفي فيه بؤسه وتتلاشى الظلمات والجدران الكئيبة من حوله.

في اليوم الثامن بينما هو مستغرقٌ في نوم عميق انتزعته فجأة من أعماق نومه أصوات مخيفة، أصوات عالية، صرخات تكاد تصم أذنيه، جلس بسرعة على فراشه يصيخ سمعه ويحاول أن يجمع أشتات روحة المبعثرة، أراد أن يعرف كنه تلك الصرخات التي يختلط فيها الألم بالخوف والعجز بالاستغاثة، ثم فجأة قفز من فراشه وأخذ يجري كالمجنون في الغرفة

ويصطدم بالجدران ويطرق عليها بكلتا يديه، فعل ذلك عندما أدرك أن تلك الأصوات الصارخة لم تكن إلا صوت أمه وزوجته وصوت لأسواط يتردد برتابة.

اكتشف أن أمه وزوجته ترزحان تحت ضربات أسواط وحشية وتعذيب همجي لا يرحم، ثم سمع أيضًا صوت أطفاله وهم يبكون في رعب ويستغيثون به وينادونه يا أبي.... يا أبي، جُنَّ جنونه وفقد صوابه، ثم صرخ صرخة تطير صواب الجن لو أنهم يسمعون.

أخذ يطرق الجدران ويضربها بيديه ويركلها بقدميه محاولاً تحطيمها، سيطرت عليه نوبة عنيفة من الهيستريا، وصرخ حتى تذوق طعم الدم، وشيئاً مثل برادة الحديد في حلقه، وصحل صوته، وأخذ يسب ويشتم صارخاً: أنتم أيها السفلة الأنذال، أيها المجرمون المنحطون، اتركوا النساء وشأنهن واجهوني إن كنتم تستطيعون، أنا أتحداكم جميعاً، يامن تستقوون على النساء الضعيفات، تعالوا هنا أمامي نتقابل وجهاً لوجه ورجلاً لرجل، هذا إن كنتم رجالاً فعلاً، وأنا أشك في رجولتكم أصلاً.

أخذ يضرب الجدران من حوله بكلتا يديه وينطحها برأسه حتى شج رأسه وسجح كفيه وذراعيه وبدأ الدم يتقاطر من جبهته، واستمر على هذا الحال برهة من الزمن، ثم فجأة هدأ تماماً، وبكل ما في الغرابة من عجب عاد إلى فراشه وجلس عليه بكل هدوء، وأخذ يضحك بينما

مازالت الصرخات والأنين تتردد في جنبات الغرفة، الناظر إليه –إن كان هناك من ينظر– يخاله قد فقد صوابه وخالط عقله الجنون.

جلس هادئاً وابتسامة سخرية ترتسم على شفتيه، لفترة من الزمن ثم هدأ كل شيء وخفتت تلك الصرخات تدريجياً حتى اختفت تماماً، تنهد سعيد وأخذ نفساً عميقاً ثم قال مخاطباً المجهول: هل تظنون أنكم ستخدعونني؟ أنا لست سهلاً كما تظنون، أنا أعرف تماماً أصوات عائلتي كلهم فرداً فرداً، أصواتهم وصورهم منقوشة هنا وأشار إلى رأسه، محفوظة في الجدران الداخلية لجمجمتي، في البداية نجحتم في خداعي واستفزازي، ولكن عندما أصخت سمعي جيداً واستعدت ذكرياتي أدركت أن تلك الأصوات مزورة وما هي إلا محض وهم وخداع.

أعترف أنكم تمتلكون قدرات خارقة وإمكانات لا نمتلكها نحن، ولكن يجب أن يكون في علمكم أنني من اليوم فصاعداً سأكون صلباً مثل هذه الجدران التي من حولي، بل أشد منها صلابة، كل ألاعيبكم سأتعامل معها على أنها عبث حمقى وألعاب مغفلين، وسأهزأ بكم وبكل أفعاكم الصبيانية وسأقابل تلك الألاعيب (بالقِمْر)[1]، أنا أعلم أنكم تحاولون جاهدين منذ أن استدرجتموني إلى هذه الزنزانة كي تحطموا إرادتي وتكسروا ثباتي، وهذا هو المستحيل بعينه.

---

[1] القِمْر: بكسر القاف وتسكين الميم، كلمة عامية تعني مزيجاً من العناد والتحدي.

أنا أخـاطبكم وأعلـم أنكـم تسـمعونني، وأدعـوكم إلى تحكـيم العقـل والمنطـق- إذا كنـتم تمتلكونهمـا-، تعـالوا هنـا واجهـوني، ونجلـس سـوياً ونتفاوض، ونفتح كل الملفات حتى القديمة منها، ثم نخرج باتفاق يرضيني ويرضـيكم، وإذا لكـم عنـدي أي حـق فـأنا مسـتعد لبذلـه لكـم بـلا أي تردد، أما الاستمرار في هذا الحال، وتلك الألاعيب السخيفة فهي لن تجـدي معي نفعاً، فكـروا جيـداً في عرضـي هـذا، وأنا أنتظـر منكم الـرد قريباً، انتهى كلامي.

وفجأة طرأت على عقله عدة أبيات شعرية؛ فقام سريعاً يكتبها على الجدار خوف أن تفلت منه وينساها في غمرة الأحداث، وبعد أن انتهى قرأها بصوت عالٍ:

روحي الطليق، وعطري العبقُ ..... ما عـاقهـا سورٌ ولا نفقُ

سيرفرفـان هنـاك في بـــلدٍ..... أطيـارهُ خضرٌ لـهـا ألـقُ

أطيـارهُ الخضـراء سـابحةٌ..... في النـور زانَ ربيعها شفقُ

وظـلالـهُ ورديـةٌ أبـداً..... يـا حـابسي إني سـأنطلـقُ[1]

---

[1] من قصيدة العطر الحبيس للشاعر السوداني صالح آدم بيلو نشرت في ديوانه " ورقات من الزيتون"

رددها بصوت جهوري عدة مرات وهو يشير بيديه متخيلاً أنه يخاطب من حبسوه، أُعجب بما خطته يده، ولكنه استغرب وتساءل منذ متى وأنا أقول الشعر؟ هذه أول مرة أكتب فيها أبياتاً شعرية، لعل المعاناة هي من فجرت قريحتي،

بالفعل فكلام سعيد صحيح تماماً فالمعاناة هي مصدر الإبداع ففي معظم النصوص الشعرية ينبثق فيها الإبداع من ألق المعاناة، ومن رحم الألم تتولد أجمل المعاني وتتشكل أروع المشاعر الأدبية.

توسد مخدته وعاد إلى النوم وابتسامة مشرقة كفجرٍ وليد ترتسم على شفتيه المزمومتين.

-13-

زيارة فوق العادة

بزغت الشمس كقبلةٍ في ثغر الصباح الباسم، فكشفت اللثام عن سُحبٍ بيضاء متراصة كعقدٍ لؤلؤي يزين جيد السماء الأزرق، الأرض يغمرها رداء مخملي أخضر، وأصوات البلابل والشحارير وأبي الحناء تنساب شجية من بين الأغصان، اندفعت حزمة من أشعة الشمس الذهبية تنسل في وداعة من بين أوراق شجرة الضراب الضخمة التي تربض في شموخ أمام باب الدار، وتنشر ظلها الوارف في المكان، كان الجو يعبق بشذى أزهار العُصَبْصِبْ[1]، مرت ساعة، ثم ضجت الطرقات وأزقة القرية بأصوات مختلطة: ضحكات وأطفال يلعبون وديكة وخراف حمير أبقار أمهات ينادين على أطفالهن، بدت تلك الأصوات كجوقة سماوية تعزف سيمفونية الصباح الباكر المفعم بالرضى والأمان.

خرج الشيخ سلطان القاضي من داره وجلس في الدكة التي أمام الدار كعادته ثم تقاطر أصدقاؤه وجلساؤه وتحلقوا من حوله تحت ظل شجرة

---

[1] العصبصب هو الاسم المحلي لشجرة الياسمين.

الضـراب الوارفـة، أخـذوا يتجـاذبون أطـراف الحـديث، ويتحـدثون في شـؤونهم اليوميـة، ثم جـيء لهـم بدُبْيَـة[1] مترعـة بالحقـين (اللـبن الرائـب) الطازج الممزوج بالثوم والضـومر[2]، وأخـذوا يصـبون منهـا في الصـحاف المعدنية ويتلذذون بشربه.

وبينما هـم كـذلك إذ جـاء سـلاّم –الخـادم الشـخصي للقاضـي– مهـرولاً حتى وقـف أمـام الشـيخ سـلطان وهـو يلهـث وأنفاسـه تتلاحـق، نظـر إليـه القاضـي وقـال لـه: خـيراً إن شـاء الله؛ لمـاذا جئـت مهـرولاً والخـوف علـى وجهـك؟ لم يجبـه ووقـف منثنيـاً في هيئـة الركـوع محـاولا أن يسـترد أنفاسـه لثواني فقط، ثم قـال: يا شـيخ هنـاك في النقيـل[3] موكـب مـا زال في أسـفل العقبة يتقـدم نحونا، بهت الشـيخ وقـال: إيش من موكـب هـذا؟ فقـال: لا أعلم، ولكنه يتألف من سيارات كثيرة فوقهـا جنـود مـدججون بالسـلاح، فغر الشـيخ فاه وكذلك فعل الحاضرون متعجبين، قال: الشـيخ هـل قلـت جنود؟ هل نحن معرضون لهجوم حربي مباغـت؟ ومـاذا فعلنـا لهـم كـي يأتـوا

---

[1] الدبية بضـم الـدال وفتح الياء هـي إناء يسـتخدم لخض اللبن وفصـل الـدهن عنـه وتحويلـه إلى لبن رائب، وهي عبارة ثمرة الدباء (اليقطين) تفرغ من محتوياتها وتنظف بحيث لا يتبقى إلا قشرتها الخارجية، ثم تترك لتجف.

[2] الضـومر أو الضـميران هـو نبـات عطـري ينمـو في سـفوح الجبـال وهـو نـوع مـن الريحـان البـري، يستخدم في إضافة نكهة مميزة للسمن واللبن الرائب.

[3] النقيل طريق وعر يشق في الجبل ويصل بين منطقة وأخرى.

إلينا بقوة عسكرية كما تصفها؟ لم يجب الرجل لأنه ببساطة لا يمتلك الإجابات.

قاموا جميعاً متجهين إلى رأس النقيل كي ينظروا لهذا الموكب العجيب، وبالفعل شاهدوا بأم أعينهم، ست سيارات تتهادى وتتقدم ببطء وتتمايل في الطريق الوعر المليء بالحفر والأخاديد، في طريق لا تمشي فيه الحمير إلا بصعوبة وقد زادته السيول في الموسم السابق خراباً إلى خرابه، كان الموكب مكوناً من أربع سيارات لاندروفر بيضاء من النوع صالون (سقفها مغلق)، وسيارتين جيب مكشوفة من نوع ويلز أحدها تحمل رشاشاً مضاداً للطيران عيار 12.7 ملم والأخرى يجلس فيها عدد من الجنود المدججين بالأسلحة.

ازداد الشيخ دهشةً إلى دهشته، وقال مخاطباً من حوله من تتوقعون هؤلاء؟ وماذا يريدون منا؟ لم يحر أحد جواباً وبقوا يشاهدون المنظر الدرامي المتقدم بكل عنفوانه وهيبته، غمغم الشيخ كأنه يخاطب نفسه: لا تسل عن سوق وأنت ستصل إليه، عسى القادم يحمل الخير والسلام، رفع الشيخ صوته مطمئناً من حوله: ننتظر ستتضح الأمور بعد قليل، ولا أعتقد أنهم يضمرون لنا الشر، فنحن لم نفعل شيئاً يستحق قدوم كل تلك القوات المدججة بالأسلحة.

استغرق وصول ذلك الموكب المريب وقتا طويلاً نسبياً بسبب وعورة الطريق وميلها الشديد، ولكن عندما وصلت أول سيارة توجهت إلى مكان الشيخ سلطان وتوقفت قريباً منه مثيرة موجة من الغبار والدخان، ترجل منها شخص يتقدم نحو الشيخ مبتسماً ذا وجه بشوش وألقى عليه التحية وصافحه ثم تعانقا، حينئذٍ انقشعت غيوم الشك والهم والريبة من على كاهل الشيخ، وتبدل حاله من الخوف إلى السعادة، وأيقن أن هؤلاء ما هم إلا ضيوفه، كان ذلك الشخص هو عامل قضاء الحجرية الشيخ قاسماً السلامي الذي استضافهم قبل فترة في مدينة التربة.

انتظروا للحظات حتى وصلت بقية السيارات، كان هناك سيارة لاندروفر توقفت قريبا منهم ترجل من الباب الذي خلف السائق رجل عسكري عملاق يحمل سلاحاً رشاشاً شكله غريب لم يرَ أحد من الحاضرين شبيها له إلا البندقية الهجومية الأمريكية **M16** كان يحمل أيضًا جهاز اتصال لاسلكي له أريل يبلغ طوله حوالي المتر ربما كان من القوات التي أنشأت حديثا والتي تسمى قوات العمالقة، توجه ذلك العسكري للباب الأمامي الذي بجوار السائق وفتحه بخفة ووقف باحترافية كما يفعل حراس الشخصيات الهامة، فترجل رجل له بسطة في الجسم تعلو محياه سيماء المهابة والجلال ويلبس ملابس فخمة ويعتمر عمامة سلاطينية في غاية الجمال، توجه ذلك الرجل إلى كان يقف القاضي و الشيخ قاسم السلامي، صافح الشيخ قاسم ثم صافح

القاضي وبادر الشيخ قاسم بتعريف الرجلين لبعضهما قائلا: هذا القاضي سلطان شيخ البلاد وهذا العقيد عبدالملك اليوسفي محافظ المحافظة، صافح القاضي يد المحافظ بوجل ورهبة ولكن المحافظ لم يكتفِ بالمصافحة بل اجتذبه وعانقه بحميمة ظاهرة، هذا ما جعل القاضي سلطان يشعر بالارتياح.

رحب القاضي بضيوفه ترحيباً حاراً، واعتذر عن التقصير وقال للمحافظ كنت أتمنى أن ترسلوا رسولاً يخبرنا بقدومكم كي نقوم بترميم الطريق وإصلاحه ونستقبلكم استقبالاً يليق بمقامكم، فرد عليه المحافظ هذا ما لم نرغب به، نريد أن تكون زيارتنا عادية لا مبالغة فيها ولا تكلف، نريد أن نطلع على أحوالكم كما هي بدون تحسينات، ثم ضحك فضاقت عيونه وافتر ثغره عن أسنان بيضاء مرصوصة لا عيب فيها، واصل حديثه: ثم إنه من عادتي أن آخذ الأمور ببساطة ولا أهتم بالشكليات والمراسيم الباذخة، رد عليه القاضي سلطان: أهلاً وسهلاً بكم جميعاً وعلى الرحب والسعة، زيارتكم تعني لنا الكثير وتجشمكم الصعاب للوصول إلينا شرف كبير لنا لم نكن نحلم به، رد عليه المحافظ: شكرا لك لم نقم إلا بجزء مما يمليه علينا الواجب نحوكم.

بعد أن انتهت مراسيم الاستقبال وعبارات الترحيب طلب منهم القاضي أن يتوجهوا إلى بيته للجلوس في ديوانه واستقبال الأهالي الذين يريدون

أن يتعرفوا على المحافظ وعامل القضاء ويسلموا عليهم، لكن المحافظ اعتذر بلباقة عن ذلك وجلس على البساط الذي تحت شجرة الضراب حيث كان القاضي جالساً ومرافقوه قبل أن يأتي موكب المحافظ، وقال لا بأس سندخل بيتكم العامرة ونجلس في الديوان نتحدث لكن قبل ذلك لدينا عمل نقوم به لا بد إنجازه، قال القاضي مندهشاً: وما ذلك العمل الذي يستحق كل تلك العجلة والاهتمام سيادة المحافظ، ما زلت متعباً من أثر السفر وتحتاج للراحة، ثم إن هناك وقتاً كافياً للقيام بأي عمل ونحن هنا كلنا طوع أمرك وسنقوم بتنفيذ أي عمل تريده، أنت ارتح فقط.

رد عليه المحافظ: شكرا لكم يا قاضي سلطان لكن هذا العمل لا يقبل التفويض ولا التأخير، وكما يقول المثل خير البر عاجله، لذا نريد منكم تجهيز ثلاثة حمير قوية كي يتم تحميل ما هو موجود في السيارة الواقفة هناك عليها، وفي أثناء ذلك سنجلس هنا تحت ظل هذه الشجرة مستمتعين بالجو الرائع وهذه النسمات العليلة ونريد قربة من الماء البارد، قال القاضي و شيئاً من الحقين البارد أيضًا المتبل بالضومر، قال المحافظ: يا سلام هذا ما نريده بالضبط، أمر القاضي مرافقيه أن يحضروا أقوى ثلاثة حمير ويحملوا عليها ما هو موجود على تلك السيارة مع أنه لا يعرف أصلاً ما هو موجود على السيارة، ثم جلس مع ضيوفه في ظل

شجرة الضراب الوارف تحفهم تغريد الطيور وهديل الحمام البري(العيل) وتقبل وجوههم نسمات الصباح العليلة.

بادر الشيخ السلامي قائلا: يا شيخ سلطان السيد المحافظ وصل أمس إلى مركز القضاء في مثل هذا الوقت تقريبا بعد رحلة مضنية من مدينة تعز مركز المحافظة، وبعد أن استراح من عناء السفر والسؤال عن أحوال الرعية، قال لي: أصارحك القول بأنني جئت لزيارتكم لسببين، السبب الأول والرئيس هو الاطمئنان على أحوال الناس في بلادكم قضاء الحجرية، وقد كان ذلك ضمن خطتي السنوية، والسبب الثاني هو التأكد من أخبار وصلتني وسببت لي القلق، وهذه الأخبار التي وصلت للمحافظ لها علاقة ببلادكم يا شيخ سلطان.

طافت الهواجس في بال القاضي وتناوشته الظنون، فقال لنفسه يا لطيف الطف بنا ماهي تلك الأخبار التي جعلت المحافظ بجلالة قدره يقطع كل تلك المسافات ويتحمل الصعاب كي يتأكد منها؟ هل قام الوشاة والنمامون بإيغار صدره علينا؟ شعر بالقلق وابتلع ريقه، ثم تماسك وقال: خيراً إن شاء الله، اللهم اجعله خيراً، تفضلوا بالسؤال وأنا ألتزم بتوضيح أي لبس أو غموض في تلك الأخبار التي وصلتكم، سكت المحافظ قليلا ثم قال: ليس هذا وقت الكلام هذا وقت العمل لنؤجل الحديث لوقت آخر، ثم وقف وقال لنذهب أولا إلى بيت الصياد المخطوف.

فغر القاضي سلطان فمه في دهشة وقال: لماذا؟ ما الذي حدث؟ وكيف عرفت بما حدث له؟ ثم التفت للشيخ السلامي قائلا: هل هناك أي جديد في قضيته لم أعلم بها؟ هل توصلتم لشيء؟ قال المحافظ لا جديد كلما في الأمر أنني أريد أن أجلس معك وأعرف ما حدث بالتفصيل بالرغم من أنني سمعت من الشيخ السلامي، إلا أنني أحب أن أسمع القضية من مصدرها.

هيا بنا لنذهب وبدأ بالتحرك فقال القاضي سلطان: على رسلكم سيادة المحافظ الطريق إلى القرية وعر وشاق ولا تسير فيه إلا البغال والحمير، فقال المحافظ: هل هي بعيدة وكم نستغرق من الوقت للوصول إليها سيرا على الأقدام؟ قال القاضي ليست بعيدة كثيرا حوالي نصف ساعة، قال المحافظ لا بأس، لنمشِ فأنا أحب المشي بين الحقول في هذا الجو الرائع فالوقت مازال باكراً والشمس ليست حامية، لكن اجعل الحمير التي تحمل المؤونة تسير قبلنا، ثم التفت لمرافقيه وقال: أنتم ابقوا هنا سنذهب ثلاثتنا فقط لا داعي أن نخيف الناس بموكبنا.

تحركت الحمير الثلاثة وهي تنوء بحملها وسار بعدها بمسافة المسؤولين الثلاثة تجنباً للغبار التي تثيره تلك الحمير، وصلت الحمير أولاً وتوقفت أمام بيت الصياد سعيد، سمعت الحاجة رشيدة الجلبة أمام باب البيت فأطلت من النافذة وكم هالها منظر الحمير الثلاثة المحملة والمرابطة أمام

البيت، فتحت الباب وأخذت تمعن النظر لتلك الحمير لعلها تفهم ما يجري، ثم سألت الحمارة الذين يقودون تلك الحمير عن المسألة لكنهم لم يجيبوا بأي شيء وظلوا منتظرين.

وبعد دقائق قليلة شاهدت القاضي سلطاناً يسير متجهاً نحو بيتها ويرافقه اثنان من الرجال يبدوا عليهم الأبهة والفخامة، اعتصر الخوف قلبها وخشيت أن يكون قدومهم نذير سوء، قد يكونون يحملون خبراً سيئاً عن ابنها، وإلا فما الذي أتى بهم، وظلت تردد يا لطيف الطف بنا حتى وصلوا وهي متلفعة بخمارها أمام الباب كان لقلبها وجيب تكاد تسمع دقاته المتسارعة.

ألقوا عليها التحية فردت عليهم بأحسن منها ثم قالت خيراً إن شاء الله ما الذي حصل؟ قال القاضي خير يا حاجة رشيدة وقال: هذا العقيد عبد الملك اليوسفي محافظ المحافظة وهذا الشيخ صالح السلامي عامل قضاء الحجرية، شعرت بجفاف فمها فابتلعت ريقها بصعوبة، ثم استردت رباطة جأشها فلم تربط لسانها الدهشة والفزع بل انطلق بأبلغ عبارات الترحيب والثناء على زيارتهم، ثم قالت: اعذروني فلو كان ابني موجودا لدعاكم للدخول إلى ديوانه ولتشرفت دارنا المتواضعة بوجودكم بين جدرانها، ولكن ذلك لن يجعلنا عاجزين عن الترحيب بكم والقيام بواجب ضيافتكم فأهلا وسهلا ومرحبا بكم، ثم انسلت مباغتة لهم إلى

داخل الدار بينما بقوا هم حائرين أمام الباب لا يعلمون كيف يتصرفون.

ما هي إلا لحظات حتى جاءتهم المباغتة الثانية، ففي لمح البصر كان هناك كبشٌ أبيضٌ كثلج سميناً كعجل ملقى أمامهم وسكين الحاجة رشيدة تمر برشاقة على حلقومه والدم يشخب من أوداجه وهم ينظرون، ولم تترك لهم الفرصة كي يستعيدوا أنفاسهم حتى كان الكبش الثاني مطروحا على جنبه جهة القبلة والحاجة تذكر اسم الله مستعدة لذبحه، ولكن هذه المرة كان المحافظ هو الأسرع بحكم تربيته العسكرية ولياقته البدنية العالية استطاع أن ينقذ الكبش من بين براثن الحاجة رشيدة وهو يقول: سلمت سلمت يا بنت الأكارم فقد كفيت ووفيت ووصلت ضيافتك بأحسن ما يكون وعلى الرأس والعين، والله لقد أخجلتنا بكرمك وسرعة ضيافتك، فقالت: إن قدركم أكبر من أذبح لكم كبشاً واحداً، والله لو ذبحت لكم كل ما في العريش من مواشي لما وفيت لكم بحق ضيافتكم، ولكن لا بأس عندما يعود ابني من غيبته سيقوم بالواجب الذي عجزنا عنه.

فقال المحافظ : يعود بالسلامة إن شاء الله، أما أنتم فوالله ما عجزتم وإنما كفيتم ووفيتم بارك الله فيكم وأخلف عليكم بخير، التفت القاضي إلى بعض رجال القرية ممن حوله وأمرهم أن يأخذوا الكبش إلى بيته كي يضمه إلى ضيافته لضيوف القرية، استدرك المحافظ قائلاً: يا بنت

الأكارم أتينا كي نقوم بواجبنا ونقدم لكم الدعم المعنوي والمادي اللازم؛ فقد سمعنا باختفاء ابننا الصياد سعيد عبدالواسع، كما علمنا بتفاصيل القضية ولذا فقد حضرنا إلى بلادكم كي نستمع من شيخ بلادكم القاضي سلطان بتفاصيل القضية، ثم أشار للحمير الواقفة خلفة وقال: هذه مؤونة نقدمها لكم كواجب علينا.

قاطعته الحاجة رشيدة: شكر الله سعيكم وبارك فيكم حضرة المحافظ يا ولي أمرنا، ولكننا نعتذر عن قبولها فنحن ولله الحمد لسنا بحاجة؛ فقد كفانا الله وآتانا من فضله وفضله واسع سبحانه، وأنا أعتبرها مقبولة، ولكن هناك من هو في حاجة لها، أما نحن ففي نعمة من الله وفضل، قال المحافظ هذا ليس فضلا مني ولا هي صدقة أو حتى هدية وإنما هو واجب الدولة نحو ابن من أبنائها البررة قدم لها ولأهل بلاده الكثير من الخدمات والتضحيات، أؤكد أنها ليست مني شخصياً وإنما من الدولة.

قالت أم الصياد: وأنا أكرر خالص شكري لكم كما أكرر اعتذاري عن قبولها، عندئذ رد عليها المحافظ في حدةٍ وحزم: إذا لتعلمي يا حاجة رشيدة أنك إذا أصررت على عدم قبولك فإننا سنضطر آسفين إلى الجلوس أمام بيتك حتى تقبلي بعرض الدولة، وليقل الناس أن أم الصياد سعيد تركت المحافظ وعامل القضاء وشيخ البلاد أمام باب بيتها رافضة منحة الدولة ولم تقدري جاههم ووصولهم إلى باب بيتك.

عندئذٍ أسقط في يد الحاجة رشيدة وعلمت أنه ليس لديها خيار آخر، فقالت: والله إن جاهكم لدي عظيم ووصولكم إلى باب بيت ابني قدره كبير عندنا، ولكن لا أريد أن يقول ابني عندما يعود أننا مدينا أيدينا لأحد، قال المحافظ: ومن قال إنكم مديتم يدكم لأحد حاشا لله، هذه منحة من الدولة مقابل خدمات ابنكم لبلده وليس لأحد عليكم منة ولا فضل، قالت سأقبلها ولكن بشرط أن يكون لي مطلق التصرف بها، قال المحافظ لك هذا يمكنك أن تتصرفي بها كما تشائين لكن بعدما تدخل هذه المواد إلى بيتكم وننصرف نحن لحال سبيلنا، قالت: تمام اتفقنا.

دخلت رشيدة وهيئت الموضع المناسب لكل تلك الأشياء التي احتلت مساحة غرفة كاملة من غرف البيت الواسعة بعدما قام متطوعون من أهل القرية بمد يد العون في نقلها، شكرت الحاجة رشيدة الرجال وقالت لهم انتظروا أريد منكم خدمة أخرى.

ودع المحافظ ومرافقيه الحاجة رشيدة وصافحوا رجال القرية المتواجدين ثم انصرف هو ومن معه متجهين إلى بيت القاضي، وبعد أن غابوا عن العيون أمرت الحاجة رشيدة رجال القرية بالدخول مرة أخرى للبيت ووزعت كل تلك المواد على جميع بيوت القرية لم تترك بيتاً قريباً أو بعيداً إلا كان له نصيب ولم تترك لنفسها شيئا منها، فأخذ الرجال يدعون لها بالبركة وأن يعيد غائبها سالما غانما إلى أهله ومحبيه.

وبعد ذلك بأيام علم القاضي بما فعلت فأثنى عليها وقال لمن حوله لا عجب في ذلك فهذه الأسرة تتوارث العزة والكرم كابراً عن كابر، فقد كان الحاج عبد الواسع المطنن ومن قبله أبوه ردمان مضرب المثل في الكرم وطيبة النفس، رحمة الله عليهم جميعا، ذرية بعضها من بعض.

كانت مأدبة كبيرة ومليئة بكل الأطايب على شرف ضيوف البلاد ذبحت فيها الكثير من الخراف والعجول، وتوزع المرافقون والجنود على جميع بيوت قرية شيخ البلاد سلطان القاضي، وتكفل القاضي وأثرياء القرية بتوفير القات، وحضر تلك المأدبة بعض الضيوف من القرى المجاورة وجميع الفقراء والمهمشين من تلك القرى.

كان يوما مشهوداً لم يحدث مثله ولن يتكرر، أكل فيها الناس جميعاً حتى شبعوا، وبعد أن تناول الجميع طعام الغداء اجتمع كبار الضيوف ووجهاء القرية في ديوان القاضي وغص بهم ذلك الديوان، وبعد أن صلى الضيوف صلاة الظهر والعصر جمع تقديم كونهم مسافرين بدأ الجميع في مضغ وريقات القات وبدأت المداعات[1] تقرقر وتلبدت سماء الغرفة بغيوم دخان التبغ المحترق، وقدم البعض للمحافظ أوراقاً فيها شكاواهم وحاجاتهم فوجه المحافظ بحل تلك المشكلات التي يمكن حلها، وتم أيضًا مناقشة مشروع المياه المتعثر فوجه المحافظ بإكمال المبلغ

---

[1] جمع مداعة وهي النرجيلة.

المتبقي لإكمال المشروع من صندوق المحافظة ووجه المهندسين بسرعة إكمال المشروع والتواصل المباشر معه إذا واجهتهم أي مشكلات فنية، وبالفعل فبعد تلك الزيارة بستةِ أشهرٍ فقط كانت عزلة الرجاعية تنعم بالمياه العذبة التي تصل لكل بيت.

بعد أن هدأت تلك المناقشات وقضي لأصحاب الحاجات حاجاتهم، قال الشيخ السلامي للقاضي سلطان: حضرة المحافظ يريد أن يسمع منك حكاية الصياد سعيد المطنن خاصة أنها وصلت إليه وقد أضيف إليها كثير من المبالغات والتهويل والخرافات حتى قيل أنه كان يحارب الجان والمردة وأنه كان بينه وبينهم رهان وتحدٍ وعندما تغلب عليهم في ذلك الرهان اختطفوه أو قتلوه.

قال المحافظ: بالفعل هذا الكلام هو ما وصل إلي، ما سمعته عنه يندرج تحت قائمة الأساطير لذا نطلب منكم يا قاضي أن تزيل ذلك اللبس وتفصل بين الحقيقة والخيال في هذه القضية المثيرة التي شغلت بالنا حتى أننا سمعنا أن هناك شخصاً اختفى بنفس هذه الطريقة منذ أربع سنوات ولم يعثر له على أثر من عزلة دبع الخارج، قال القاضي: نعم نحن أيضًا سمعنا عن ذلك الشخص، سكت قليلا ثم قال: حبا وكرامة حضرة المحافظ فقد كنت طرفاً في هذه القضية ومازالت في قلبي جرحاً لا يبرأ وما زلت أحمل نفسي مسؤولية وتبعات ما حدث، لكن تلك هي طبيعة

الأمور، في بعض الأحيان تكون الجروح عميقة جدا فلا تندمل بسهولة، قال المحافظ :لا بأس يا قاضي إذ لا مفر من الألم أما المعاناة فهي أمر اختياري، تهدج صوت القاضي ولكنه تمالك نفسه وهو يقول: نعم صدقت، سوف أحكي لكم القصة بكل حذافيرها حتى نهايتها الأليمة.

-14-

سراديب التيه

كرت الأيام والأسابيع يكاد يدوس بعضها فوق بعض، كأن الزمان حجاب كثيف ويزداد سمكاً بكل نهار، كل يوم يمضي عليه وهو قابع في قفصه المغلق كأنه صخرة تلقى على صدره المفعم بالألم والشوق للانعتاق من هذه الحفرة، تلاشت الابتسامة عن فمه، وانحسرت الفرحة من شغاف قلبه وانزوت في أطراف صدره، وكأن الأيام التي مضت علمته أن السعادة لا تدوم، وأن الفرحة دائماً تأتي بخيلة، سهلة الكسر والانزواء.

كان سعيد يدون تلك الأيام على جدار زنزانته المعتمة بالرغم من أنها متشابهة، كل يوم مثل الذي سبقه، وكل أسبوع يشبه الذي مضى، إلا أن ذلك لم يؤثر في عزيمته، التزم الصمت إلا من أذكار وصلوات وأدعية وابتهالات وقراءة قرآن، كان لديه يقين أنه كلما مضى يوم اقتربت ساعة الفرج، اعتصم بالصبر ولاذ بلطف الله ورحمته، وعلم كيف يكون شعور المظلوم عندما تسلب منه حريته ويفارق أحبته بدون وجه حق.

على الرغم من أن أحوال اعتقاله تحسنت بعض الشيء، إلا أن هذا لم يعنِ له الكثير؛ فقد أشرقت لياليه عندما منح فانوساً يعمل بالزيت وحجري صوان يقدحان شررا كي يشعل ذلك الفانوس، كما منح كل أسبوع قارورة من زيت الفانوس.

إلا أن هناك حدثا غير الكثير من حاله وشرح صدره وزاد من متعة أوقاته، فقد منح مصحفاً جديدا بغلاف أزرق فاتح عليه صورة الحرم المكي من جهة ومن الجهة الأخرى صورة الحرم النبوي وبطبعة مدينة كراتشي الباكستانية، كان ذلك المصحف خليله الذي يركن إليه، وزاده الذي افتقده كثيرا وكاد نور روحه يخبو لولا وجوده.

أعطاه ذلك المصحف بريقاً كاد يضمحل، ونوراً كاد ينطفئ وأملاً كاد يزول، فنهل من ذلك المنهل النمير كما ينهل الظامئ الذي أشرف على الهلاك من العطش، فكما أن عطش الجسد مهلك فكذا عطش الروح أشد، حتى الطعام تحسنت نوعيته وصار أفضل وأكثر تنوعا، وأصبح يرى من حين لآخر أنواعا يعرفها وأخرى لا يعرفها من الأطعمة والفواكه الطازجة.

ظن أنهم ربما ندموا على ما فعلوا، وهم يعتذرون له بهذه الأفعال، وأنهم ربما يهيئون ليوم إطلاق سراحه، لذا عزم على أن يستثمر وقته ويستفيد من فراغه؛ فقد مر عليه شهر كامل وهو في هذا المكان الموحش، فقرر

أن يراجع حفظه من القرآن الكريم ويواصل حفظ البقية؛ فقد كان يحفظ بشكل غير متقن ثلث القرآن عشرة أجزاء من سورة الناس وحتى سورة الروم، فجعل النهار للحفظ والليل لمراجعة ما تم حفظه سابقاً، كان لديه متسع من الوقت لذا فقد وجد في ذلك عزاء له وسلواناً ينسيه غربته ولوعة فقد أهله إلى حد ما.

جعل لكل جزء اسبوعاً كاملاً كي يتم حفظه لذلك الجزء ويراجع أيضًا جزءا مما حفظه سابقاً، خطط أنه سيحتاج إلى عشرين أسبوع كي يتم حفظه للقرآن كاملاً، كان يمتلك عزيمة وشغفا؛ لذا حقق ما يصبو إليه ففي خلال ستة أشهر أكمل حفظه لكتاب الله حفظا جيداً، وعزم في الليلة الأخيرة أن يقيم لنفسه حفلا بسيطا يعبر فيها عن فرحته بهذا الإنجاز العظيم.

أدى صلاة العشاء ثم قام ورسم على الجدار الخط الأخير في الشهر السابع لذكرى اعتقاله ثم وضع المصحف في حجرة مفتوحاً على سورة البقرة، وأغلق عينيه، وتجهز كي يبدأ في تسميع سور البقرة كاملة، وفجأة انطفأ الفانوس، بهت لفترة مستغربا ثم بحث بجواره عن حجري الصوان كي يعيد إشعال الفانوس ولكنه بدلا من ذلك سمع همهمة وشعر بحركة غريبة في الغرفة، كان الظلام دامساً فلم ير أي شيء، استمرت تلك الهمهمات والحركات لفترة وجيزة ثم توقفت.

أغمض عيونه لوهلة ثم نظر حوله وأخذ يفرك عينيه وهو لا يصدق ما يراه، لعله في حلم من تلك الأحلام التي تراوده من حين لآخر والتي تختلط فيها الحقيقة بالخيال؛ قرص ذراعه لعله يصحو من حلمه، ولكن ما يراه لا ينتمي إلى عالم الخيال والأحلام، بل هو حقيقة ماثلة أمام عينيه.

كانت الغرفة تسبح في نور أبيض باهر، كانت الجدران تشع بنورٍ عجيب، الجدران كانت مضيئة فكأنه يقبع جالساً في وسط فانوس، كما كانت هناك رائحة زكية تداعب أنفه هي مزيج من العنبر والعود والمسك والورد والكاذي، وكان في وسط الغرفة خوان عليه من كل ما لذ وطاب من أنواع اللحوم الخضروات والفواكه والحلوى، أخذ يعطس عدة مرات متتابعة، أنفه لم يعد يحتمل كل هذه الروائح الزكية التي افتقدها منذ زمن بعيد.

مرت بفكره خاطرة سريعة، لعله فهم ما يحدث الآن، فما هذه الأحداث وهذه الأطعمة إلا جزء من المؤامرة عليه، محاولة غبية لصرف انتباهه عن الهدف الذي يريد أن يحققه في هذا اليوم، مؤامرة ساذجة كي يغفل عن الحدث الاستثنائي الذي عزم عليه وهو ختم حفظه لكتاب الله، وما هذه المباهج والأنوار والأطعمة إلا وسيلة من وسائلهم السخيفة لإلهائه عن هدفه، كان لا يحسن بهم الظن فقد علمته التجارب التي مر بها منذ

دخل في هذا الإخفاء القسري أن يسيئ بهم الظن، لذا عزم أمره وتجاهل كل تلك البهرجة، لقد جعل هذه الليلة لختم القرآن الكريم ولن يستطيع أحد أن يجعلها لغير هذا الهدف.

جلس على دكته وأسند ظهره للحائط المضيء خلفه ثم بدأ بالاستعاذة ثم البسملة، فجأة وجد الغرفة كلها تردد خلفه الاستعاذة والبسملة بصوت جهوري، جفل وشعر بالفزع، ما الذي يجري هل هذا صدى صوته أم هو شيء آخر؟ تنحنح وسعل، ولكن لم يردد أحد وراءه تلك الأصوات التي أصدرها، بدأ بسورة الفاتحة ثم الآية الأولى من سورة البقرة، فرددت الجدران أو الغرفة أو الأصوات المجهولة – سمها ما شئت – بعده تلك الآيات شعر أن غرفته ممتلئة عن آخرها بمن يرددون خلفه.

سكت قليلاً ثم ردد تلك الآية فرددت الأصوات من بعده نفس الآية، قال لنفسه: لعل هذا أيضًا أسلوب من أساليبهم لتخويفه وإشغاله عن تحقيق هدفه ووضع اللبنة الأخيرة في قصره المشيد ألا وهو ختم حفظه لكتاب الله، لذا عزم على تجاهل ذلك الترديد ومواصلة قراءته فطفق يرتل: (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) فرددت الأصوات بعده تلك الآية، وهكذا استمر يرتل سورة البقرة وهم يرددون وراءه.

العجيب بالأمر أنه كلما أخطأ في آية يجد صوتا واحداً من تلك الأصوات يراجعه ويصوب خطأه؛ فاستأنس بهم بعدما كان في وحشة منهم وخوف، وأستمر في تلاوته حتى وصل لنهاية السورة، وحينما قال صدق الله العظيم، ضجت الغرفة بالتكبير والتهليل والصلاة على رسول الله، وأخذت أضواء الغرفة تخفت حينا وتسطع حيناً، ثم أخذت تلك الأضواء تغير ألوانها أصفر أبيض أحمر أزرق أخضر، ثم ما لبثت المائدة تقترب منه حتى أصبحت بمحاذاة ركبتيه وصارت تلك المأكولات والمشروبات في متناول يده، ثم شاهد لقمٌ ترتفع ثم تختفي وسمع أصوات أفواه تمضغ، فتشجع ومدَّ يده وتناول لقمة فاستساغها ثم أتبعها بأخرى وأخذ يأكل من تلك المائدة المترعة بأنواع الملذات وختم ذلك بكأس من القهوة وقطع من الحلوى.

كان الوقت متأخراً والساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما انتهى ذلك الاحتفال واختفى كل شيء كأنه لم يكن، وعادت الغرفة تغرق في الظلام.

أشعل الفانوس ورتب مكان نومه ثم توضأ وصلى الوتر واستلقى على فراشه، وأخذ يستعيد أحداث هذه الليلة العجيبة، أخذت علامات الاستفهام تتزاحم في رأسه، لماذا كل ذلك الاحتفاء والاحتفال بختمه للمصحف بينما لا يزال سجينا دون أي سبب؟ كيف يجتمع الأمران؟

وهل ما حدث هذه الليلة بشرى بإطلاق سراحه؟ هل يعتبر هذا الاحتفال بمثابة اعتذار ضمني؟

أنهكه التفكير وأتعبته الحيرة والترقب وأسلم جفنيه للنوم بعد يوم حافل بالأحداث، مر اليوم التالي عادياً ولم يحدث فيه أي حدث استثنائي، ذلك النهار كمثل أي نهار، ولكن في المساء وبعد أن أدى صلاة العشاء انتظر طعام العشاء، ولكنه تأخر، من المعتاد منذ سبعة أشهر أن يأتي طعام العشاء مع فراغه من صلاة العشاء يجده في مكان معين من الغرفة ويشم رائحته المميزة، ولكن هذه المرة تأخر.

ظل ينتظر وينتظر حتى مرت قرابة ساعة، ثم وصلت لأنفه رائحة غريبة لم يشمها منذ أصبح سجينا، أخذ الفانوس وأخذ يبحث في المكان المعتاد فوجد صحفة مملوءة بعصيد الذرة الساخن وفي وسطها فجوة مترعة بالمرق الحامض المتبل بالفلفل الأخضر، لأول مرة منذ أشهر يأكل هذه الوجبة المحببة إلى نفسه، ولكن كيف عرفوا انه يحب هذه الوجبة الشعبية؟ ليس مهما أن يعرف كيف.

مدَّ يده كي يأكل، ولكنه لاحظ شيئاً جعله يتوقف ويقرب الصحفة من عينيه ويتفحصها عن كثب، كان هناك آثار لإصبع مغموسة في العصيد بحيث توجد في كل ركن حفرة صغيرة، أربع حفر عملتها أصابع متوزعة على مسافات متساوية مملوءة بالمرق.

ذهل مما رأى لأن هذا الأسلوب لا تفعله إلا زوجته صفية، وحينما سألها ذات مرة لماذا تفعلين هذه الحفر في العصيد قالت: هذه الحفرة بإصبعي هي لك وهذه التي بجوارها لعمتي وهذه لي والرابعة للأطفال، هذا الأسلوب الذي يراه هو بصمة زوجته الخاصة عندما تعمل العصيد لأهل البيت لكنها لا تفعل ذلك عندما يكون لدينا ضيوف، لا أحد يعمل مثلها إطلاقاً وهو متأكد من ذلك، أيضًا هي لديها طريقة خاصة في تتبيل المرق الحامض عندما تضيف له الحُمَرْ(1) بنسبة معينة بحيث لا يكون حامض جداً ولا قليل الحموضة، قال في نفسه الآن سأتأكد هل هذه من صنعها أم مجرد مصادفة، شرع يأكل بتلذذ ونهم، وعندما شبع حمد الله، ثم قال في نفسه أكاد أقسم أنها من صنع زوجتي، ولكن الغريب هو كيف حدث ذلك؟ هذا الأمر يفرحه ويقلقه في آن واحد، كيف وصلوا إليها؟ وماذا قالوا لها عنه؟ هل علمت هي وأمي بما حدث لي؟ هل أخبروهما بمكاني؟ وهل هذا أيضًا رسالة لي تبشرني بقرب إطلاق سراحي؟ قال لنفسه يبدو أن الأحداث تتسارع وأن هناك فرجاً قريباً، فوضت أمري لك يا ربي، ثم أخذ يراجع بعض السور قبل أن يخلد للنوم.

---

(1) الحمر هو اسم ثمار التمر الهندي باللهجة العامية.

قام لصلاة الفجر وبعد الصلاة جلس كعادته يتلو أذكاره وادعيته ثم تناول بعضا من التمر والتين المجفف، كانت الشمس قد ارتفعت عندما قام ليصلي الضحى كعادته في مثل هذا الوقت، وبعد أن انتهى من صلاته وهو غارق في أفكاره وبدون سابق إنذار سمع أصواتاً قوية لاحتكاك صرت لها أسنانه، وشاهد الجدار الذي أمامه كأنه يتحرك والصخور تتباعد عن بعضها ويصاحب ذلك أصوات قوية كأن الجبل كله ينهار وكأن هناك زلزالاً عنيفاً يضرب المكان.

لف المكان غبار كثيف وتساقطت أحجار صغيرة وكبيرة وصل بعضها إلى جواره، استمر ذلك لعدة دقائق وهو لا يعلم ما الذي يحدث حوله، ثم هدأت تلك الأصوات وتوقفت الاهتزازات وتكشف الغبار عن باب في جدار الغرفة على شكل شَقٍ ضيق وقصير ولكنه قد يكفي لمروره، تسمر في مكانه ينظر في شكٍ وريبة إلى ذلك الباب أو الشق الذي ظهر فجأة من العدم، ظل جالساً على سجادة صلاته يتأمل ولم يحرك ساكناً.

أصبح لديه رهاب من الأبواب المغلقة التي تفتح فجأة فكيف بجدار مصمت من الصخور ينفرج فجأة عن فتحة ضيقة، صار يرتاب من الدروب المجهولة بعدما فتح ذلك الباب الرخامي المزخرف ووطئت قدماه ذلك النفق الضيق المظلم، ثم ولج إلى هذه الزنزانة الكئيبة، لم يرد

أن يجازف مرة أخرى ويمضي يكتشف ما خلف هذه الفجوة التي انفرجت عنها صخور جدران زنزانته.

قال في نفسه هناك احتمالان متساويان: إما أن يكون الحال وراء هذه الفتحة أفضل من وضعي الحالي، أو قد يكون أسوأ، في كلتا الحالتين لم يعد لدي ما أخسره، قضيت في هذا السجن الانفرادي سبعة أشهر كاملة تقريباً حافظت فيها على عقلي من الجنون، وقد استنفذوا كل ما لديهم من أساليب التعذيب النفسي، لذا لا اعتقد أنما سيأتي هو الأسوأ، لن أظل قابعا في هذه الغرفة الكئيبة لن أجلس إلى ما لانهاية في هذا المكان الموحش.

نعم أنا خائف مما سيأتي لكن الخوف ليس حقيقياً، فهو ككل ما عداه موجود في عقلي فقط، قد يخلق العقل حفرة عميقة أو جسراً آمناً، وأنا لدي أمل أنما سيأتي هو جسرٌ آمن، أخيراً اتخذ القرار بعد تفكير عميق وتردد كبير، ثم قام للتو لتنفيذه فقد جمع ما تبقى له من متاع في الغرفة قد يحتاجه في رحلته ووضعها في صرة وألقاها على كتفه، ثم حشر جسمه في تلك الفجوة الضيقة، كانت بالفعل ضيقة لكنه جاهد كي ينفذ منها حتى تكللت مساعيه بالنجاح ونفذ بجسمه بصعوبة.

رأى أمامه سرداباً طويلاً لا يرى له نهاية وقال في نفسه، مرة أخرى عدت للسراديب المجهولة، لكن هذا السرداب كان واسعاً ومضاء

بالمشاعل الموزعة بشكل مناسب، سار فيه لفترة حتى وصل إلى مفترق طرق، طريقان لا ثالث لهما، احتار أيهما يسلك هل الذي على جهة اليسار أم الذي على يمينه، قرر أن يعمل قرعة فخرجت القرعة للطريق الذي عن يمينه، فسار فيه مسافة لا بأس بها ثم وصل لمفترق طريقين أيضًا فعمل قرعة فخرجت للذي على جهة اليمين أيضًا فسار فيه مسافة ثم وصل أيضًا لمفترق طرق؛ فقرر استخدام حدسه فقط هذه المرة فقد سئم من القرعة.

سار هذه المرة لجهة اليسار ثم انعطف يمينا ثم يسارا ثم يميناً، وهكذا استمرت لعبة المتاهة حتى أصبحت الدنيا بالنسبة له متاهات وغرفاً معتمة وسراديب تفضي إلى سراديب، وكلما قال أنه سيتوقف ويكتفي من هذه المتاهة شعر بنفسه مدفوعاً لاكتشاف المزيد من تلك السراديب بقسوتها وظلمتها، حتى الزمن تلاشى واختلطت عليه الاتجاهات فلم يعد يعرف الشرق من الغرب وهل هو في ليل أو نهار شعر برأسه يدور وأحس بالندم وتأنيب الضمير، خطر على باله أنه من الأفضل لو أنه ظل في غرفته مرتاح البال، لو كان يعرف طريق العودة لعاد أدراجه، لكن لا أحد يعلم إلا الله كم منعطف سار فيه، وكم سرداب عبره؟

عزم على المتابعة وليكن ما يكون، ولم يطل به الوقت حتى وصل إلى نهاية رحلته، فقد وجد نفسه في قاعة كبيرة تعلوها قبة ضخمة تتخللها

نوافذ دائرية يدخل منها ضوء النهار الذي ينعكس على جدران القاعة المصنوعة من الرخام الأبيض الناصع البياض، فتبدو كأنها مرايا تعكس الضوء، تفقد تلك القاعة فوجد فيها منصة ترتفع حوالي ذراع وتربض فوقها طاولة فارهة على شكل نصف دائرة مصنوعة من خشب الساج(1) المزخرف بزخارف ذهبية، ويوجد حولها خمسة كراسي فارهة وكبيرة بشكل غريب تكفي لجلوس ثلاثة أشخاص دفعة واحدة وهي عالية الظهر ومغلفة بقماش من المخمل الأزرق المتموج بخطوط بيضاء تميل للون الفضي.

توجد على بعد عشر خطوات أمام تلك المنصة طاولة صغيرة بكرسي عادي وفوقها إبريق نحاسي أصفر وأمامه كأس نحاسي صغير، جلس سعيد على تلك الطاولة، كان قد أخذ منه العطش كل مأخذ فصب لنفسه كأساً، وقربه من أنفه كي يتحقق من كنهه فلم يجد له أي رائحة، وكان أيضًا لونه شفافاً فاطمأن وشرب منه حتى ارتوى، جال ببصره في أرجاء الغرفة فاستنتج من تصميمها والأثاث الموجود فيها أنه في قاعة محكمة.

---

(1) هو خشب باهض الثمن، تتراوح ألوانه ما بين بني ذهبي إلى بني كامل مع خطوط سوداء ثخينة، وهو خشب قوي ومتين يستخدم في صناعة السفن، وصناعة أنواع فاخرة من الأثاث على متن السفن والطائرات، ويتميز بقدرته على مقاومة العفن والفطريات.

إذن فهو سيتعرض لمحاكمة، فلتكن محاكمة فهولا يخشاها لأنه لم يرتكب جرماً كي يخشى تبعاته، بل هو مظلوم وهم من ظلموه، المحاكمة أفضل من الاحتجاز بدون وجه حق، جلس على تلك الطاولة الصغيرة المقابلة للمنصة، وانتظر ثم انتظر ولكن لم يأتِ أحد، ولأنه كان مرهقاً من السفر في متاهة السراديب؛ فقد أخذته سنة من النوم لم يفق منها إلا على ضجة وحركة من حوله.

فتح عينيه على مشهد عجيب كان ثمة عمالقة خمسة، وجوههم خضراء يكسوها شعر أسود غزير ناعم، وشعر رؤوسهم مكون على شكل ضفائر كثيرة وطويلة ملقاة على أكتافهم الضخمة، يلبسون ثياباً ذات تصميم غريب لم يشاهد مثلها من قبل وذات لون أبيض، كان الذي في الوسط هو الأكثر ضخامة وهيبة كأنه هو زعيمهم، وهناك اثنان عن يمنيه واثنان عن شماله.

مرت لحظات من الصمت يسودها الترقب والقلق، قطعها ذلك العملاق الأخضر، فسمى الله وحمده وأثنى عليه ثم صلى وسلم على رسوله وعلى جميع الأنبياء بشكل عام، ولكنه أفرد ذكر نبي الله سليمان عليه السلام، بث ذلك الطمأنينة في نفس سعيد كان هذا دليلاً آخر بأنهم مسلمون بعد ليلة ختم القرآن الكريم، كان يخشى أن يكون هؤلاء مختلفين عن أولئك الذين حضروا ختم القرآن.

سكت قليلا ثم واصل قائلاً: أيها الإنسي أنت الآن في حضرة المحكمة سنقوم بطرح الأسئلة عليك وأنت ستجيب، ثم سنتلو عليك لائحة الاتهام، ثم سنعطيك الحق والوقت الكافي بالدفاع عن نفسك والرد على لائحة الاتهام، ثم سنرفع الجلسة للمداولة لمدة ساعة ثم سنعود للنطق بالحكم، ولا يحق لك الاعتراض على هذه الاجراءات، أشار للذي بجواره عن اليمين وأشار له بإيماءةٍ من رأسه كأنه يأذن له بالبدء.

تحدث ذلك العملاق قائلاً: سأقوم بطرح عدة أسئلة عليك وأنت ستجيب بكلمة واحدة فقط إما نعم أو لا، وإذا خرجت عن إحدى هاتين الكلمتين سنعيد عليك نفس السؤال وستطول عليك فترة المحاكمة لذا نرجو منك التعاون، اسمك هو سعيد عبد الواسع ردمان المطنن، فقال سعيد: نعم، قال: عمرك هو اثنان وثلاثون عاما قمرياً، فقال سعيد لست متأكداً من ذلك، فأعاد عليه نفس السؤال، فقال سعيد: نعم، فقال: دينك هو الإسلام، فقال: نعم، قال: بلادك هي الرجاعية وقريتك اسمها الحجر بضم الحاء وفتح الجيم، فقال: نعم، قال أنت متزوج ولك ثلاثة أبناء ولدان وبنت واحدة، قال: نعم، قال: والدك متوفى ووالدتك على قيد الحياة، قال نعم، قال: مهنتك صياد وتمارس أحيانا تعليم القرآن للأطفال والقراءة والكتابة والحساب، قال: نعم، قال: متزوج من ابنة غانم صالح واسمها صفية، قال: نعم قال: أحسنت انتهى عملي.

تحدث زعيمهم وقال: ممثل الادعاء؛ فتكلم العملاق الذي في أقصى الطرف الأيمن وقال: سنتلو عليك الآن لائحة الاتهام وعليك الانصات جيدا، وستجد أمامك ورقة وقلماً يمكنك أن تكتب النقاط التي تريد أن ترد عليها وإذا لم تفهم أي بند من بنود اللائحة تستطيع أن تسأل وسنعيد تكرارها كي تتضح لك، وبعد أن ننتهي من لائحة الاتهام سنعطيك الوقت الذي تريده كي تدافع عن نفسك، نحن نعرف، بل ومتيقنون بأن لديك الشجاعة الأدبية والقدرة على الدفاع عن نفسك، فهل لديك أي اعتراض؟ سكت سعيد ولم يجب لأنه كان يعلم أن أي اعتراض لا طائل منه، وإنما سيطيل فترة معاناته فحسب، هز رأسه في إشارة أن لا اعتراض لديه.

بدأ ذلك العملاق في قراءة لائحة الاتهام قائلاً: يا سعيد المطنن أنت متهم بالأعمال التالية أولاً : الشروع في القتل بدون حكم قضائي يخول لك ذلك، من خلال إطلاقك للنار من سلاح فتاك بغرض القتل على الغول المتمرد عيرود، مع أنه لم يفعل ما يستوجب تلك العقوبة، فعقوبة القتل لا يستوجبها في شريعة الإسلام إلا من قتل معصوم الدم أو المرتد عن دينه أو الثيب الزاني، وهو لم يفعل شيئاً من ذلك، نعم هو قام بأعمال خاطئة ونحن لا نقرها ولا نرضاها، وقد طبقنا هذا في الماضي فقبل اثنين وستين عاما قام المارد شيعان الجيعان بالفساد في بلادكم وقتل ثلاثة من فتيانكم، فأقمنا محاكمة له وحكمنا عليه بالقصاص

وأزهقنا روحه، أما المارد عيرود فقد استوعب ذلك الدرس فلم يتعرض لأحد منكم، بل إنك عندما سددت إليه بندقيتك لم يحاول الدفاع عن نفسه ويقتلك بل اكتفى بالتخلي عن تجسده، وفي ذلك التخلي بذلك الشكل السريع مخاطرة كبيرة قد يفقد فيها حياته، وبعد ذلك لم يحاول أن ينتقم لنفسه منك أو من أحد من البشر بل حاول أن يتجنبك، مع أنه ارتكب حماقة جديدة سببت الضرر لنا ولكم، لذا قمنا بمحاكمته وحكم عليه بالسجن مدى الحياة، وتم تعويض جميع من تضرر بسببه بطريقتنا الخاصة.

ثانياً: أنت متهم باقتحام أراضٍ مملوكة للغير والدخول عنوة لأرض لا يحق لك الدخول فيها بدون إذن أصحابها، وحينما دخلتَ من ذلك الباب كان بإمكانك أن تتراجع والعودة من حيث أتيت، حتى بعد أن أنغلق عليك الباب مع أن هناك من حاول تشويش أفكارك وبلبلة ذهنك، ولكن لو حاولت أن تكون أكثر هدوءً لوجدت مقبض الباب فقد كان قريباً من يديك، ولكن خوفك جعلك تتخبط ثم تقع فريسة اليأس والإحباط، لو أنك كنت أكثر دقة أو جلست تسترد هدوءك ثم حاولت مرة أخرى لكنت الآن تنعم بالأمن والطمأنينة بين أطفالك، ولكن العجلة هي جزء أصيل من شخصية الإنس.

واصلت التقدم في أرض محرمة لا ينبغي أن تكون فيها، بل إن وجودك فيها يعرض جميع شعبها للخطر، طبعاً نحن نقدر أنك لا تعلم ماهي المخاطر المترتبة على تواجدك هنا ولا تعلم أن جرأتك وشجاعتك خانتك هذه المرة وأودت بك لمصاعب لم تخطر على بالك.

لك الحق أن تتساءل أين أنت الآن؟ ولمن هذه الأرض التي تحاكم فيها بتهمة دخولها بلا إذن؟ سنجيب على تساؤلك لكن قبل أن نجيب يجب أن تعلم أن هذه الإجابة لها ثمن فهل أنت مستعد لدفع الثمن؟

سكت سعيد ولم يجب، فكرر عليه نفس السؤال، فقال سعيد لا أعتقد أن ثمة ثمناً أكبر مما أنا فيه الآن على الأقل أعرف ما سبب كل هذه المحنة التي أنا فيها، نعم أريد أن أعرف، فقال له ممثل الادعاء: ألم أقل لك أن الاستعجال وعدم التروي والنظر في العواقب هو صفة أصيلة في البشر، على الأقل كنت تسأل ما الثمن لهذه المعرفة، لكن لا بأس أنت الآن في مملكة حراس ضريح الملكة بلقيس وكنوزها.

الملكة بلقيس ملكة مملكة سبأ التي ذكر الله قصتها في القرآن، وهي زوجة نبي الله الملك سليمان عليه السلام؛ فقد توفيت رحمها الله في بلاد الشام في حياة النبي سليمان، وحينما أراد دفنها أشار عليه بعض مستشاريه بدفنها في جبال طورس التي تقع في بلاد الأناضول.

وأشار آخرون أن تدفن في جبال الأطلس من بلاد المغرب، لكن أحد مستشاريه أشار عليه بدفنها في بلادها التي أحبتها وأحبها أهلها؛ كي تكون بين شعبها الذين كانوا مستعدين أن يقفوا معها ضد الملك سليمان وقواته التي لا قبل لأحد بها، وقد استحسن نبي الله سليمان هذا الرأي، وأمر أن يبنى لها ضريح عظيم في مملكة سبأ، ولكن حينما أراد المهندسون أن ينفذوا ذلك احتاروا في كيفية تنفيذه لأن معظم بلاد مملكة سبأ عبارة عن صحاري قاحلة، أراضي شاسعة من السهوب الواسعة التي تحتوي على جبال من الرمال المتحركة ،وهي لا تصلح لبناء ضريح محصن يضم رفات الملكة وكنوزها ولن يكون ذلك الضريح محصناً من نهب لصوص القبور والباحثين عن الكنوز.

وبعد بحث وتقصٍ استقر الاختيار على هذا الجبل الحصين من بلادكم والذي يسمى جبل سمدان؛ لذا أمر الملك سليمان جنوده من الجن البنائين أن ينحتوا لها ضريحا في أعماق هذا الجبل، وقد كان له ما أمر، ثم أمر قبيلتنا أن تحرس هذا الضريح من اللصوص والعابثين؛ فنحن منذ ذلك الحين نتوارث حراسته جيلا بعد جيل منذ أكثر من ألفين وسبعمائة عام.

لقد حاول قبلك بعض البشر الدخول من نفس الطريق التي دخلت منها، وكان عددهم خمسة أشخاص بعضهم كان من السحرة، وقد مر

أكثر من ألف ومائة عام منذ آخر محاولة، كل تلك المحاولات بائت بالفشل وماتوا اختناقاً ويأساً في ذلك السرداب ولعلك وجدت رفاتهم في تلك الغرفة التي وصلت إليها،

ما عدا أنت الوحيد نجحت بطريقة عجيبة في النجاة من ذلك السرداب واستطعت شق طريقك حتى وصلت إلى مرحلة متقدمة وخطيرة، واقتربت بشكل غير مسبوق من المنطقة التي يوجد بها الضريح، لذا كان لزاماً علينا أن نتدخل ونوقفك كيلا تتوغل أكثر، وكي نحافظ على سرية وسلامة المكان، ونحفظ الأمانة التي وكلنا بحفظها، لذا فقد ألقينا عليك النعاس وتم نقلك إلى مكان بعيد، وهو المكان الذي مكثت به حتى الآن، لذا وبسبب كل تلك التجاوزات التي قمت بها والجرائم التي اقترفتها يداك؛ واستنادا إلى ما سبق فإنني أطلب من رئيس المحكمة، وقاضي القضاة تطبيق العقوبة التي يراها مناسبة بحقك، مع الأخذ بعين الاعتبار أن ما قمت به ينطوي على الجهل و عدم سوء النية، وكذلك مراعاة لشجاعتك وحسن تصرفك ومثابرتك وصبرك وثباتك، فهذه الصفات قلما تجتمع في بشري مثلك، انتهى كلامي.

مرت فترة صمت كان فيها العملاق الأوسط –الذي وصفه ممثل الادعاء بأنه قاضي القضاة – يقلب في أوراق موضوعة أمامه، ثم رفع رأسه وقال لسعيد الآن دورك تفضل ابدأ في الدفاع عن نفسك، سكت

سعيد لبرهة كأنه يستجمع شتات نفسه ويستدعي قدراته البلاغية وإمكانياته الخطابية، ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم على أمل أن يكون الذي أمامه شياطين فيخنسوا عندما يستعيذ بالله منهم، ولكنهم لم يتأثروا إطلاقاً فواصل حديثه وسمى الله وأثنى عليه وصلى وسلم على نبيه فهدرت القاعة كلها بالصلاة والسلام على النبي، فاكتشف أن القاعة مملوءة بأشخاص لا يراهم وليس فقط من على المنصة ولكن ذلك لم يغير في الأمر شيء بالنسبة له ثم قال: "رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي"، فوضتك يا رب أمري كله فدبر لي أموري فإني لا أحسن التدبير.

ثم أقسم بالله قسماً مغلظاً بأنه لن يقول إلا الحق وقرر أن يحكي لهم الحكاية من بدايتها وحتى دخوله في ذلك السرداب المشؤوم، ثم ذكر كيف أشرف على الهلاك جوعاً وعطشا، وكيف حاولوا إصابته بالجنون عندما بدأ يسمع أصوات أمه وزوجته وهما تصرخان وتعذبان، وأطفاله وهم يبكون، ثم ختم دفاعه قائلا: أنا فعلت ما فعلت مما تتهمونني به دفاعاً عن أمن بلادي وكرامتها، ولم أكن أبداً معتدياً أو ظالماً، خاصة أننا لم نكن نعرف طبيعة ذلك الوحش الذي نواجهه، ثم ما أخبرنا به كبار السن عن تجربتهم المريرة في المرة التي فقدوا فيها ثلاثة من فتيانهم.

أما ما قمتم به من أعمال ضدي فهي تنطوي على اعتداء سافر على أغلى ما يملكه إنسان وهو العقل وسلب الحرية، والموت جوعاً وعطشاً، ظلماً وعدواناً مع سبق الإصرار والترصد على النفس المعصومة، فبالله عليكم يا هيئة المحكمة من هو الظالم والمظلوم في هذه الحالة، أنا أطالب بالعدل والإنصاف والتعويض عن جميع الأضرار التي لحقت بي وبعائلتي بسبب اختطافي والإخفاء القسري وسلب حريتي بدون وجه حق، انتهى كلامي.

مرت فترة صمت طالت، كان فيها الذين على المنصة يعلقون أبصارهم برئيس المحكمة، كان الجميع بما فيهم سعيد ينتظر كلمة الفصل من قاضي القضاة –كما يسمونه – ولكنه ظل صامتاً كأنه كان هو أيضًا يعاني من الحيرة، ثم أخيراً تكلم رئيس المحكمة وقال: ترفع الجلسة للمداولة وأخذ المشورة، ثم قام هو أولاً وتبعه بقية الأعضاء، فتعجب من ضخامة أجسادهم.

جلس وحده على تلك الطاولة ولم يطلب منه أحد المغادرة، وبعد لحظات وضعت أمامه صحفة مملوءة بفتة خبز الذرة بالحليب الدافئ والسمن البلدي وبجانبها كوز ماء بارد، كان جائعا وخائفا ومتوجسا، فأكل كأنه يأكل لآخر مرة في حياته، كان يتوقع الأسوأ لكنه سلم أمره لله، ثم شرب من ذلك الماء البارد حتى ارتوى، وحمد الله وشكره ثم

استلقى على قفاه أسفل الطاولة، وأخذ يدعو الله أن يفرج همه ويزيل كربته ويجمعه بأهله عما قريب، ثم نام كطفل لعب حتى أنهكه اللعب.

لا يعلم كم مضى من الوقت وهو نائم متوسد كفيه تحت الطاولة، لكنه استيقظ على أصوات عالية وهي تصرخ محكمة، فاستوى جالسا وشاهد هيئة المحكمة منعقدة بكامل أعضائها الخمسة، قام متثاقلاً وجلس على كرسيه منتظراً النطق بالحكم.

تحدث قاضي القضاة قائلاً: بعد الاطلاع على لائحة الاتهام الموجهة للمتهم و سماع دفاعه وبعد الرجوع لقوانين وأنظمة شعبنا، فقد وجدنا أن المتهم سعيد عبدالواسع ردمان المطنن بريء من التهم المنسوبة إليه، ولكن حفاظاً على أسرار شعبنا والمهمة الملقاة على عاتقة ومراعاة للمصلحة العليا حكمنا نحن هيئة المحكمة بالإجماع على المتهم سعيد عبدالواسع المطنن بالنفي المؤبد إلى الأرض المفقودة مع إعطائه كافة الامتيازات المعمول بها في مثل هذه الحالات، انتهت المحاكمة، ثم قاموا جميعاً بسرعة وغادروا القاعة كأنهم يهربون من تبعات ما حكموا به.

"هدرت الكلمات الغريبة في عقله وقعقعت كحديث رعدٍ، كدوي طبولٍ في رقصات"(1) الزار لو كان للطبول أن تتكلم.

---

(1) من رواية " عالم جديد" الدوس هكسلي

وقف سعيد وضرب الطاولة بكلتا بيديه المتشنجتين وبكل قوته وهو يصرخ: هذا ظلم هذا استبداد هذا طغيان،

أي أمن وأسرار لشعبكم تبرر لكم هذا الحكم الجائر؟

ما هي جريمتي كي تفعلوا بي كل هذا؟

كيف تقولون إنني بريء ثم تعاقبونني بكل قسوة؟

أخذ يصرخ حتى صحل صوته وشعر بشرايين رقبته تنبض بقوة وعضلاتها تتشنج، ومع ذلك واصل احتجاجه ولكن بلا طائل، لم يجد أي تعاطف أو استجابة، جلس وهو يلهث ودقات قلبه كالطبول.

أخذ جرعة ماء من الابريق الذي أمامه، ولكنه شعر بطعمه مرا كأنه الحنظل، كانت المرارة تحتدم في فمه و روحه و قلبه، شعر بدوار في رأسه وأحس كأنه محور القاعة وهي تدور من حوله، لا يعلم هل كانت القاعة تدور بالفعل أم أنه هو الذي يدور أم أن كل ذلك محض خيال، وضع رأسه فوق الطاولة كي يخفف من أثر ذلك الدوار ثم شعر بالنعاس يهجم عليه.

أفاق بعد فترة لا يعلم كم هي؛ فوجد نفسه في غرفته، شعر بروحه تحترق وبقلبه ينقبض بقوة، شعر بمغص حاد ولكن ليس في بطنه بل هناك في

قلبه تماماً، أخذ يتساءل في مرارة هل يعقل أنني لن أرى أمي وزوجتي وأطفالي أبداً؟

هل تلاشى الأمل في لقائهم؟

هل فقدتُ كل شيء، الماضي والحاضر والمستقبل؟

أي حياة هذه التي سأحياها بعد اليوم بلا أمل في لقاء أحبابي؟

كيف أبقوا على حياتي طيلة مدة حبسي عندهم ثم حكموا عليّ بالنفي المؤبد؟

ألم يكن الإعدام أخف وطأة على النفس من هذا الحكم؟

كيف احتفلوا معي عندما ختمت القرآن ثم حكموا عليَّ بكل قسوة؟

ما هذا التناقض المريع؟ شعر بالنار تكاد تشتعل في جسده كان الألم والغضب والحسرة والخيبة تتجمع في روحه لتصنع مزيجاً خطرا قابلاً للانفجار.

قام متثاقلا كأنه يحمل جبلاً فوق ظهره، لم يشعل ضوء الفانوس كعادته بل ترك الغرفة تغرق في ظلام دامس، بدا الأمر مثل الغرق فكل ما حوله يغرق في الظلام ويزأر بالوحشة.

توضأ وصلى الصلوات التي فاتته ثم صلى الوتر ورفع يديه لمن لا يرد دعوة من دعاه، ألح في الدعاء وظل يدعو ودموعه تنساب على وجهه ولحيته ثم تتقاطر على أرض الغرفة، ثم أخذ يردد "إني مظلوم فانتصر"، وتذكر قول الامام الشافعي:

بالذل قد وافيت بابك عالماً ..... أن التذلل عند بابك ينفعُ
وجعلتُ معتمدي عليك توكلاً ... وبسطت كفي راجياً أتضرعُ
اجعل لنا من كل ضيق مخرجا ...والطف بنا يامن إليه المرجعُ

عاد إلى فراشه وقد انزاحت عن كاهله بعض الهموم، ولكن النار التي في داخله ما زالت تستعر لم يخبُ أوارها ولم ينطفئ لهيبها.

كل شيء قد يحتمل إلا ألم الخيانة وفجيعة الغدر، هذا الألم لم يذقه من قبل كانت المرة الأولى في حياته التي يتعرض لنيرانها، حاول أن يستعيد هدوئه، استغرق في تأمل الجدران التي تحيط به لعل برودتها تنفذ إلى عروقه، أنسل من خلال تلافيفها وتجاعيد حجارتها إلى زمنه الخاص، إلى اللحظة الأولى التي غاص فيها وسط تضاريس مجهولة وضاع بعد ذلك في تفاصيلها المعقدة.

كان يظن أن لحظة الخلاص قد أصبحت قريبة إلى حد أنه يشعر بها تنبض بين يديه، ولكنها ضاعت منه في اللحظة التي أعتقد أنها قريبة منه

لدرجة حميمية، وظلت تبتعد منه على حافة الحلم والذكرى، وكل ما تركته له هو حزن رمادي بارد.

كان يشعر بالأسى، ذلك الشعور الذي لا يعطيك متنفساً لأحزانك، لا يجعلك قادراً على العويل أو التفجع أو الصراخ، تشعر فيه أن جسدك يموت شيئاً فشيئا، حزن يصنع فجوة هائلة داخل روحك.

إنه الفقدان، شعور قاس لا يعوض ولا يمكن وصفه، كان وحيداً تماماً لن يملأ وحدته أحد ولن يهدئ من روعه أحد، من العسير أن ترثي نفسك دون أن يكون هناك من يمنح لك العزاء، وكلما تذكر أنه لن يرى أسرته بعد اليوم يئن أنيناً مفجعاً، ويقول في نفسه لو أنهم حكموا عليه بالإعدام لكان أرحم.

أخذ يتساءل في حيرة ويحدث نفسه بصوت مسموع، ما هي تلك الأرض المفقودة؟ وكيف ستكون حياته فيها؟ وكيف كان هو المفقود والآن سيذهب لأرض مفقودة؟ أخذ يردد كأنه قد أصيب بمس من الجنون: مفقود سيذهب لأرضٍ مفقودة، مفقود سيذهب لأرضٍ مفقودة، سكت قليلا ثم عاد يسأل نفسه هل كان هذا الأمر كله مرتباً ترتيباً مسبقاً؟ هل تعرض لمؤامرة حيكت خيوطها بدقة؟

كان ما حدث اليوم في المحكمة يفوق تصوره، كيف يبرؤونه من التهم الموجهة إليه ثم يحكمون عليه بهذا الحكم الجائر؟ ماذا لو وجدوا أنه مذنبٌ؟ ماذا كانوا سيحكمون عليه؟

كان مجهدا مهزوماً استنفدت كل طاقته الجسدية والعقلية؛ لذا نام نوماً قلقاً كله كوابيس وأحلام مرعبة.

-15-

الأرض المفقودة

لا حد للظلام الذي كان يغوص فيه، ولا حصر للوجوه التي كانت تتكون من خلال ذراته، وجوهٌ ظن أنه قد نسيها وجروح ظن أنها قد اندملت، كل الذكريات بجميع أنواعها كانت تحتشد أمامه، بكل عنفوانها وقسوتها، لا شيء يموت، كل شيء محفوظ فوق أرفف الظلمة، "وضع يده على قلبه وأغمض عينيه، ركز تفكيره، هناك شيء قاتم في الداخل، إنه يبدو في البدء مثل الهواء في الليل، ظلمات شفافة، ولكنه ما يلبث أن يتحول إلى رصاص مكتوم، حاول تهدئة نفسه وتقبل ذلك السواد"[1] الذي يلفه بالكامل كأنه في شرنقة من سواد.

تساءل في حيرة أين أنا؟ وهل ما زال الليل في بدايته؟ ولماذا أصبح الفراش من تحتي صلباً وقاسياً؟ ليس متأكداً من شيء لذا حاول أن يشعر بشعور الذين فقدوا نعمة البصر فأخذ يتلمس ما حوله ويتحسس فراشه فوجد أن هناك تغيراً واضحاً فقد اختفت الحشية التي كانت تحته

---

[1] من رواية " باولا" إيزابيل الليندي.

ووجد بدلا عنها رديفة الصوف الكشمير مفروشاً على طبقة من القش اليابس، واصل تحسسه فوجد أن الدكة المرتفعة التي كان ينام عليها قد اختفت هي أيضاً، تساءل مرة أخرى أين أنا هل ما زلتُ في تلك الغرفة التي احتضنت غربتي لمدة سبعة أشهر؟

أخذ يتلمس مخدته فتفاجأ بدلاً عنها بمخلاته التي أخذت منه قبل سبعة أشهر، فتشها في الظلام وأول ما وقعت عليه يده هو كشافه الذي سقط منه عندما انغلق عليه الباب الرخامي، أشعله فأضاء وبدد حجب الظلام من حوله، واصل تفتيش مخلاته فوجد كل أدواته موجودة فيه لم يفقد منها شيئا، حتى ساعته وجدها تبرق لامعة في أسفل الكيس القماشي وبندقيته الرشاشة وسيفه القصير ومنظاره المقرب، حتى تلك العصا المجوفة التي حشاها بذلك الخليط الذي يزعم الناس أنه يطرد الجن والشياطين كانت أيضًا موجودة، ووجد أيضًا كيساً صغيراً مربوطاً بعناية فتحه فوجد فيه أغذية متنوعة قطع من الجبن الأبيض المجفف وتمراً وتيناً مجففاً وقطعاً صغيرة وكثيرة من اللحم المقدد.

ربط مخلاته ثم أخذ يجول بالضوء حوله فوجد نفسه في كهف صخري، كان موقعه بجوار جدار يسد الكهف، ولكن هناك من الجهة الأخرى دربٌ طويل لا يعلم إلى أين يؤدي، قال لنفسه: أصبحتُ الآن متأكداً أنني الآن في الأرض المفقودة، ومن خلال البداية تبدو هذه الأرض

مفقودة بالفعل، ولكن هناك سرداب عليّ أن أعرف أين نهايته؟ يبدو أنه كتب عليّ بقية عمري أن أسير في سراديب مجهولة.

عزم على اكتشاف موطنه الجديد فوضع مخلاته على عاتقه ووضع رديفه الصوف الكشمير على كتفه الأخرى ثم مضى يحث خطاه نحو المجهول يستعين بضوء كشافه، مشى مسافة لا بأس بها وهو يشاهد أنياباً كلسية تنبثق من أرض الكهف كأنها مآذن، وأخرى تهبط من سقفه كأنها أنياب العمالقة أو رماح تتربص به، وتقطر عليه بقطرات باردة من الماء، ثم لاحت من بعيد بقعة من ضوء أخذت تتسع تدريجيا، حتى اتضح له أنها باب ذلك الكهف أصبح ضوء الكشاف لا جدوى منه فاطفأه.

يمم وجهه نحو ذلك الباب وحينما وصل كانت الشمس تسطع بكل ما أوتيت من سطوع، شعر بوخز مؤلم في عينيه فأغلقهما وواصل التقدم ببطء، كانت المرة الأولى منذ فترة طويلة ظن أنها سنوات منذ أن فقد ضوء الشمس، صحيح أن الشمس كانت تختلس النظر إليه من خلال كوة صغيرة في سقف زنزانته الانفرادية، لكنه الآن ينظر إليها وتنظر إليه وجهاً لوجه، توقف عن التقدم عندما شعر أن الأرض بدأت تميل تحت قدميه ثم شعر بدفء الشمس وضوئها يلتف حول جسده ويضمه بلطف وحنان، هتفت نفسه ما أجمل الحرية، لا شيء يضاهي الحرية، ولا شيء أجمل من أن يكون المرء حراً طليقاً كالطير في كبد السماء، كان ما

يزال مغمض العينين، فتح عينيه ببطء كيلا يصاب بالعمى من فرط ما عاش في الظلام وكي تعتاد عيناه على النور الكامل، وعندما فتحهما بالكامل كانت الرؤية ضبابية ومشوشة والمناظر تبدو غير واضحة، فرك عينيه بلطف كي يزيل ذلك التشويش ثم فتحهما ببطء مرة أخرى فاتضح المشهد أمامه.

كان واقفاً في باب الكهف على ارتفاع ليس بالشاهق جدا ولكنه مرتفع نسبياً وتوجد أسفل منه هاوية منحدرة تدريجياً نحو سفح الجبل، أما المشهد الذي صافح عينيه فكان يفوق الوصف، لم يشاهد في حياته مثيلاً له، لم يستطع عقله أن يستوعب ذلك الجمال الأخاذ الذي انعكس على شبكية عينيه، مساحات شاسعة من الخضرة، أرض معشوشبة مكسوة بالخميلة، مستوية كأنها بساط أخضر يمتد على مد البصر، وفي الأفق أشجار باسقة كأنها رماح تطعن صدر الفضاءات من فوقها، وخلال ذلك كله تجري جداول لا حصر لها تنساب أصواتها وتخترق تلك الخضرة من كل اتجاه، ثم تجتمع في جداول أكبر تصب في وادٍ كبير يبدو في الأفق البعيد كأنه سراب.

كانت المناظر تزدحم أمام عينيه ويضاف لذلك أصوات تغريد طيور تأتي من بعيد متداخلة كأنها موسيقى تصويرية تصاحب مشهدا خرافياً لا يوجد إلا في أفلام الخيال العلمي، كانت أرضاً ذات جمال أسطوري

ساحر، تقع وسط مساحات خضراء ممتدة تتلألأ فيها الأزهار المبهجة ويسطع ضوء الشمس لينعكس على المياه المنسابة المتلألئة.

تذكر المنظار المقرب فأخرجه من مخلاته ووضع حزامه حول رقبته ثم وضعه على عينيه وأخذ يجول به بين تلك المناظر التي أسكرت لبه وأذهلت عينيه، حتى شك هل هو يحلم أم أنها الحقيقة ماثلة أمام عينيه، وفجأة وبينما هو ينظر شاهد في الأفق البعيد شيئاً يتحرك فقال لنفسه لعله حيوان لكن أي حيوان هو؟ ثم ركز النظر بمنظاره وأخذ يحرك العدسات محاولاً توضيح الصورة، فاتضحت الصورة بالفعل ويا للعجب فقد كان ذلك الشيء المتحرك إنساناً، نعم أُقسم أنه إنسان قال ذلك سعيد وهو واثق مما تراه عيناه، كان يبدو من خلال المنظار المقرب صغيرا كأنه خيال، ولكنه إنسان لا ريب في ذلك كان حوله ماشية كثيرة يرعاها.

حاول أن يجول بمنظاره لعله يجد بشرا غيره، لكنه لم يجد غير ذلك الإنسان تعجب من ذلك كيف تكون كل هذه المساحات الشاسعة لا يوجد فيها سوى إنسان واحد لكن لا بأس، أسعد ذلك قلب سعيد المطنن وشعر بالغبطة فهو لم يتحدث إلى إنسان أو يراه منذ ما يزيد على سبعة أشهر، لذا صمم أن يصل إليه، ولكن قد يكون ذلك الإنسان رجلاً أو امرأة، وقد يكون خيراً أو شريراً، كل ذلك لا يهم فليكن ما

يكون أهم شيء أن يكون بشراً مثله يفكر كما يفكر هو؛ فيستطيع أن يتفاهم معه ويعرف منه معلومات قد تفيده عن هذا المكان الغريب.

خمن أن المسافة بينهما قد تستغرق منه ساعة أو أكثر، مع أنه يبدو بعيداً جداً لكن الأرض المنبسطة تحته والخالية من الحواجز الطبيعية إلا من بعض الجداول الصغيرة ستسهل من مهمته، ثم إن الوقت ما زال باكرا فمن خلال ظل الشمس خمن أن الوقت الآن هو بعد الشروق بساعتين تقريبا، بدأ بالهبوط من ذلك الكهف، كان الطريق للأسفل صعباً وشاقاً على عكس ما كان يتوقعه لذا كان يتوكأ على عطيفه يمسك بالنصل الحديدي ويغرس العصا في الأرض، فقد كانت الأرض مغطاة بالعشب المشبع بندى الصباح، لذا كانت الأرض زلقة وقد تعرض خلال هبوطه عدة مرات للتعثر والزحلقة، ومرة واحدة كاد ينكفئ على وجهه ولكنه تماسك في اللحظة الأخيرة.

أخيرا وبعد جهد جهيد وصل للأرض المنبسطة بعد أن استغرق نزوله من الكهف ضعف الوقت الذي توقعه، سار في تلك الأرض فاكتشف أنها عبارة عن مروج تسلمه إلى مروج أخرى، كانت الأزهار تحفه عن يمينه وشماله، كان دربه غنياً بالألوان، زهوراً لم ير مثلها في حياته أشكال مختلفة وألوان مختلفة وأريجها المتداخل يكاد يشعره بالدوار، عطور ممتزجة تفوح وتستثير الحواس، وفوق رأسه فراشات غريبة الشكل أكبر بكثير من

تلك التي يراها في بلاده وأكثر جمالاً وتنوعا في ألوانها والأشكال الهندسية البديعة التي على أجنحتها كأنها أزهار طائرة، وأسرابٌ من النحل تروح وتغدو تنهل من رحيق تلك الورود والأزهار التي تمتد أمامه كأنه في حقل لا نهاية له، وتغريد الطيور موسيقى خفيضة تحفز البكاء من شدة جمالها، تدفقت أشعة الشمس حديثة الميلاد فوق كل شيء، ومضت الأشعة الطبيعية في آلاف الانعكاسات بين الجداول والاشجار والزهور التي تتموج مثل شلالات من الفضة الذائبة، واختلط ذلك كله فوق سجادة نفيسة خضراء باذخة الجمال.

أنساه جمال المشهد وغرق في تفاصيله البديعة ما كان يخطط له، فنسي الهدف الذي كان يسعى إليه، وأخذ يسير في بطء وهو ينظر في دهشة غامرة لهذا المهرجان اللوني والسمعي الباهر، فقد كان يسمع صوت خرير الماء ينساب ولكنه لا يراه بسبب كثافة الأعشاب والشجيرات من حوله وأحيانا كانت أقدامه تنزلق وتغوص في أحد تلك الغدران فيشعر بالبرودة والانتعاش.

واصل سيره وهو يقول لنفسه لو كانت هناك جنة في الدنيا لكانت هذه بلا منازع، وإذا كنت الآن ميتاً وأنا في جنة الآخرة فأين أنهار العسل واللبن والخمر، أسرع في خطواته قاصدا الرجل الذي رآه من الكهف

وخشي أن يفوته ويغادر تلك البقعة التي رآه فيها فزاد من سرعته وأخذ يلهث وتصبب العرق غزيرا من جبينه.

شعر بالعطش فتوقف قرب جدول من تلك الجداول وجلس واغترف بيده غرفة منه وقربها من عينيه ليكتشف ما فيها من عوالق وشوائب، ولكنه وجدها صافية تماما لا يوجد فيها أي شوائب، كانت نقية جدا كأنها مرآة نظيفة؛ فشرب منها فوجد الماء بارداً وفي غاية العذوبة، فشرب حتى ارتوى تماماً، شعر بالنشاط بعد شرب الماء لكن مازال الدوار والوهن موجودا في جسده، فأعزا ذلك للمدة الطويلة التي مكثها في السجن لا يتحرك حتى أصبح أي جهد بسيط يؤثر عليه.

أخيراً وصل إلى مقصده ورأى الرجل واقفاً على مدى البصر، حينما شاهده سعيد خانته ركبتاه وخذلته أقدامه وشعر بالإعياء، كاد يسقط ولكنه اعتمد على عصا عَطيفهِ، وبمجرد أن رآه الرجل الآخر أخذ يعدو نحوه بكل ما أوتي من قوة، وعندما وصل إليه احتضنه ثم أسنده على كتفه وهو يقول له: على رسلك، واضح أنك مجهدا وسفرك كان طويلاً وشاقاً، أخذ سعيد يتنفس بعمق وهو يسير ببطء ثم قال: بالفعل لقد كان سفري طويلاً جداً استغرق من حياتي سبعة أشهر كاملة ولا أعلم متى سأصل إلى مأمني، قال له الرجل: لا تقلق فقد وصلت بالفعل إلى مأمنك.

عندما وصلوا إلى حيث كان الرجل واقفاً مع أغنامه بسط له الرجل بساطاً من صوف الماعز وجاء بصخرة صغيرة وجعلها متكأ له، ثم قال له تعال يا أخي اجلس وهدئ من روعك ثم تركه وانصرف، وبعد فترة عاد وهو يحمل بيده وعاءً صغيراً من الخشب المنحوت مترعاً بحليب يعلوه الرغوة والزبد، وقال له اشرب هذا من حليب غزال البقر ستجده من ألذ أنواع الحليب، قال سعيد: وما غزال البقر؟[1] قال: حيوان بري له صفات تشبه البقر وصفات مثل الماعز والغزال يمكنك أن تراه هناك في تلك الجهة من المرعى، نظر سعيد فلم يستطع أن يتبين ما هو فقد كان بعيداً بحيث لم يره بشكل واضح.

فقال سعيد: لا أكاد أراه إنه بعيد، ثم فتح مخلاته وأخرج منظاره المقرب وأخذ يشاهد به ذلك الحيوان، ثم قال: حيوان جميل بالفعل كأن هناك شجرة يحملها على رأسه، هل قرونه هكذا كأنها فروع شجرة أم أنه يخيل إلي؟ قال الرجل: نعم قرونه المتشعبة هي ما تميزه عن غيره.

أعاد سعيد منظاره إلى مخلاته ولكن قبل أن يغلق مخلاته قال له الرجل هل هذا هو الناظور؟ قال سعيد: نعم هل تريد أن تجربه؟ قال الرجل إذا

---

[1] يبدو من خلال وصفه أنه يقصد بغزال البقر، غزال الرنة وهي من الحيوانات المجترة، ويتكون معدتها من أربع غرف تسمح لها بأكل النبتات الكثيفة. هي إحدى الأيليات وتعيش في المناطق القطبية وشبه القطبية بآسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية.

سمحت؟ فقال لا بأس تفضل ضعه على عينيك وتجول به، اخذ الرجل ينظر به وهو يسبح الله متعجباً وقال سبحان الله إنه يقرب الأشياء البعيدة جداً حتى أنني أظن أنه بإمكاني لمسها بيدي ثم قال لسعيد انظر إلى تلك الربوة إن بيتي خلفها تماما مع أن السير إليها يحتاج إلى ساعة تقريبا إلا أنه جعلها قريبة حتى ظننت أنه بإمكاني النداء وهم سيسمعونني قال ذلك وهو يضحك.

أعاد المنظار المقرب إلى سعيد وقال له هذا الشيء سيكون مفيدا جدا هناك لذا حافظ عليه، قال سعيد نعم أدرك هذا وأول فائدة له أنني وجدتك، ولولاه لما أدركت أن هنا يوجد بشرٌ مثلي، وهناك أيضًا أشياء مفيدة في مخلاتي انظر هذا سيفي القصير (الجردة) وهذا رشاشي الأوتوماتيكي، وهذه ساعتي المتوقفة، وأخذ يخرج الأشياء واحدة واحدة، بينما كان ينظر الرجل بإعجاب للرشاش سريع الطلقات وهو يقول: يا له من سلاح جميل لم أر مثله من قبل.

وبينما سعيد كان يتجول بيده في مخلاته ليخرج بقية الأشياء كي يراها مضيفه، اصطدمت يده بشيء فصاح فرحاً وقال: الحمد لله لقد تركوه لي، فقال الرجل: وما هو؟ أخرجه سعيد وهو يقول بفرح: المصحف انظر لقد تركوا لي المصحف وأخذ يقبله ثم أخذه الرجل وأخذ يقبله أيضًا ويضعه على رأسه، ثم قال: لك الحق أن تفرح به، أنا أيضًا لدي

مصحف ولكنه ليس جديداً مثل هذا فقد اهترأ غلافه فصنعت له غلافاً من جلد أرنب الماء، فقال سعيد: أرنب الماء؟ إنك تذكر لي حيوانات لم أسمع بها من قبل، فقال الرجل لا بأس اشرب اللبن فقد كاد أن يبرد وسأحدثك عن كل شيء.

مثلا هذا الحيوان الذي تشرب حليبه لا يوجد إلا في هذه الأرض، وهو متوحش ولكنني استطعت استئناسه واتخذت منه قطيعاً مكون من عشرين رأساً، وكمية الحليب التي تدرها إناثه تفوق ما تنتجه البقر التي نعرفها، وكمية الدهن فيه أكبر من الذي في حليب البقر وكذلك السكر، فقال سعيد: بالفعل هذا اللبن لذيذ، ويشعر الإنسان بالشبع بعد شربه، ولكن أخبرني عن هذه الأرض العجيبة، فقال الرجل لا تتعجل سأخبرك عن كل شيء ولكن ارتاح أولاً واسترد قوتك، قال سعيد أشعر أنني أفضل حالاً خاصة بعدما شربتُ من اللبن الذي أعطيتني شكرا لك أخي، قال الرجل الشكر لله أنت ضيفي و إكرام الضيف واجب، استأذنك سأذهب لترتيب بعض الأمور وسأعود بعد قليل.

تمدد سعيد على ظهره وأسند رأسه على الصخرة التي كان متكأً عليها وأخذ ينظر إلى السماء كانت صافية الزرقة، وهناك أسراب من الطيور ملونة الريش ومختلفة أشكال مناقيرها تجوب الأنحاء، تروح وتغدو وكأنها

تلعب لعبة المطاردة وهي تغرد وتصفر بصفير ذي إيقاع بديع لم يسمع مثله، كان الطقس معتدلاً يميل للدفء قليلاً تخلله نسمات تهب محملة بأريج الأزهار والنباتات العطرية، وصوت خرير الماء في الجداول القريبة يؤطر ذلك المشهد بإطار من جمال، قال في نفسه – مبالغاً– لم ينقص هذه الأرض كي تكون جنة عدن إلا أنهار العسل واللبن والخمر.

قطع صوت الرجل تأمله وهو يقول له: ها كيف حالك الآن أرجو أن تكون قد استعدت حيويتك؟ إن كل أرض تطأها أقدامنا لأول مرة، نصاب بصدمة بسبب اختلاف طبيعتها، ونحتاج لوقت كي نبدأ بالتأقلم، أرجو ألا أكون قد قطعتُ عليك تأملك؟ قال سعيد: لا أبداً كنت أفكر في نفسي وأقول إن هذه الأرض يمكن أن تكون الجنة لولا أنها تخلو من أنهار العسل والخمر واللبن، ضحك الرجل مقهقهاً وقال: وما أدراك أنها غير موجودة، لو أنك عرفت هذه الأرض على حقيقتها لقلت إنها الجنة بالفعل– مع الفارق طبعاً، فالجنة لا موت فيها.

هناك أشياء تميز هذه الأرض عن الأرض التي نعرفها، ولو أنها لا تخلو من المنغصات، على كل حال قم الآن سنذهب إلى البيت وسأحدثك عنها بالتفصيل، المعذرة منك نسيت أن أعرفك بنفسي اسمي هو مقبل مسعود الدبعي من قرية العشة عزلة دبع قال سعيد: أنا اسمي سعيد عبد الواسع المطنن من قرية الحجر عزلة الرجاعية، لكن هذا غريب، قال

مقبل: وما الغريب؟ قال سعيد: الغريب أننا تقريبا من بلاد واحدة أو نحن متجاورين لا يفصل بيننا إلا الجبل بلادكم غربه ونحن شرقه، كيف اجتمعنا؟ وهل يعني أن هذه الأرض قريبة من بلادنا؟ قال مقبل هذا ما سنتحدث عنه ونحن سائرون نحو البيت.

طريقنا إلى البيت يستغرق منا حوالي ساعة ونصفا نحو الغرب، قال له سعيد: وأغنامك؟ قال: لا خوف عليها قبل الغروب ستكون في حظيرتها، والآن أخي سعيد هل تحب أن تبدأ أنت بالحديث عن تجربتك وكيف وصلت إلى هنا؟ أم أبدأ أنا بالحديث؟ قال له: سعيد أفضل أن أبدأ أنا ثم بعد ذلك تتحدث أنت وتخبرني عن هذه الأرض الغريبة بالتفصيل، قال مقبل: إذن تفضل بالحديث.

تحدث سعيد بالتفصيل عن تجربته المريرة منذ أن هاجم الغول ماشيتهم حتى صدر عليه الحكم بالنفي المؤبد، ثم قال: هذا ما حدث لي يا أخي مقبل، قال: مقبل الأحداث التي مرت بك في غاية الصعوبة والغرابة، أما حالي فهو يختلف عن حالك؛ فأنا مثلا كنت أرعى أغنامي قبل العصر في الجانب الغربي من الجبل الذي يطل على بلادي وفجأة انهمر علينا مطر غزير فسقت أغنامي وقصدت كهفاً معروفا للرعاة كي أكنن أنا وأغنامي من المطر.

عندما توقف المطر أشرقت الشمس انعكست أشعتها على أحد جدران الكهف، فرأيت شيئاً يلمع فظننت أنني وجدت عرقاً من عروق الذهب الخام، وحينما قمت كي أتحقق من الأمر وبدأت أحفر ثم ظهر لي باب رخامي كالذي وجدته أنت فقمت بفتحه – و يا ليتني ما فعلتُ– فدخلت وحدث معي نفس ما حدث معك غير أن السرداب كان مسدوداً تماماً فجلستُ هناك ليلةً كاملةً تقريباً، وفي اليوم التالي وجدت نفسي في محكمة وتكررت معي نفس الأحداث التي جرت معك، وكانت تهمتي أنني دخلت أرضاً حراماً لا يحق لي دخولها بدون إذن.

دافعت عن نفسي وبينت لهم أنني لم أدخلها بالقوة ولكن الباب هو من انفتح لي ولكن بدون جدوى، إذ حكموا بعد ذلك عليّ بالنفي المؤبد إلى الأرض المفقودة مع منحي كافة الامتيازات ولم أفهم ما هي الامتيازات الممنوحة لي، ولم أقض بعد ذلك إلا يوماً واحداً ووجدت نفسي في صباح اليوم التالي في هذه الأرض الغريبة.

العجيب في حالتك هو احتجازك لمدة سبعة أشهر واستخدامهم معك أساليب تعذيب نفسية وتجويع، هذا الأمر لم أفهمه، لماذا فعلوا ذلك معك؟ بينما لم يفعلوا ذلك معي أبدا؟ قال سعيد: حتى أنا أيضًا لم أعرف حتى الآن ما الذي دفعهم لذلك؟ ربما بسبب محاولتي قتل غولهم ومطاردته بعد ذلك، لكن ذلك كان دفاعاً عن النفس وأعتقد أنه حق

مشروع في كل الشرائع، وقد حاولت شرح ذلك لهم ولكن دون جدوى؟ قال مقبل: طيب هل ذكروا في حكمهم عليك الامتيازات؟ قال سعيد: لا أتذكر هذه الكلمة أو أنني لم أنتبه لذلك، لأنه بمجرد ما ذكروا النفي المؤبد لم أسمع بعد ذلك أي شيء فقد صرخت وقمت بالاحتجاج؟ ولكن لماذا تسأل؟ وما الفرق إذا كانت ذكرت كلمة الامتيازات أو لم تذكر؟ قال مقبل وهو يحك لحيته الكثة: هناك فرق كبير لكن سأحدثك عنه لاحقاً، لأننا قد وصلنا إلى البيت انظر إلى تلك الربوة التي بجوار النبع ذلك الكوخ الأبيض هو بيتي.

نظر إليه سعيد في دهشة وقال: يا للروعة بيتك جميل ورائع ولكن لماذا بنيته بالخشب بدلاً من الحجارة؟ ولماذا سقفه مائل هكذا على شكل مثلث؟ قال مقبل ضاحكا: ملاحظاتك في محلها، السبب في ذلك لأن الحصول على الأحجار في هذه الأرض فيه مشقة كبيرة؛ فالجبال بعيدة وتحتاج الصخور لجهد كبير في قطعها وتشكيلها ونقلها إلى هنا، أما الأخشاب فهي متوفرة في كل مكان، بل هي في متناول اليد؛ فالغابات تسيطر على هذه الأرض وفيها أخشاب قوية وصلبة وجميلة تتموج وتتداخل فيها الألوان بشكل بديع وتستطيع أن تصنع منها كل شيء حتى أدوات الطعام.

أما لماذا سطح البيت مائل على شكل مثلث؟ فهذا بسب طبيعة هذه الأرض وهو من أغرب صفاتها.

قال سعيد: ماذا تقصد؟ وضح قصدك، قال مقبل: هذه الأرض فيها أشياء غريبة ولا تخطر على بال ولم نشاهد مثلها في بلادنا، فمثلا في بداية فصل الشتاء ولمدة اسبوعين غالباً لا ينزل المطر، وإنما يهطل الثلج ويصبح الجو باردا بشكل لا يحتمل، لو تعرف كم عانيت من شدة البرد في أول مرة، كنت لا أشعر بأطرافي من شدة البرد، قال سعيد: كيف ثلج بلا مطر؟ هل تقصد تنزل حبات البرد بدون أن يصاحبها مطر كيف يحصل ذلك؟ هذا أمر غريب عادة يتخلل نزول المطر أحيانا نزول زخات من البرد،

قال مقبل: لا أقصد حبات البرد يا أخي سعيد وإنما أقصد ثلج ينزل مثل القطن الأبيض عندما ننفشه في الجو ندف ندف، وتصبح الأرض مكسوة بالكامل به ولونها أبيض يبهر العيون، حتى المشي يصبح شاقاً وعسيراً إذ تغوص الأقدام في الثلج، حتى الأشجار تصبح غصونها مغطاة بالثلج تماماً.

نظر إليه سعيد في اندهاش وهو يقول هذا أمر غريب جداً، واصل مقبل: ويصاحب ذلك أحيانا هبوب عواصف ثلجية عاتية تقتلع بعض الأشجار وتجعل البيت يرتجف رعباً وتحاول جاهدة أن تقتلع سقفه

بالقوة، وإذا صادفتك إحدى هذه العواصف وأنت في البرية، وليس لديك مكان قريب تحتمي به منها فهذا يعني الموت المحتوم، لذا عندما يكون سطح البيت مائل هكذا، يسهل انزلاق الثلج عليه أو سحبه وعدم تراكمه مما يجعله محميا من الانهيار بسبب ضغط الثلوج المتراكمة عليه، هل اتضحت لك الفكرة أخي سعيد؟ قال سعيد: نعم أتضحت؟

قال مقبل: هذه الأرض يا صديقي طيبة وحنونة وكريمة جداً، ولكنها حينما تغضب يكون غضبها عارماً لذا يجب أن نراعي هذا، أنا هنا مع أبي وأمي وزوجتي وأطفالي الأربعة تأقلمنا مع هذه الأرض وطباعها الغريبة.

كانوا يتحدثون وهم يتقدمون ببطء وحينما لامست مسامع سعيد الجملة الأخيرة، توقف والتفت لمقبل وقال ببطء كيف حدث ذلك؟ ألم تقل لي أنك دخلت النفق وحدك وحكم عليك بالنفي المؤبد وحدك؟ فكيف جئت بعائلتك كاملة إلى هنا؟ هل يعني ذلك أنك اكتشفت طريقاً لبلادنا؟

انفجر مقبل ضاحكاً وأمسك نفسه بصعوبة ثم قال: أخي سعيد يجب أن تعلم أن هذه الأرض بعيدة جداً جداً ولا يوجد أي شبه أو حتى تقارب بينها وبين بلادنا، حتى أنني لا أعلم في أي ركن من أركان الأرض تقع هذه البلاد التي نحن فيها الآن، لكن لا تستعجل سأخبرك بكل ما لدي

ولن تكون مثلي، عندما أتيت إلى هنا كنت وحيداً غريباً ولم أجد أي شخص يخبرني ماذا أفعل، لذا اكتشفتُ هذه الأرض وعادتها الغريبة وجمالها بنفسي بواسطة المحاولة والخطأ، وفي بعض المواقف كدت أفقد حياتي.

على كل حال ها نحن قد وصلنا إلى البيت سنتناول طعام غداءً متميزاً فهذا اليوم هو يوم عيد بالنسبة لنا بسبب قدومك، قال سعيد: وهل كان لديهم خبر مسبق بقدومي؟ قال مقبل: أكيد وأفترض أنك ستسأل، كيف أخبرتهم وأنت بعيد عنهم؟ سأجيبك قبل أن تسأل، عندما تركتك ترتاح ذهبت لقفص الطوارئ الذي يحتوي على ثلاث من الحمام الزاجل وكتبت في ورقة (لدينا ضيف) وربطتها في رجل حمامة ثم اطلقتها، وهكذا وصل لهم الخبر منذ وقت طويل.

ضحك سعيد وقال هذا يعني أنك عامل حساب لكل شيء؟ قال: هذه الأرض علمتني الكثير لذا فأنا مدين لها بالكثير، على كلٍ سنجلس سويا بعد الغداء جلسة مطولة وسأخبرك بكل ما تريد أن تعرفه وستتعرف على عائلتي الصغيرة، أعتقد أن أبي سيفرح بك كثيراً ولن يعاني بعد اليوم من الوحدة، توقف مقبل أمام باب بيته بمسافة وهو يقول: الله الله طريق طريق، وفجأة ظهر أربعة أطفال فجأة كأنما نبتوا من الأرض وكونوا أمام الباب صفا ثم ظهر أبوه وأمه،

أخذوا ينظرون لسعيد كأنهم ينظرون إلى كائن خرافي أو حيوان نادر أوشك على الانقراض، ضحك مقبل مقهقهاً وقال لهم مالكم يا أبنائي إنه إنسان مثلنا وليس وحشاً، ثم قال لسعيد: أعذرهم فقد مرت عليهم سنوات عديدة منذ رأوا إنساناً، ثم قال أعرفك هذا أبي الحبيب الحاج مسعود صالح، وهذه أمي الحنونة الحاجة جليلة، وهذا ابني البكر هلال وهذه ابنتي جمانة وهذا ابني الثاني نشوان، وتلك الصغيرة هي القمري حق البيت زينب،

هيا يا أبنائي أفسحوا الطريق لعمكم سعيد عبدالواسع المطنن، قال الحاج مسعود في تعجب: ابن الحاج عبدالواسع المطنن؟ قال سعيد مندهشاً: نعم هل تعرف أبي؟ قال مسعود: نعم أعرفه بالتأكيد ألتقيت به عدة مرات في سوق السمسرة، رحمة الله تغشاه كان رجلا مهيب الطلعة شجاعا كريم النفس يقول الحق ويغيث الملهوف ولا يخشى في الله لومة لائم، أهلا بك يا ابني سعيد في بيتك وبين أهلك تفضل بالدخول وعلى الراس والعين، دخلوا جميعا بينما كان مقبل يقول لسعيد ضاحكاً: الحمد الله فقد قام أبي بالواجب وقام بالترحيب بك، جلسوا في الديوان وأعجب سعيد بنظافة البيت وحسن ترتيبه فقد كان كل شيء في مكانه، وكان كل شيء حوله مصنوعاً من خشب فاخر حتى الأرضية كانت مغطاة بخشب بني لامع.

تناول الجميع غداءً دُبعياً بامتياز، وكانت الأصناف التي يشتهر بها أهل عزلة دبع حاضرة بقوة على المائدة، ثم تناولوا بعد الغداء حلوى الهريسة مع القهوة الخالية من السكر، فقال سعيد من أين لكم بالهريسة طعمها يشبه تماما تلك التي يصنعها غالب مدهش الذي في سوق السمسرة، ضحك الحاج مسعود وهو يقول: السمسرة قريبة أرسلنا هلال يأتي بها من عند غالب مدهش، ضحكوا جميعاً وقال سعيد: يا ليت كم نتمنى جميعاً العودة لبلادنا،

قال مقبل: كنت أتوقع أنك ستسأل عنها، هذه الهريسة هي من صنع أم هلال زوجتي سمية، استخدمنا في إعدادها السكر الذي استخرجناه بطرقنا البدائية من قصب السكر الموجود في الغابات حولنا أما النشا فقد استخرجناه من ثمرة البطاطس وهي أيضًا تنبت بشكل طبيعي في البراري، وقد قامت أم العيال رعاها الله بمحاولات كثيرة حتى وصلت لهذه الدرجة من الجودة، الحاجة أم الاختراع، قال سعيد: حفظ الله أم هلال فقد أبدعت وأحسنت في صنعها، لكنني لاحظت أن نكهة الطعام خاصة اللحم يشبه كثيرا تلك الموجودة في بلادنا، قال مقبل: ملاحظتك في مكانها، وهذا بسبب المراعي الخصبة والعلف الطبيعي الخالي من المبيدات وتنوع النباتات التي تأكلها المواشي، هنا كل شيء كما خلقه الله لم تتدخل يد إنسان في تغيره أو إفساده.

والآن يا صديقي سوف أحدثك عن تجربتي في هذه الأرض، سألخص لك معاناة خمس سنوات، قال سعيد: ماذا تقول؟ خمس سنوات؟ قضيت في هذه الأرض خمس سنوات؟ قال مقبل: نعم، قضيت منها سنتين بمفردي أتجول وحيداً "غريباً في أرض غريبة"[1]، لذا سأخبرك بكل ما أعرفه عن هذه الأرض حتى أسهل عليك التأقلم معها، وكيلا تعاني مما عانيت أنا منه، فيكفيك معاناة سبعة أشهر وأنت لا ترى الشمس ولا ترى أمامك إلا الجدران،

أعتقد أنني ملزم أدبياً بتنويرك فأنت يا سعيد في نظري بطل لأنك صمدت سبعة أشهر كاملة أمام صعوبات وتحديات لا يطيق أن يصبر عليها أحد، أتوقع لو لم يفرغ الله عليك صبراً من عنده لكنت الآن في عداد الموتى أو المجانين، شكره سعيد على مشاعره الطيبة وقال له: أنا ممتن لك أخي مقبل وستجدني دائما سندا لك وبجوارك في كل أمورك، لن أنسى لك أبداً وقوفك بجانبي ومساعدتي.

قال مقبل: حسنا حدث هذا منذ خمس سنوات وثلاثة أشهر تقريباً، صحوت في كهف يقع في جبل قريب من الجبل الذي فيه كهفك، كان كهفي واسعاً، وتطرقه الشمس من بعد الزوال وحتى الغروب وهذا ما

---

[1] جملة مقتبسة من رواية عالمية مشهورة عنوانها" غريب في أرض غريبه" لمؤلفها روبرت هاينلاين، وهي من أشهر روايات الخيال العلمي نشرت عام 1962م.

جعله دافئاً نسبياً، وهو أيضًا محمي من الرياح، فقمت بعد ذلك ببناء جدار وباب خشبي في فوهة الكهف، وأصبح ذلك الكهف بيتي لمدة سنتين.

تجولت أثناءها في هذه الأرض وعرفت عنها أشياء كثيرة وأمورا كلها غريبة، مثلاً المياه هنا وفيرة جداً وهي في غاية النقاء والعذوبة، وهذه الأرض لا توجد فيها أي حيوانات مفترسة أو زواحف سامة أو حشرات مؤذية، منذ خمس سنوات لم أر أبداً حية أو عقربا أو أسودا ونمورا كلها غير موجودة حسب تجربتي، حتى البعوض والذباب غير موجود هنا، قال سعيد: هذا أمر كنت أريد أن أسألك عنه بالفعل منذ أن وصلت لهذه الأرض لم أشاهد أي ذبابة فالذباب في بلادنا لا يكاد يتركنا نستريح، قال مقبل: أيضًا الطعام هنا وفير جداً بكل أنواعه لحوم وفواكه وخضروات، توجد ثمار لذيذة كأنها الدهن في ليونته والعسل في حلاوته، بعضها أعرفه ورأيت مثلها في بلادنا، والكثير لا أعرفها ولم أتجرأ على تجربتها.

هل تعلم أنني لأول مرة أعرف ثمرة الأناناس، نعم أكلتها في المعلبات التي تباع في البلاد تأتي في علب معدنية على هيئة شرائح جاهزة وتسبح في عصيرها المحلى، أما هنا فإني رأيتها على شكلها الأصلي، عرفتها من

صورتها التي كانت مطبوعة على العلب وكنت أظن انها شجرة كبيرة ولكنني وجدتها شجرة صغيرة.

أما الصيد هنا فهو يكاد أن يكون في متناول اليد؛ فأنواع الحيوانات العاشبة هنا كثيرة ولا حصر لها حتى أنني لا أعرف أسماءها، لذا كي أريح نفسي فإنني أسمي أي حيوان غزال إذا كان في حجم الغزلان، وأرنب إذا كان في حجم الأرانب، بغض النظر عن الاختلاف في الشكل، فمثلا هناك أرنب الماء وهو حيوان يعيش في الماء ويبني بها سدودا من أخشاب وله ذيل مسطح، وهناك أرنب الأشجار وهو حيوان رشيق أكبر من الفأر وأصغر من الأرنب ويتسلق الأشجار، وله ذيل بديع الشكل ويرفعه فوق رأسه عندما يقف، وتوجد كذلك الكباش البرية المكسوة بالصوف الكثيف، وماعز الجبل والخيول البرية والحمير المخططة.

سكت مقبل قليلاً ثم قال: كنتُ أريد أن أسألك عن الخنزير هل تعرفه؟ فأنا لا أعرف شكله، قال سعيد: نعم أعرفه، ووصفه له بدقة، فقال مقبل: نعم هذا الحيوان موجود هنا وله أنواعا كثيرة ولكنني بحمد الله لم أقترب منه، واصل حديثه أما الأسماك فهي تنتشر في الجداول والبرك الكبيرة ويتراوح طولها بين صغير وكبير يصل طوله إلى ذراع، أما في الوادي الكبير الذي يقع على بعد يومين جهة الشمال الشرقي فهو

مليء بها إلى درجة أننا نستطيع أن نمسكها باليد، أيضًا الحبوب متوفرة هنا مثل الحنطة والدخن والغرب والشعير، وجدتها على بعد مسيرة أربعة أيام جهة الشرق، ولدينا مزرعة قريبة من البيت نزرع فيها أنواعاً من الحبوب والخضروات سأريك إياها، أما الفواكه فلسنا بحاجة لزراعتها فكما قلت لك هي متوفرة في الغابات بكثرة.

والأمر الآخر العجيب في هذه الأرض هو ندرة الإصابة بالأمراض التي كنا نصاب بها في بلادنا، بل كادت تلك الأمراض أن تكون معدومة هنا ماعدا الزكام الذي يأتي في برد الشتاء القارص، ربما بسبب نقاء الهواء والماء، وعدم وجود الحشرات الناقلة للأمراض مثل الذباب والبعوض.

بعد أن وصلت لهذه الأرض حاولت اكتشافها، وفي أحد الأيام بعد حوالي ستة أشهر من وصولي اكتشفت كوخا في الغابة كان شبه متهدم، وحينما دخلت وجدت غرفة واحدة ما زالت سليمة نسبياً، كانت مظلمة ونوافذها مغلقة بأخشاب فأشعلت مشعلاً، اكتشفت في تلك الغرفة أشياء لم تخطر على بالي، فقد وجدت سريراً خشبياً في أحد أركان الغرفة ورأيت عليه جسدا مغطى ناديته وصرخت فلم يجب، ثم حركته بعصاي ولم يستجب أيضاً، اقتربتُ وكشفتُ عنه الغطاء ففوجئت برجل ميت قد بلي جسده تماماً ولم يبق منه إلا هيكله العظمي قدرت أنه ذكر استنادا لشكل عظام الحوض، وقدرت أنه ربما مات منذ مائة عام أو

يزيد، قمت بتفتيش للغرفة دقيق فوجدتُ فيها الكثير من الأواني والأدوات بعضها مصنوعة من الخشب المطلي بمادة لها رائحة نفاذة، وبعضها مصنوعة من الحديد عبارة عن سيوف وخناجر وقدور مختلفة الأحجام.

وجدت أيضًا محراثين من الحديد وبندقية صيد قديمة من النوع التي يتم حشو فوهتها بالبارود وكثير من الكرات الحديدية التي تستخدم كذخيرة لها، كانت معظم الأدوات المصنوعة من الحديد في حالة لا بأس بها تحتاج إلى بعض الترميم، والبعض أكلها الصدأ جزئياً والقليل يتفتت بمجرد لمسه بفعل الصدأ.

وجدتُ أيضًا عدة كتب مكتوبة بخط اليد بلغة غريبة لم أفهم منها شيئا، ولكنها تحوي رسوماً بعضها لنباتات وأعشاب ظننتُ أنها لأدوية، ووجدتُ أيضًا برميلاً خشبياً صغيراً يوجد فيه فتحة صغيرة في أعلاه مغطاة بسدادة من الفلين ولما فتحته وجدت فيه مسحوقاً أسوداً له رائحة كريهة، أعتقدتُ أنه ربما يكون دواءً أو نوع من أنواع البهارات؛ فلما تذوقته لم أستسغ طعمه فلما اختبرته بالنار اكتشفت أنه بارود.

كل تلك الأشياء كانت مفيدة كثيرا لي، لكن هناك شيئين غيرا حياتي وجعلاها أفضل، ويسرا لي كثيراً من الأمور في هذه الأرض الموحشة، الأول كان دفتراً مخطوطاً فيه خطوات بلغة غريبة ولكنها مدعمة برسوم

في غاية الدقة توضح كثيراً من الأمور التي يحتاجها الإنسان هنا مثل: كيفية بناء كوخ خشبي، وكيفية صنع نول خشبي لنسج القماش وكيفية غزل الصوف والقطن بخطوات واضحة يتضح في هذا الدفتر –الذي يبلغ عدد صفحاته حوالي مئتي صفحة– الجهد الكبير الذي بذله الكاتب كأنه كان يتوقع أن يستفيد منه أحد، وقد كان في حالة جيدة.

الشيء الآخر: في ركن قصي كانت محفوظة بعناية بين لفات من الجلد ثلاثة مناشير حديدية مختلفة الأطوال والأشكال لقطع الخشب، وعدد غير محدود من المسامير الحديدية والخشبية مختلفة الأشكال وعدة مطارق وفؤوس مختلفة، والعديد من أدوات النجارة المختلفة، كأنها كانت هناك موضوعة –لا يعلم أحد إلا الله كم من الوقت– تنتظر أحدا كي يستخدمها ويعيدها للعمل مرة أخرى، حفرت للرجل قبرا خلف البيت وجدت فيه ثلاثة قبور قديمة اكتشفتُ أنها لنصارى لأن الصليب كان محفورا على شواهد قبورهم، ويوجد عليها كتابات بنفس اللغة التي كتب بها تلك الدفاتر.

دفنتُ الرجل هناك ثم عدت للكوخ كي أصلح من شأنه وتنظيفه وقررت أن يكون مقر سكني بشكل مؤقت حتى أجد مكاناً مناسباً لبناء بيتي، ولكنني فكرت لماذا سأبني بيتاً أسكنه لوحدي؟ لذا تكاسلتُ واكتفيتُ

بتلك الغرفة السليمة وجعلتها غرفة نومي آوي إليها للنوم فقط، وبقية الوقت أقضيه في التجول والصيد واكتشاف أراض جديدة.

قمت بأربع رحلات طويلات، أطولها استغرقت حوالي شهرين كاملين ذهاباً وعودة، الرحلة الأولى: سرت فيها غرباً عشرة أيام حتى وصلت إلى جبال النار، وهي جبال وعرة المسالك تكاد تكون عارية من الأشجار وحتى الأعشاب، وهو أمر رأيته غريباً في هذه الأرض المكسوة بالخضرة الدائمة، اكتشفت فيها جبلا عظيماً يقذف باللهب والدخان الكثيف الذي يبلغ عنان السماء، وتتدفق من فوهة قمته نار مثل السيل الكبير، كان منظراً يبعث الرهبة في النفس لذا أسميتها جبال النار، وجدت كذلك حجارة صفراء هشة لها رائحة كريهة وحينما اختبرتها وجدت أنها كبريت فقمت بخلطها بملح الأرض وهو مسحوق أبيض يوجد في الكهوف[1] وأضفتُ إليهما مسحوق الفحم وبعد عدة محاولات وصلت إلى تركيبة البارود.

الرحلة الثانية: قمت بها بعد الرحلة الأولى بشهر ونصف تقريباً كانت وجهتي نحو الشمال، تتبعت نجمة الشمال[2] وبعد شهر تقريباً كانت طبيعة الأرض مختلفة غابات كثيفة الأشجار ولا توجد فيها مروج خالية

---

[1] يقصد ملح البارود اسمه العلمي نترات البوتاسيوم.

[2] النجم القطبي الموجود في مجموعة الدب الأكبر وهو نجم يشير دائما للشمال الجغرافي.

كما هي أرضي، ووجدت فيها نهرا سريع الجريان من المستحيل عبوره سباحة، وفي الضفة الأخرى توجد قرية كبيرة يحيط بها سور خشبي ضخم مزدوج وعالٍ، عزمت على الوصول إليهم بأي ثمن؛ لذا جدلت حبلا سميكا من أغصان الأشجار وربطت في طرفه حجرا، ثم حاولت رميه على جذع شجرة في الضفة الأخرى على أمل أن يلتف حولها فاستطيع التمسك به والعبور إلى الجهة الأخرى.

ولكن كان هناك فوق الأسوار من يراقب محاولاتي تلك بتوجس، وحينما اكتشفوا أنني أحاول الوصول إليهم أخذوا يصرخون عليَّ بلغة غريبة لم أفهم منها حرفاً واحداً، ثم أخذوا يلوحون لي بأيديهم كأنهم يهددوني، ولكنني ظننتُ أنهم يشجعوني فواصلت محاولاتي البائسة، وحينما رأوا إصراري على عبور النهر، قاموا برميي بالسهام فاختبأت خلف شجرة كبيرة ونجوت بأعجوبة من سهامهم، ثم تطور الأمر وقاموا باستهدافي بالسهام المشتعلة فاشتعلت النار من حولي، فزحفتُ على بطني حتى خرجت من مدى سهامهم وأقسمت ألا أعود إلى هؤلاء الهمج مرة أخرى وحمدت الله أنهم بعيدون جداً عن مكان بيتي.

مكثتُ ساكناً في بيتي لمدة شهر ثم سافرتُ شرقاً فوصلت بعد عشرين يوماً إلى مكان تحيط به جبال عالية شامخة كالجدران قممها مستدقة كأنها أنصال الرماح ولا سبيل لتسلقها، وقفت أمامها متحيرا وأيقنت أنني لم

أجن أي فائدة من هذا العناء، ولكنني غيرت رأيي بعد ذلك، إذ خرجت بفائدة عجيبة فقد وجدتُ بركة ضخمة من مياه سوداء لزجة لها رائحة مثل رائحة القطران، أخذتُ منها قليلاً ثم أشعلتها فاشتعلت بنار يصاحبها دخان أسود كثيف، فاستنتجت أنني حصلت على مادة النفط، فأخذت منها ما استطعت ثم عدت إلى بيتي.

هذه المرة لم أمكث كثيراً في البيت عشرة أيام فقط ثم يممت وجهي نحو الجنوب، كانت هذه الرحلة مضنية وصعبة لأن الطريق كان وعراً جداً، كان الطريق عبارة عن جبال تسلمك إلى جبال أخرى، سلسلة من الجبال على مد البصر لا تنتهي، لم أجد إلا الجبال المتعانقة، ولكنني حصدتُ كثيراً من الدروس والفوائد.

فقد وجدتُ عيناً في إحدى الجبال تسيل بمادة سوداء وكثيفة مثل العسل، لها رائحة كريهة كأنها فضلات بشرية، فأخذت منها عينة كي أعرف صفاتها وفوائدها، وبعد هذه الرحلة بعدة أشهر اكتشفتُ أن هذه المادة فعالة جداً في الإسراع باندمال الجروح والحروق وشفاء الأمراض الجلدية، وفي هذه الرحلة اكتشفت أيضًا اكتشافاً مهما وهو أنني وجدتُ عرقاً ضخما من العروق السطحية لمعدن الذهب، الذي كان موجودا في أحد الجبال الغنية بالصخور الرخامية وكان يبعد عن بيتي خمسة أيام؛ فحفظت المكان جيداً وأخذت منه عينات، وقد استطعت بعد ذلك

فصل الذهب النقي وصنعت سبيكة منه ومن القليل من النحاس الأصفر ثم صنعت منه سلاسل لأمي وزوجتي.

ثم صاح: يا هلال اذهب لجدتك وقل لها أبي يريد أن يُري سعيدا سلسلتك الذهبية، عاد الطفل بعد لحظة وفي يده سلسلة ذهبية تتلألأ، تفحصها سعيد فوجدها ثقيلة ويبلغ طولها حوالي ذراعين مكونة من حلقات صغيرة متداخلة يمكن أن تُلف حول العنق عدة لفات ويبدو من صناعتها أنها ليست لصائغ محترف، قال سعيد ما شاء الله عمل رائع مع أنه غير متقن نظرا لقلة خبرتك، وعدم وجود الأدوات المناسبة لكنك قمت بعمل رائع وجميل، أعاد مقبل السلسلة إلى هلال وقال له: أعدها إلى جدتك.

سكت قليلاً وأخذ مجةً من القهوة السوداء التي قد أصبحت باردة، ثم قال بعد ذلك توقفتُ عن الرحيل والتجوال فشعرتُ بفراغ هائل، كذلك الفراغ الذي نشعر به بعد انتهاء موسم الحصاد وتخزين الحبوب، كنت أقضي معظم وقتي بالنوم أو بالصيد أحياناً، وفي يوم ما قلت لنفسي لماذا لا أحاول أن أعيد هذا الكوخ إلى سابق عهده، لدي الأدوات اللازمة، ولدي ذلك الدفتر الذي فيه المخططات والرسومات والوقت الكافي.

قمت للتو وشرعتُ في تنفيذ الفكرة فذهبت لأقرب غابة ومعي المنشار الكبير، ثم اخترت عدة أشجار قوية ومتينة الخشب وخالية من العفن، وبدأت العمل وفي خلال ثلاثة أشهر تقريباً أصلحت غرفتي وغرفتين بجوارها، وأصلحت المطبخ والحمام والموقد والمدخنة، وبنيت كوخا صغيرا خلف البيت اتخذته كمخزن، نقلت إليه كل الأدوات التي وجدتها في غرفة ذلك الميت، ثم ذهبت إلى الجبال واستخرجت الكلس وصنعت منه مادة النورة التي تستخدم كطلاء للجدران وطليت جدران البيت الداخلية، وبعد أن انتهيت كان الكوخ جميلا وواسعاً فأعجبت بعملي مع أن يدي كانتا تنزفان من الإصابات التي لحقت بهما أثناء العمل، تذكرت تلك المادة اللزجة التي وجدتها في الجبال الجنوبية؛ فحدثني حدسي أنها ربما تكون نافعة لمثل هذه الإصابات، فجربتها فهدأت الألم على الفور وفي خلال ساعات كانت يداي قد تحسنتا.

جلست في تلك الليلة في غرفتي مستمتعاً ببيتي الجديد، كنت راضياً عن نفسي وعن عملي مع أنني كنت أتساءل عن جدوى عملي هذا، غفوت طويلا ثم صحوت قبل بزوغ الفجر صليت ثم تلوت أذكاري وعدة صفحات من القرآن الكريم، وبعد شروق الشمس بقليل عدت للنوم مرة أخرى، كنت منهكاً من أثر العمل المتواصل.

لا أعلم كم مر عليّ من الوقت، ولكنني صحوت على جلبة غريبة في الخارج، كنت أسمعها وأظن أنني أحلم، كانت أصواتاً صاخبة لبشر وبكاء أطفال وأصوات ماشية خراف وماعز ودجاج وديكة تصيح، ربما من أثر النوم أو الإنهاك أو عنصر المفاجئة لم أتبين لمن كانت تلك الأصوات البشرية؛ فقلت في نفسي لعل أولئك الهمج قد تبعوني إلى هنا وهم يرغبون في الانتقام مني وقتلي ويحاولون أخذ بيتي، لكن لماذا أتو بأطفالهم ونسائهم وحيواناتهم؟

أمسكت قضيبا من الحديد استعداداً للعراك وقلت في نفسي يا قاتل أو مقتول، ثم فتحت الباب بحذر، كانت الشمس ساطعة تبهر العيون فلم تتشكل الصورة واضحة، ولكنني سمعت شهقة نسائية عالية وصوتاً مألوفاً ينادي باسمي في لهفة، وفجأة فهمت الموقف، كانت مفاجأة، أجمل مفاجأة في حياتي كلها، لقد كانوا هنا أمامي جميعاً، كل من في البيت، بل وكل ما في البيت كلهم أمامي، أبي الحبيب وأمي الحنونة وزوجتي وأطفالي، وحيوانات البيت كلها حتى الدجاج وفراخها، وكان خلفهم تتكوم على شكل تلة صغيرة فيها كل أدوات البيت، لم يتركوا شيئاً في البيت إلا وأحضروه، ولو كان بإمكانهم أن يقتلعوا البيت ويأتوا به هو أيضًا لفعلوا.

حينما شاهدتهم أمامي لم تقوَ قدماي على حملي فتهاويت على عتبة بيتي، أما هم فقد اندفعوا إلى وعانقوني وهم يجهشون بالبكاء وأنا أشاركهم بالنحيب، كان هذا اللقاء آخر ما توقعته، لذا فقد فهمتُ بعد ذلك قصد الذين حاكموني "بالامتيازات"، كانوا يقصدون جمعنا بعائلتنا ولكن بعد أن نهيئ لهم المسكن الملائم، نعم لقد فهمت ولكن بعد وقت طويل مضت سنتان وأنا أتخبط كأنها العمر كله.

-16 -

البيت الأزرق الجميل

أوقفه سعيد عن الحديث وأمسكه من كتفيه وقال بانفعال: ماذا يعني هذا؟ هل يعني أنني سأرى عائلتي كلها عن قريب؟ هل سأجتمع بعائلتي مرة أخرى؟ هل هذا هو ما تقصده؟

قال مقبل: هذا أكيد بإذن الله ستجتمع بعائلتك، لكن بشرط أن يكونوا قد قالوا في حكمهم عليك أنك ستمنح تلك الامتيازات، بعد أن وصلت عائلتي فهمتُ أن الامتيازات التي تحدثوا عنها كانت مجيئهم بعائلتي، قال سعيد في لهفة: إذاً ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ بماذا تنصحني؟ قال مقبل أنصحك أولاً بأن تأخذ الوقت الكافي في اختيار البقعة المناسبة لبناء بيتك، ثم بعد ذلك نبدأ في بناء البيت، أعتقد أنه سيكون أفضل من بيتي، قال سعيد: لماذا؟ قال: لأنني عندما بنيت بيتي لم أكن كما أنا الآن، أنا الآن أصبحتُ أكثر خبرة في هذه الأمور، قال سعيد: أنا لا أعلم كيف أشكرك، والله أنك أزحت عن كاهلي جبلاً، كاد يطبق على ما بقي لدي من أمل، فقال له: لا عليك هذا واجبي لو كنت مكاني لفعلت أكثر مني، لكنني أنصحك بالآتي: ألا يجعلك تلهفك

للقاء أهلك تستعجل في اختيار المكان، لأن المكان له أهمية كبيرة، فيجب في المكان الذي سوف تختاره أن يكون بعيداً نسبياً عن بيتي، كي يكون لك الخصوصية الكاملة والمسافة الكافية كي تستطيع في المستقبل التمدد والتوسع في كل الجهات.

هذه الأرض يا صديقي بطولها وعرضها ومواردها كلها لنا لا ينازعنا عليها أحد، ثم يجب أن يكون بيتك بعيدا عن الغابات والأشجار الكبيرة بمسافة آمنة؛ لأن الرياح والعواصف وأحيانا الأعاصير العاتية تسقط تلك الأشجار بل وتقتلعها من جذورها؛ فإذا كانت قريبة من البيت قد تسقط عليه، وأيضا ينبغي أن يكون على ربوة مرتفعة عن الأراضي التي حولها، لأن الثلوج التي تتراكم في الشتاء تذوب في فصل الصيف فيرتفع منسوب المياه في الجداول، وقد يغرق بيتك إذا كان مبنياً على أرضٍ منخفضة، ويجب أيضًا أن يكون بجوار بيتك نبع ماء أو جدول جارٍ، كي تستفيد منه في شؤون حياتك و سقيا مواشيك وري نباتاتك، واحرص أن تكون الأرض التي ستبني عليها بيتك أرضاً صلبة وليست طينية؛ لأن الأرض الطينية عندما تتشبع بالماء تتداعى وقد يحدث انجراف للتربة وينهدم بيتك، خذ وقتك يا صديقي وتجول في الأرض وقم باختيار أرضك بعناية، وإذا أردت مني أي مشورة أو مساعدة فهذا يسعدني، وإذا أحببت أن يرافقك أبي أو ابني الكبير هلال فلا مانع عندي.

قال سعيد: لك مني جزيل الشكر، أنا في الواقع ممتن لك أعظم الامتنان، لا أعلم كيف سيكون حالي لو لم تكن بجواري ولم تسدِ إلي نصائحك، كنت سأتوه لسنوات لا يعلم مداها إلا الله، لكنك سهلت لي أموري كلها؛ فرعاك الله وجزاك عني خير الجزاء، من غدٍ إن شاء الله سأبدأ في البحث عن البقعة المناسبة وأتمنى أن يكون عمي الحاج مسعود قادراً على مرافقتي، قال الحاج مسعود: يسعدني كثيرا مرافقتك يا ابن أخي، أنا لا أكتمك سرا أنني ارتحت لك من أول وهلة، صافحه سعيد وقبل يده حسب التقاليد المعمول بها في بلاده، إذ لا حرج من تقبيل أيدي كبير السن، ثم قال: إذن على بركة الله، قال مقبل: نحن جهزنا لك غرفة مستقلة ودافئة بجوار الكوخ ستقضي فيها أيامك حتى يتم الانتهاء من بناء بيتك، اذهب الآن للراحة في غرفتك وغدا بعون الله بعد تناول طعام الصبوح ستبدأ في عملك، لذا لا تتعجل واختر مكان بيتك بعناية.

في اليوم التالي بدأ سعيد في البحث عن المكان المناسب لبناء بيته المستقبلي وكانت نصائح الحاج مسعود تساعده في مسعاه، استغرق منه ذلك الأمر ستة أيام حتى استقر رأيهما على المكان المناسب، وفي اليوم السابع ذهب مقبل برفقة ضيفه سعيد ومعهما الحاج مسعود كي يأخذ رأيه في مدى مناسبة المكان؛ فأعجب به مقبل ورأى أنه مطابق للمواصفات التي أخبره عنها سابقاً، فشجعه على المضي قدماً، وقال

له: من غدٍ أن شاء الله سوف نبدأ بخطوات البناء، وأول خطوة هي تخطيط البيت على الورق ثم تخطيطه على أرض الواقع.

ضحك سعيد وقال: وأين سنجد ورقاً في هذه الأرض؟ ثم قال: أريد أن يكون مثل بيتك بحيث تكون غرفة نومي وغرفة أمي وغرفة الأولاد والبنات جهة الجنوب أو الغرب أو الشرق أما غرفة الجلوس والتي تحتوي على المدفأة فلا بأس أن تكون جهة الشمال، أخذ مقبل عودا وسوى بيديه الأرض أمامه وقال له تخطيط بيتي هو هكذا وأخذ يخط بالعود على الأرض، ولما اكتمل المخطط على الأرض أخذ سعيد ينظر إليه، ثم قال: جميل، أعجبني لكن لا تنس أن لدي ثورا وبقرة وحمارا وخرافا وأغناما، قال مقبل: لم أنس، أنا أيضًا لدي عريشا للأبقار وحضيرة للأغنام ومداجا للدجاج، هذا كله وضعته في حسابي، سوف نبدأ العمل من غدٍ أن شاء الله.

في اليوم التالي بدأوا بالعمل وتعاونوا جميعاً حتى الصغار كان لهم دور يقومون به، فاختاروا الأخشاب التي من النوع القوي الفاخر وقاموا بتقطيعها وتشذيبها، ثم قاموا بحفر الأساس، وبدأوا بتشييد البيت، استغرق منهم ذلك العمل خمسة وعشرين يوماً متواصلة، يبدأ يومهم بعد شروق الشمس حتى قبيل الغروب، كانوا يتناولون جميع وجباتهم في الموقع ما عدا الصبوح في بيت مقبل، بقي سقف البيت فقط لذا أخذوا

راحة لعدة أيام، ثم واصلوا جهودهم في تجهيز أخشاب خاصة لسقف البيت، ثم عزله من الأمطار والرطوبة بطليه بالنفط الثقيل اللزج الذي أتو به من برك النفط الذي اكتشفه مقبل سابقاً، أكتمل سقف البيت على شكل هرم رباعي القاعدة، وقاموا باختبار قدرته على عدم تسريب الماء وسكبوا كميات كبيرة من المياه، كانت النتيجة مُرضية.

اختار سعيد لبيته اللون الأبيض والأزرق الفاتح بحيث يكون الجزء السفلي منه أبيضاً والعلوي أزرقاً سماوياً، وبعد أن اكتمل البناء تماماً، جاء البيت آية في الجمال والروعة كأن من قام ببنائه مهندس مبدع وبنائين محترفين، كان البيت يتألق في ضوء الشمس بينما هم ينظرون في إعجاب للتحفة التي صنعتها أيديهم، كانت أرضية البيت كلها مكسوة بخشب أحمر لامع مطلي بشمع العسل المصهور لذا كانت رائحته الزكية تعبق داخل البيت.

بعد أن اكتمل بناء البيت قال سعيد: افترض يا مقبل أنهم لم يعطوني الامتيازات التي أعطوك إياها ولم يذكروها أصلاً ولم تأتِ عائلتي ماذا نفعل؟ قال مقبل: في هذا الحال أنت لست خاسراً فقد أصبح معك بيتاً جميلاً وسنبحث لك عن زوجة حسناء، ثم ضحك، استغرب سعيد وقال: لا تمزح فهذه الأمور لا يصح معها المزح، ثم أنني لا أريد إلا أن أجتمع مرة أخرى بزوجتي وأمي وأطفالي.

ثم من أين ستأتي لي بزوجة في هذا المكان الذي لا يوجد فيه أحد؟ قال مقبل وهو مازال مستغرقاً في الضحك: سؤالك هذا يعني أنك جاد؟ قال سعيد: لا لست جادا، أنا لا أريد إلا أن يجمعني الله بعائلتي ولكنني أجاريك وآخذك على قد عقلك كما يقولون. قال مقبل وضحكه يشتد: لا تقلق أبداً الحل بسيط سنذهب سوياً إلى مستوطنة الهمج ونتربص هناك حتى نرى فتاة جميلة ممشوقة القوام ثم نقوم باختطافها ونزوجك إياها واستغرق بالضحك، قام سعيد برميه بغصن شجرة كان في يده ولكن مقبل استطاع أن يتفاداه فلم يصبه فهجم عليه سعيد وهو يقول: أنا سعيد عبدالواسع المطنن على آخر الزمن تريد أن تزوجني بهمجية، ثم احتضنه وأخذ يحاول أن يطرحه أرضاً ومقبل يقاومه وهو مازال مستغرقاً بالضحك، فاستطاع سعيد أن يطرحه أرضاً ويشل حركته، فقال مقبل وهو يضحك: حسناً أنا أستسلم، فأفلته سعيد، فقال له مقبل وهو ينفض ثيابه من التراب العالق بها: أنا المخطئ كنتُ أريد أن أساعدك في تحسين نسلك وتقوم بعملية تهجين ولكنك لا تستحق ذلك، أمسك به سعيد واحتضنه ولكن هذه المرة كان هو المستغرق بالضحك، فقال مقبل: حسناً حسناً لا بأس لا أحد يستطيع أن يجبرك على الزواج بهمجية.

سكتوا قليلاً كي يستردوا أنفاسهم بعد ذلك المزاح وجولة المصارعة تلك، ثم قال سعيد: والآن بعد انتهى البناء الذي استغرق منا شهرا

وعشرين يوماً ما الخطوة القادمة؟ هل سأنام هذه الليلة في بيتي؟ فقال مقبل ليس بعد، يجب أن تنتظر حتى يجف الطلاء الداخلي والخارجي، ثم إن أم هلال ترغب في إعطائكم هدية متواضعة، فقال سعيد جزاكم الله خيرا لا داعي لذلك، يكفي ما قد قدمتموه لي من جميل ومعروف، والله لا أدري كيف أرده، سأظل أتذكره وأدعوا الله لكم طوال عمري، قال مقبل أولا لم نعمل شيئاً يستحق كل ذلك، فما فعلناه هو واجبنا نحو جارنا الجديد كم كنت أتمنى وأدعو الله أن يرزقني بجار طيب فاستجاب الله دعائي، ثانيا هذه الهدايا التي أحدثك عنها ضرورية ولن تستطيعوا العيش بدونها، قال سعيد: لا نستطيع العيش بدونها؟ كيف ذلك؟

قال مقبل انظر يا سعيد لم يبق لفصل الشتاء ونزول الثلوج إلا القليل ربما أقل من شهرين، وسوف تختفي معالم هذه الأرض وتكتسي بحلة بيضاء، ولابد من توفر أغطية من صوف الكبش الجبلي كي تقيكم من البرد القارس، هذه الأرض بردها قاسٍ وستكتشف بنفسك أن برد هذه الأرض لم يمر عليك مثله قط، ولابد من أغطية وملابس ثقيلة تكفيكم جميعاً، وأم هلال قد أخذت احتياطاتها لهذا الأمر منذ أن وصلت إلى كوخنا وعرفت قصتك، وقد جهزت حتى الآن أربعة أغطية صوفية أنا متأكد أنها ستعجبك كثيراً، إذا تغطيت بها في برد الشتاء ستشعر بالدفء حتى أنك ستتعرق، قال سعيد: حسناً متى إذن سأنتقل إلى كوخي؟ ضحك مقبل وقال: ما بك يا سعيد يبدو أن صبرك قد نفد؟

أنا صبرت سنتان وثلاثة أشهر، قال سعيد: وأنا مرت علي سنة تقريبا، في تلك الزنزانة كنت فيها على شفا الجنون، مرت علي كأنها عشر سنوات، دخلت ولم يوجد في رأسي شعرة بيضاء واحدة، والآن انظر كم يوجد في رأسي، يوجد منها الكثير، ما مررتُ به يا مقبل ليس قليلاً، ثم أنني غير متأكد من نجاح هذه التجربة فقد لا يأتون، قال مقبل: اجعل ثقتك بالله كبيرة سيأتون إن شاء الله، اصبر ثلاثة أيام فقط وسيكون البيت جاهزاً لاستقبالك واستقبال ضيوفك.

مرت الأيام الثلاثة كسنوات ثلاث، كانت كل أحلامه تتمحور حول حضور أهله أو عدم حضورهم، كانت بعض الأحلام تسعده وبعضها تجعل قلبه ينقبض، كان يحلم حتى وهو يقظان بأنه اجتمع مع عائلته، فيتخيل كيف سيستقبلهم؟ وماذا سيحكي لهم عن المعاناة التي مر بها؟ وبعض الأحيان يتخيل أنهم لن يأتوا كيف سيكون حاله عندئذٍ؟ هل سيعيش وحيداً ما بقي له من عمره؟ كان كل يوم يأتي إلى كوخه ويقف أمامه ويقول في نفسه لو لم يأتوا فإنه سيهجر هذا الكوخ وسيعيش سائحاً متجولاً في ربوع هذه الأرض، كان أقسى ما قد يحدث هو أن يفقد عقله من أثر الوحدة والوحشة التي سيشعر بها.

في الليلة الثالثة نقل أدواته وسار مع مقبل حتى وصل إلى كوخه قبل الغروب بقليل، وعندما دخل شم رائحة زكية تفعم أنفه، كان هناك

الكثير من أكاليل الورود والنباتات العطرية التي تنفث أريجها في أرجاء البيت في هدوء، ورأى أيضًا الأغطية التي صنعتها أم هلال فأعجب بها كثيراً وشهد لها بالمهارة الفائقة في النسج والحياكة، تجول هو ومقبل قليلاً في البيت ثم أستأذنه مقبل في العودة إلى بيته قبل أن يدلهم الظلام، فعانقه سعيد وأعرب عن عميق شكره وامتنانه له ولزوجته، ثم ودعه وقبل أن يغلق الباب خلفه قال له: هل تظن يا مقبل أننا سنقضي بقية أعمارنا في هذه الأرض؟ هل تتوقع أنه قد يأتي يوم نعود فيه إلى بلادنا؟ التفت إليه مقبل وقال: لا أعلم يا صديقي ماذا يخبئ لنا القدر، ربما نعم وربما لا، وفي كل الأحوال نحن سلمنا أمرنا لله فليفعل بنا ما يشاء، فإذا كانت إرادته تقتضي بقاءنا فقد اختار لنا الخير، وإن كانت إرادته تقتضي عودتنا ففي هذا أيضًا خير، ما يختاره الله لنا دائما فيه الخير وإن خفيت علينا الحكمة منه، تصبح على خير يا صديقي.

أدى سعيد صلاتي المغرب والعشاء وأكل بعض الخبز والجبن والعسل الذي أتى به مقبل وزوجته وشرب فنجانا من القهوة المرة الخالية من السكر، ثم وضع رأسه على وسادته وراح في سبات عميق، صحا بعد فترة ففز قائما ظناً منه أن الصباح قد انبلج ضوءه، فنظر من النافذة فوجد أن الظلام مازال دامساً، فعاد إلى فراشه محاولا العودة للنوم ولكن النوم جافاه، فقام وتوضأ ثم أخد يصلي ويتهجد ما شاء الله له، ثم رفع كفيه ودعا الله وابتهل يرجوه أن يجمعه بأهله في صباح هذا اليوم، وأخذ

يلح في الدعاء حتى شعر بالثقل في رأسه فنام على سجادته وهو في الوضع الجنيني، نام نوماً عميقا خالياً من أي كوابيس أو أحلام.

استيقظ من نومه واستوى جالساً وهو ينظر إلى النافذة المغلقة فرأى ضوء الشمس وهو يتخلل مصراعيها فأصاخ بسمعه لعله يسمع أي أصوات في الخارج، لكن الهدوء كان مخيماً، ذهب وفتح الباب ونظر فأصابته خيبة الأمل في مقتل، شعر كأن قلبه ينخلع من مكانه وأصبح صدره خالياً فارغاً لا قلب فيه، شعر أن الهواء من حوله أصبح ثقيلاً كأنه يأبى أن يقوم بوظيفته في مده بالأكسجين، شعر بقدميه كأنهما لا تستجيبان لأوامره.

استجمع قواه من أنحاء جسده المتخاذل، وتحرك خارج الكوخ لعلهم موجودون في الخلف، كان نور الأمل يخبو حيناً ويشتد حيناً آخر، وصل إلى الساحة التي أمام الكوخ عازماً أن يبحث حوله، ولكنه لاحظ أن هناك آثار أقدام كثيرة في تلك الساحة، استغرب وتساءل هل هذه الآثار قديمة أم حديثة؟ هل تعود إليه وإلى مقبل أم هي لأم هلال وأبنائها حينما جاءوا بالأغطية؟ كانت آثار الأقدام مختلطة ببعضها صغيرها وكبيرها، ولكنه لم يستطع أن يحدد لمن هي؟ لا يتذكر أنه رءاها حينما جاء البارحة قبل الغروب، أو لعله لم يدقق في النظر إلى الأرض في ذلك الحين، لذا لم تزده تلك الآثار إلا حيرةً إلى حيرته.

عزم على الذهاب إلى مقبل لعله يرشده ويهدئ من روعه، وبينما هو يسير في الطريق شاهد شيئاً جعله يتوقف ثم يهوي إلى الأرض والتقط شيئاً وأخذ ينظر إليه باهتمام، كان ذلك الشيء هو فردة جورب مما يلبسه الأطفال الرضع، قال في نفسه هذا الجورب رأيته من قبل لكنني لست متأكداً أين رأيته؟ هل رأيته في قدم طفلتي سلوى أم في بيت صديقي مقبل؟ أخذ يشم الجورب كانت الرائحة مألوفة له، زيت السمسم هي الغالبة وعادة ما يستخدم في دهان أجساد الأطفال الرضع، لم يستطيع أن يحدد لمن هذا الجورب لذا وضعه في جيبه وواصل سيره.

في منتصف الطريق رأى طيف صديقه مقبل يلوح من بعيد، فأسرع مهرولاً وقام مقبل بالهرولة نحوه حينما رآه، كان مقبل يعلم أن صديقه في حالة يرثى له، لذا حينما التقوا احتضنه وأخذ سعيد يردد: لم يأتوا يبدوا أنهم لن يأتوا، لم يعطوني الامتيازات التي تحدثت عنها يا مقبل، قال له مقبل: بل سيأتون أقسم لك أنهم سيأتون، لعلهم الآن بالطريق، أو ربما غداً أو بعد غد المهم أنهم سيأتون، لا تكن سريع اليأس أعرف أنك صلب المراس لا تلين ولا تهون أمام الصعاب بل هي التي تلين أمامك وتنثني أمام إصرارك وعزيمتك الصلبة.

تعال نذهب إلى بيتي كي نتناول الصبوح معاً ونناقش هذا الأمر، ساروا وفي الطريق قال سعيد: وجدتُ أمام البيت آثار أقدام كثيرة كبيرة وصغيرة هل كانت موجودة بالأمس حينما أتينا سوياً؟ قال: لم ألاحظ ذلك، قال سعيد: قد تكون لنا أو لزوجتك وأطفالك حينما أتوا بالأغطية؟ قال: ربما لست متأكداً، فقال سعيد: حسناً هذه الفردة من الجورب لمن هي؟ قد تكون لطفلتك؟ قال مقبل وهو يتفحصها: لا أعلم بالضبط قد تكون كذلك.

ساروا صامتين لمسافة قصيرة ثم فجأة توقف مقبل وضرب على رأسه بيده وكأنه نسي أمراً مهماً ثم تذكره للتو، فقال سعيد: خيراً إن شاء الله ماذا نسيت؟ هل تذكرت أمراً مهماً؟ قال: نعم نسيت أن أخبرك شيئاً مهماً، قال سعيد وما هو؟ قال: فارق التوقيت، ردد سعيد: فارق التوقيت ماذا تقصد؟ قال مقبل: اسمع يا صاحبي بعدما وصل أهلي بفترة سألتهم متى خرجتم من البيت؟ فقال أبي: بدأنا نسمع ضجة غريبة داخل البيت وخارجه قبل منتصف الليل بقليل، وبعد ذلك بلحظات كنا مقيدين، ولكن بدون حبال نحاول التحرك ولكن بلا جدوى، ثم لاحظنا أن الأشياء التي كانت حولنا تختفي بشكل غريب وسريع، كان الساعة المنبه أمامي وفي تمام الثانية عشرة انتشر دخان رمادي، ثم انطفأت جميع الفوانيس ولم نشعر بعد ذلك بأي شيء كأننا غبنا عن

الـوعي أو دخلنـا في حالـة مـن النـوم الثقيـل، ثم صـحونا أمـام بيتـك والشمس الساطعة تبهر عيوننا.

سكت مقبل ثم قال: هل تعرف يا صديقي ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أن هناك فارقاً في الوقت بين بلادنا وهذه الأرض، قال سعيد هل تقصد مثل إذاعة لندن عندما كنا نسمع المذيع يقول الساعة التاسعة صباحاً حسب توقيت جرينيتش، بينما كان الوقت عندنا هو الثانية عشرة ظهراً؟ هل هذا هو ما تقصده؟ قال: نعم هذا ما أقصده بالضبط، فإذا كانت الرحلة استغرقت لحظات كما شعر بها أهلي فهذا يعني أن فارق التوقيت بيننا هو ست ساعات، من الثانية عشرة منتصف الليل وحتى السادسة صباحاً، وهذا يعني أيضًا أن بلادنا بعيدة جداً عن هذه الأرض، أبعد من المسافة ما بين بلادنا ولندن، أما الاحتمال الآخر أن الرحلة استغرقت ست ساعات كان فيها أهلي غائبين عن الوعي فهذا يعني أيضًا نفس المعنى السابق مع الفارق طبعاً بين الحالتين وإن كان الفارق ليس مهماً.

ظل سعيد مستغرقاً في التفكير لوهلة من الزمن ثم قال: هل تقصد بكلامك هذا أن أهلي ربما يكونون الآن في الطريق إلينا؟ قال: نعم هذا ما أردت أن تفهمه، لأنهم قد يكون تأخر خروجهم من بلادكم ربما بعد أو قبل صلاة الفجر، وهذا يعني أيضًا يا أخي أن تعتصم بالصبر وتلوذ

برحمة الله ولطفه وألا تستعجل، قال سعيد: نعم فهمت قصدك ولك حق، فأنا والصبر صنوان منذ زمن بعيد، فقد صبرت سبعة أشهر حبيساً بين جدران صماء لم أقابل أو أكلم فيها أحداً، وثلاثة أشهر هنا فلا ضير أصبر ساعات أخرى أو حتى أياماً، أستأذنك سأعود إلى البيت انتظر حتى يصلوا، قال مقبل : لا بل نذهب إلى بيتي كي نتناول الصبوح[1] هناك ثم تعود إلى بيتك بعد ذلك، قال سعيد: اعذرني لا رغبة لي بالأكل، ربما أصنع لي فنجاناً من القهوة وآكل شيئاً من الخبز الذي أتيتم به البارحة وقليلاً من الجبن والعسل، اسمح لي الآن بالذهاب، قال مقبل: في أمان الله وحفظه، تولى مقبل سائراً باتجاه بيته وهو يقول في نفسه: يا لغرابة هذا الرجل بالرغم من شجاعته وجرأته وقدرته على الصبر والصمود أمام المحن إلا أن لديه عاطفة جياشة تجاه عائلته، كان يعرف جيدا الخواء الأعمى المباغت بعد انفصال المرء عن روابطه، لكنه رجل يُألف بسهولة، بساطته ونقاء سريرته وطيبة قلبه مميزات يندر أن تجتمع في شخص واحد، اعتقد أنني محظوظ بالحصول على صديق وجار مثله.

عاد سعيد إلى كوخه الأزرق الجميل وأدى صلاة الضحى ثم أشعل النار في الصُعد[2] وصنع له كوباً من القهوة المركزة ووضع فيه قطعة من

---

[1] وجبة الإفطار.

[2] الموقد على الأرض مكون من ثلاثة أحجار توضع علية القدر ثم يشب تحتها نار الخشب

السكر الأحمر، جلس بجوار النافذة وأخذ يحتسيها ببطء وتلذذ، وقال لنفسه: كل هذه الأشياء حصلت عليها من مقبل، هذا الرجل صديق قلَّ أن يوجد مثيل له في هذا الزمان كم أنا محظوظ أن رزقني الله بجارٍ وصديق مخلص مثله، ثم جعل ينظر للطريق الذي ينتهي أمام باب بيته، سرحت به أفكاره بعيداً، وتخيل أن أسرته وصلت إلى هنا فكيف سيستقبلهم ويستقبلونه؟ وبعد ذلك كيف ستكون حياتهم هنا؟ هل سيحبون هذه الأرض وسيرتاحون فيها؟ وهل سيتأقلمون مع أسلوب الحياة هنا؟ كما قال مقبل أن البرد هنا قارس والثلوج تغطي كل شيء لمدة ثلاثة أشهر؛ فهل سيتحملون هذا الطقس القاسي؟ شعر بثقل في رأسه فسحب جسده واستلقى على قعادته[1] ثم راح في سبات عميق على أمل أن يصحو على واقع يشتاق إليه وأصوات يحبها.

أفاق من النوم قبيل الظهر وأصاخ بسمعه فلم يطرق أذنه إلا الصمت، وغير صوت ريحٍ تهب وحفيف الأشجار في الغابة القريبة، أسرع إلى الباب وفتحه فلم ير شيئاً، عاد يجر أذيال الخيبة، ثم أدى صلاة الظهر، ثم خرج إلى الغابة وأخذ قوسه ونشابه الذي صنعه له مقبل وعلمه كيف يستخدمه، وأخذ يتجول في الغابة لعله يصطاد شيئاً يصلح أن يكون ضيافة للضيوف الذين يترقب وصولهم في لهفة وشوق، كان يأمل أن

---

[1] القعادة: هي السرير المصنوع من الخشب والليف المجدول، منشر استخدامها في بلاد تهامة.

يصطاد غزالاً كبيراً يصلح أن يكون وليمة فاخرة، ولكنه لم يصطد سوى أرنب ماء مكتنز وأرنباً برياً ودجاجة برية.

عاد بطرائده إلى بيته وهو يأمل أن يجدهم متجمهرين أمام البيت، ولكنه عندما اقترب من بيته لم يجد إلا مقبلاً جالساً على قارعة الطريق أمام الباب، أسرع الخطو لعل مقبلاً لديه أخبار جديدة، وحينما اقترب منه قال له: ما الأخبار؟ وفي نفس الوقت قال مقبل: ما الأخبار؟ كان كل واحد يظن أن الآخر لديه من الأخبار ما ليس لديه، ولكن لا جديد، كان مقبل قد أتى بغداء لصاحبه فجلسا يأكلان بعد صلاة العصر وفي أثناء ذلك قال سعيد وهو يشعر بغصة في حنجرته: لقد تأخروا كثيراً يا مقبل أخشى.... قاطعه مقبل: لا تخشى شيئا يا سعيد، أنت من نوع الرجال الذين لا يخشون إلا الله، سيأتون يا صاحبي ولن تظل وحيداً فريداً بقية حياته أطرد هذه الأفكار المؤذية من بالك، ثق بالله أنهم سيكونون هنا قريباً، لكن لا بد أن تضع في حسبانك أمراً مهماً.

قال سعيد وما هو؟ قال: هذا الأمر هو أن وضعك مختلف عن وضعي فلا تقس الأمور بما حدث معي، قال سعيد: كيف ذلك ولماذا؟ قال: وضعك مختلف عني كثيراً يا سعيد، أنت ربما شكلت تهديداً مباشراً وقوياً لأولئك القوم الذين حبسوك سبعة أشهر، وقد أخبروك بأسرار لم يخبروني بها، وأنت أيضًا وصلت في ذلك النفق إلى مسافة قريبة جداً من سرهم

الأعظم؛ لذا فهم يتعاملون معك بطريقة تختلف عني، أنا حينما دخلت ذلك الباب لم أجد أمامي إلا نفقاً مسدوداً، ولم أظل فيه إلا ساعات قليلة، ثم محاكمة سريعة أفضت بي إلى هذا المكان، لذا أعتقد جازماً أن الأمر سيطول معك أكثر مما طال معي، ربما لأنني لم أفهم معنى الامتيازات إلا بالصدفة بعد أن مكثت تائهاً لمدة سنتين ثم قمت ببناء البيت، أما أنت فقد قمت ببناء بيتك سريعاً لم يستغرق منك سوى ثلاثة أشهر فحسب، لذا لابد أن تأخذ في حسبانك جميع الاحتمالات.

سيأتون يا سعيد أنا أشعر بذلك وأنا حدسي لا يخيب في غالب الأحيان وهذه إحدى قدراتي التي لا تعرفها، قال سعيد: إذن يا مقبل اسأل حدسك الذي لا يخيب متى سيأتون؟ ضحك مقبل وضرب بيده على فخذ سعيد وقال: وهل ستصدق حدسي؟ قال سعيد: وهل لي خيار آخر؟ سكت مقبل ثم أخذ يتلفت في أرجاء الغرفة كأنه يتهرب من نظرات سعيد المصوبة نحوه تنتظر منه ما يروي غليلها، ثم عاد لينظر في وجه سعيد وقال له في ثقة: سبعة أيام.

جحظت عينا سعيد وهو يقول: تقصد انهم سيأتون في اليوم السابع، قال: لا، ولكن في اليوم الثامن وأدخل هذا اليوم في حسابك، قال سعيد: بعد سبعة أيام من الآن؟ قال: نعم، قال: ومن أين لك كل هذه الثقة؟ هل هو وحي أم إلهام؟ قال مقبل لا هذا ولا ذاك، بل هو شعور

داخلي وحينما يأتيني هذا الشعور يصاحبه عادة رؤيا منامية، قاطعه سعيد: وهل رأيت رؤيا في الأمر؟ قال: أكيد، قال سعيد: هذا يعني بأنني سأنتظر سبعة أياماً بلياليها؟ قال: نعم، قال سعيد: وإذا لم يأتوا في اليوم الثامن، نظر مقبل للأرض وقال: لا أدري حينها ماذا سنفعل؟ لكن لدي شعور قوي بأنهم سيأتون؛ لذا دع الأمر كله لله وتفاءل، أقول لك حدسي قلما يخيب، وأدعو الله ألا يخيب هذه المرة.

قال سعيد: إذن سأقوم خلال هذه الأيام ببعض الأعمال، سأحاول أن أبني سوراً من الأخشاب حول بيتي وأزرع بعض الخضروات والأزهار حول البيت، سأشغل وقتي بما يفيد ويبعدني عن التفكير، وسنلتقي إن شاء الله بعد سبعة أيام، قال مقبل: رأي سديد وفقك الله، أنا سأتركك خلال هذه الأيام تخلو فيها بنفسك، وإذا أردت مني أي مساعدة فلا تتردد، ثم قام وهو يقول: استودعك الله يا صديقي.

مرت الأيام السبعة على سعيد كسبعة أشهر أو سنوات، لكنه استثمرها بشكل جيد وقام بأعمال كثيرة انغمس فيها بكل جوارحه، فقد زرع حول البيت الكثير من النباتات العطرية مثل الريحان والشذاب[1]

---

[1] الشذاب: عشبة معروفة باسم الحرمل ولها أيضًا عدة أسماء منها: سذاب، فيجن، حزاء، فيجل، وهي من جنس الشجيرات الفرعية دائمة الخضرة قوية الرائحة، لها خصائص مضادة للأكسدة وللفطريات والبكتيريا، وتقاوم التهابات المسالك البولية.

والوزاب[1] والنعناع وزهور القرنفل ودوار الشمس والخزامى، والكثير من الورود خلابة المظهر عبقة الرائحة التي لا يعرف اسمها، ثم قام برصف الطريق بالأحجار المسطحة الملونة التي يسميها " الشلف" لمسافة لا بأس بها، وقلب الأرض حول البيت تمهيداً لزرعها بالخضروات والحبوب، ثم قسمها إلى أحواض متساوية، وربط حبلاً بالبيت طوله حوالي ثلاثمئة خطوة، وحدد بواسطته دائرة حوله والبيت في مركزها، ثم غرس جذوع الأشجار في محيط تلك الدائرة بحيث تصبح هي سياجاً طبيعياً للبيت ومصدات للرياح، وكذلك جهز مخزناً خلف البيت وملأه بالحطب والأخشاب للموقد والمدفأة استعداداً لموسم الشتاء الذي أوشك على الوصول، كما استطاع أن يصطاد غزالاً مكتنزاً وقطعه لشرائح رقيقة، ثم نثر الملح عليها ونشرها على الحبال في المخزن كي تجف وتصبح قديداً.

لقد قام بعمل مرهق وجبار؛ لذا كان يأوي للبيت في نهاية اليوم يصلي العشاء ثم ينام نوماً عميقاً كأنه قتيل أو ميت، هكذا مرت عليه الأيام السبعة وحيداً إلا من هواجسه وآماله، وفي الليلة السابعة قام بحملة تنظيف للبيت، ووزع فيه بعض الرياحين والزهور المبهجة والنباتات العطرية التي جمعها من الغابة ومن ضفاف النبع القريب، حتى أصبح

---

[1] الوزاب: عشبة تسمى أيضًا البردقوش والمردقوش والعترة، وهي من النباتات العشبية المعمرة والعطرية، لها سنابل طويلة تحتوي على بذورها، فوائده يوازن هرمونات الجسم ويعالج نزلات البرد وآلام روماتيزم المفاصل، ومسكن للآلام وخافض للحرارة.

البيت يعبق بالروائح العطرة، ثم صلى الوتر وابتهل إلى الله ألا يخيب رجاءه، وألا يجعله يعاني من الوحدة بقية عمره وأن يجمعه بعائلته، ثم أوى إلى فراشه وأطفأ الفانوس ودعا الله قبل أن ينام أن ينبلج فجر الغد عن شمس الفرج والفرحة وأخذ يردد " رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين"، ثم نام وهو يحلم بيوم تشرق فيه السعادة على روحه وتنقشع عنه غيوم الهموم.

استيقظ لصلاة الفجر ثم صنع له فنجاناً من القهوة السوداء، وأخذ يردد أذكاره كالعادة، وقرأ ورده الصباحي من كتاب الله، وبينما هو كذلك أخذ النعاس يداعب عينيه وهو يحاول جاهداً أن يغالبه، لا يعلم هل نام بالفعل أم لا؟ لكنه سمع همهمة وأصوات بكاء طفل يأتي من بعيد كانه يأتي من أعماق ذكرياته، كان يحدث نفسه لابد أن هذا جزءا من أحلامي المعتادة، كان في حالة بين النوم واليقظة – وأسوأ الكوابيس وأجمل الأحلام الوردية تأتي في هذه الحالة– حاول أن يسترد وعيه، لكن سلطان النوم كان طاغياً، شعر بالأصوات تزداد قرباً كأنها بجواره تماماً، كان يشعر كأنه تحت تأثير مخدر قوي، يحاول أن يفتح عينيه وهما تنطبقان رغماً عنه، ولكنه استطاع في النهاية وبعد جهد جهيد أن يفتح جفونه نصف انفتاح، فرأى مشهدا غائما ضبابيا لعيون تحملق مدهوشة في وجهه، وأفواه مفتوحة على مصراعيها تعجباً، جعله هذا المشهد يستدعي كافة قواه كي يفتح عينيه ويطرد عنهما غيوم الوسن ويستعيد

وعيه، فتح عينيه بينما كان مستلقياً على فرو كثيف من جلد الكبش الجبلي، وكان هناك أشخاص مجهولون واقفين فوق رأسه، ركز تفكيره وهو يتساءل: هل ما زلت أحلم أم أنني في عالم الحقيقة؟

حاول أن يقف أو يعتدل أو حتى يجلس، ولكن أولئك القوم المتجمهرين على رأسه لم يعطوه المجال أو حتى الفرصة لتنفيذ قراره، بل انكبوا عليه وأخذوا يمطرونه بوابل من القبلات يرافقه سيول من الدموع والمخاط المنساب من الأنوف الصغيرة والكبيرة، وأصوات النشيج والنحيب يؤطر ذلك المشهد كله كأنها موسيقى تصويرية لمشهد ميلودرامي، وفي أثناء تلك الفوضى عاد إليه كامل وعيه وأخذ يطبطب على الظهور ويمسح الدموع من على الوجوه الملتاعة، كان هو أيضًا مشاركاً لهم في هذا الاحتفال المرتجل فترك لدموعه العنان، لم تكتم العيون دمعها، بل أخذت تنساب على خديه بصمت كأنها صنبور ماء فقد قدرته على حبس مائه، لم ينتحب ولكن دموعه فقط كانت تنساب لتجرف كل ما أمامها من ركام الوحدة والوحشة والأحزان ولوعة الفقد واليأس، ثم أخذ يردد يا ربي لك كل الحمد والشكر.

في تلك الأثناء – في الخارج – كان الصباح قد انبلج وأشرقت الشمس عن يوم مفعم بالأمل والفرح والسعادة، فأخذ مقبل يخب السير متجهاً إلى بيت صديقه كي يطمئن عليه، أخذ يسير وهو يدعو الله أن يلطف

بصاحبه ويجمعه بأهله وينهي معاناته، حينما اقترب من بيت صديقه بحيث كان يلوح البيت من بعيد رأى أشياء مكومة أمام الباب، اقترب أكثر كي يتأكد لعله خداع البصر وحينما اقترب شاهد بوضوح كومة هائلة من الأدوات والحقائب والثياب والصناديق وثورا وبقرة وحماراً وعدد لا بأس به من الخراف والماعز، اجتاحت أمواج السعادة غرف قلبه كلها، وتوقف هناك خلف شجرة ضخمة وأخذ يمسح دموع الفرح بشاله وهو يردد ما أكرمك يا رب، ثم عاد أدراجه إلى بيته كي يترك الفرصة لجاره كي يستمتع بتلك اللحظات التي لا تعوض، وهذه المناسبة بخصوصية كافية.

جلسوا جميعاً يكفكفون دموع الفرح وأخذت الحاجة رشيدة تضحك حيناً وتبكي حيناً، فقال لها سعيد: كفكفي دموعك يا أماه، لقد انقضت الأحزان وولت إلى غير رجعة إن شاء الله، وستأتي أياماً مليئة بالسعادة والهناء، قالت أمه: كنت يا ابني واثقة أنني سأراك مرة أخرى، ولكنني كنت أعتقد أنك أنت من ستأتي إلينا، ولم أكن أتوقع أننا نحن من سنأتي إليك، سبحانك يا ربي، كان الناس في قريتنا كلما مرت الشهور يسخرون من كلامي ويقولون لي: اعتصمي بالصبر يا حاجة وسلمي أمرك إلى الله، يقصدون بذلك أن أفقد كل أمل في عودتك، لكن كل يوم يمضي كان يزيد من ثقتي بأنك ستعود، وها نحن عدنا إليك، قال سعيد: الحمد والمنة لله، أنا أيضًا كنتُ واثقاً بأننا سنلتقي وكنت أزوركم

من حين لآخر، قالت زوجته صفية: كيف ومتى؟ ولماذا لم نرك؟ قاطعها ابنها شوقي: ألم أقل لك يا أمي في ذلك اليوم أنني رأيت رجلاً كأنه أبي ولكنك لم تصدقيني، ضحك سعيد واحتضن ابنه وقال: كنت أزوركم بخيالي فقط وليس بالحقيقة، قال ابنه: والله العظيم أنني كنت أحياناً أرى رجلاً يشبهك في مشيتك وفي طولك، ولكنني كنت لا أرى وجهه كنت أرى ظهره فقط، ضحكوا جميعاً.

قالت الحاجة رشيدة: حدثنا يا ابني كيف مرت عليك كل تلك الشهور؟ وما الذي حدث لك فيها؟ قال سعيد: الأمر يطول شرحه يا أمي وأنا لا أريد أن أفسد هذه اللحظات السعيدة بتذكر ما حدث، لكنني أعدكم بأنني سوف أحدثكم بالتفصيل عما حدث لي في وقت آخر، أما الآن فلابد وأنكم جائعون، لدي لكم إفطارٌ مميز يذكرنا بتلك الأيام الخوالي، لدي قطعة كبيرة وطازجة من كبد الغزال سوف أقوم بطبخها كي نستمتع بها جميعاً، عادت أمه للنحيب مرة أخرى فكأنها لا تصدق ما تراه عينيها، قال ابنها: أرجوك يا أماه كفي عن البكاء، فقد انتهى عهد العناء، قالت وهي تمسح دموعها: ليس هذا بكاء إنما هي دموع الفرح فحسب، فكما أننا لا نستطيع مغالبة دموع الحزن والألم فكذلك دموع الفرح.

قالت صفية محاولة أن تغير الجو وتوجه دفة الحديث بعيداً عن شاطئ الدموع: والله العظيم أنني أنا من سيقوم بإعداد الإفطار، فقال سعيد: والله العظيم لن يعد الفطور غيري، ضحكت رشيدة وقالت: يبدو أنكما ستؤدون كفارة اليمين، أو أنكما تتآمران عليّ كي أقوم أنا بإعداد الطعام، قال سعيد: حاشا لله ولكن أنتما ما زلتما متعبين من سفركم الطويل، ثانياً أنتم لا تعرفون البيت كما أعرفه، لذا لن يقوم بتجهيز الإفطار سواي وعلى صفية صوم ثلاثة أيام كفارة يمينها فالصوم في هذه البلاد ممتع ولا يوجد فيه مشقة ثم ضحك، فقالت صفية: يا الله كم افتقدنا هذه الضحكة أشعر كأنه مرَّ علينا دهر بكامله منذ غادرت السعادة بيتنا، قال سعيد: نسيت أسألكم كيف وصلتم إلى هنا؟ لكن لا بأس تعالوا جميعاً إلى مطبخي المتواضع، أنا أطبخ بينما أنتم تحكون لي الحكاية.

قالت رشيدة: هذا الأمر من أغرب ما حدث في حياتي، في منتصف ليلة البارحة كنا جميعاً نائمين وفجأة فتحت عيوني على ضوء قوي جداً يبهر العيون يملأ غرفتي ولم أرَ مثله أبداً، خرجت إلى المشاية[1] فوجدتها أيضًا مضيئة ثم توجهت إلى غرفة صفية كي أطمئن عليها وعلى الأطفال فوجدت الضوء هناك أقوى بكثير مما هو في غرفتي وبالكاد استطعت أن

---

[1] المشاية: هي الصالة التي تكون بين غرف البيت.

أراها وهي راكعة على الأرض ومحتضنة أطفالها والفزع بادٍ في وجوههم، رأتني فقالت: ما الذي يحدث يا عمتي؟ من أين يأتي كل هذا الضوء؟ كأن الشمس قد أشرقت من داخل غرفتنا، قلت لها: والله علمي علمك، البيت كله مضيئ لكن هنا أشد سطوعاً، قالت لي صفية: اجلسي بجوارنا أنا خائفة يا عمتي قلت لها: وأنا كذلك يا ابنتي وجلست بجوارها، ثم شرع الأطفال يبكون ونحن نقوم بتهدئتهم، استمر هذا الحال حوالي نصف ساعة، تأقلمت عيوننا خلالها على هذا الضوء، العجيب في شوقي ابنك، قال سعيد وهو مستغرقاً في تقطيع الكبدة: وما الغريب فيه؟ قالت أمه: أثناء انتظارنا قال لأمه: يا أمي أنا أعرف من أين أتى هذا الضوء؟ تجاهلنا كلامه فالحال لا يحتمل حواراً مع طفل، ولكنه قال هذا الضوء جاء من عند أبي، وما إن أكمل كلامه حتى رأينا الأشياء تختفي من حولنا، أولاً القعادة ثم الشنط الحديدية التي تحوي الثياب والهندول، وهكذا في خلال لحظات كانت الغرفة خالية تماماً من أثاثها حتى ستائر النوافذ، ثم سمعنا خوار الثور والبقرة ومأمأة الماعز وثغاء الخراف والدواجن تصيح والحمار ينهق، أشتد خوفنا وأخذنا نردد: يا رب الطف بنا يا رب نجنا، ثم فجأة أنتشر ضباب رمادي وأخذ يزداد كثافة شيئاً فشيئا وذلك الضوء المبهر أخذ ينحسر هو الآخر، حتى صرنا لا نرى أي شيء من حولنا، ثم شعرت بنعاس شديد كالذي كنت

تعاني منه أنت عندما أتينا إلى هنا، رأيت صفية والأطفال وهم يغلقون أعينهم وينامون وكنتُ أنا آخر من غلبني النوم.

صحوت بعد ذلك وصفية تهزني لتوقظني فوجدنا أنفسنا أمام بيت غريب الشكل، والشمس غير موجودة فلم نعرف هل نحن بعد الغروب أم قبل الشروق، كنا في أرض غريبة مكسوة كلها بالعشب ونحن نشعر بالخوف والبرد ووجدنا حولنا كل أثاث بيتنا وكل حيواناتنا معنا كانت هي أيضًا خائفة مثلنا، ثم رأينا شعاع الشمس في الأفق البعيد، فأخذت أصيح بأعلى صوتي: يا ناس غيروا علينا يأهل الشهامة والمروءة غيروا علينا، أين نحن يا أهل البيت ساعدونا فلم يستجب لنا أحد، قاطعها سعيد وعيونه تدمع من أثر تقطيع البصل: والله عجيب كل هذا الصراخ والصياح وأنا لم أسمع أي شيء، أكيد أنني كنت تحت تأثير البنج الذي يستخدم أثناء العمليات الجراحية ثم ضحك، واصلت أمه حديثها: ولما سقط في أيدينا ولم يجبنا أحد قلت لصفية: سوف أطرق الباب لأسأل أهل البيت أين نحن؟ فطرقت الباب ولكن بلا مجيب، قلت لها يا صفية أنت اجلسي هنا مع الأطفال كي لا يصيبكم أي مكروه وأنا سأحاول أن أفتح الباب هذا، قالت صفية: لا لا تفتحي الباب ماذا لو أصابك أي شر؟ قلت لها: فما رأيك هل نجلس هنا تحت الشمس إلى ما شاء الله؟ قالت: إذن ندخل سوياً فإما أن ننجو جميعاً أو نهلك كلنا، وافقتها رغماً عني، فاجتمعنا أمام الباب وفتحناه ودخلنا.

رأينا رجلاً مستلقياً على فروٍ أبيض، للوهلة الأولى ظننا أنه ميت فلم نجرؤ على الاقتراب منه، أخذنا نناديه: يا أخ يا رجل، ولكنه لم يتحرك، فقلت لصفية سوف أحاول أن أحركه كي أتأكد هل هو حي أم ميت؟ وحينما اقتربتُ منه كي أحركه انعكس ضوء النهار القادم من النافذة التي لم تكن مغلقة تماما على وجهه فاتضح جزء من ملامحه، خيل إلى أنني أعرفه، هناك شبه بينه وبين ابني سعيد في بعض ملامح وجهه فبقيت متحيرة، وقلت في نفسي سبحان الله، إن الله قادر على كل شيء لعله يشبه ابني كثيرا، ولكنني شعرت نحوه بشيء من الرحمة والعطف كان نائماً في براءة كأنه ملاك – ابتسم سعيد لهذه الملاحظة– فناديت صفية وقلت لها: اقتربي، فقالت في توجس: ماذا هناك يا عمة هل هو ميت؟ قلت: لا ولكنني أشبهه بسعيد ابني قالت صفية: مش معقول وما الذي سيأتي بسعيد إلى هنا؟ قلت لها: الذي أتى بنا، اقتربي وشاهدي هل أنني مخطئة في ظني؟

اقتربت صفية وأخذت تشاهده ولكنها لم تقترب كثيراً فقالت: تأكدي يا عمة هل حبة الخال التي بجوار فتحة أنفه اليسرى موجودة، فالتففت حوله كي أرى الجهة اليسرى من وجهه فقلت لها: موجودة يا صفية والله إنها موجودة، ثم قلت يا صفية اذكر أن هناك أثر جرح قديم فوق حاجبه الأيمن فإذا كان موجودا فهو ابني سعيد، نظرت فإذا الجرح مستقر هناك، قلت يا صفية هذا ابني قالت صفية غير معقول يا عمة، تدخل

شوقي وقال ابتعدوا أنا سأقول لكم هل هو أبي أم لا؟ قالت صفية وماذا ستفعل يا بطل؟ قال أنا أعرف رائحة أبي سأشمه وأقول لكم، قالت أمه وهل أنت كلب كي تعرف الناس من رائحتهم؟ قال: لا يا أمي لكن أبي له رائحة تختلف عن كل الناس، لم يمهلنا الولد واندس في حضنك وأخذ يتشمم رقبتك و صدرك ثم قال: والله العظيم إنه أبي، هذا أبي يا أمي ورب الكعبة إنه أبي.

عندئذٍ لم أتمالك نفسي وارتميت عليك أقبلك وتشجعت صفية وفعلت كما فعلتُ، هذا ما حدث يا سعيد والحمد لله الذي جمعنا بعد طول فراق نسأله ألا يفرقنا بعد ذلك؟ أبداً، قال سعيد: الحمد لله يا أمي الذي حفظكم وجمع شملنا بعد تفرق، والآن تفضلوا للصالة كي تجربوا طبخي أرجو أن يعجبكم، انتظروا قليلا سآتي لكم بالخبز لدي هنا خبز من أمس لكنه محفوظ بشكل جيد كأنه طازج، قالت صفية وهي تتناوله منه وتتفحصه: بالفعل خبز شهي من الذي خبزه هل أصبحت تجيد صنع الخبز أيضاً؟ يبدو ان هذه الأرض علمتك أشياء كثيرة، ضحك وقال: لا أنا لم أخبزه، ولكن أم هلال زوجة مقبل مسعود، قالت أمه: ومن هؤلاء؟ قال ناس طيبون ساعدوني ووقفوا بجواري وأنا مدين لهم بالكثير ولن أنسى جميلهم ما حييت، هيا بنا الآن نأكل وبعد ذلك ستتعرفون عليهم قريباً.

بعد الانتهاء من الإفطار قالت له صفية: الثور والبقرة والحمار وبقية المواشي والدواجن في الشمس، أنا قلقة عليهم هل هناك مكان يستظلون به من الشمس؟، قال: نعم هناك حظيرة مسقوفة خلف البيت وفيها أيضًا علف يكفي لعدة أيام لا تقلقي أبداً، ضحكت صفية وقالت: يبدو أنك كنت جاهزا لكل شيء، قال: نعم والفضل بعد الله هو لمقبل وعائلته، قالت: والله لقد تشوقت لأتعرف على هذه العائلة الطيبة، قال سعيد انظري هذه الأرض الطيبة شرقها وغربها شمالها وجنوبها لم يكن موجودا بها سوى مقبل وعائلته، ثم أتيت أنا وها أنتم وصلتم بالسلامة، كنتُ أتوقع أن يأتي مقبل كي يطمئن علي كما هي عادته، لكنه حتماً جاء وشاهد الأشياء المتراكمة أمام الباب فانسحب بهدوء.

قضوا بقية اليوم في نقل الأثاث إلى داخل البيت ووضع كل شيء في مكانه المناسب، واستمر عملهم إلى ما قبل الغروب تخلل ذلك فترات راحة وصلاة وغداء فاخر جهزته صفية من لحم الغزال، وبعد صلاة العشاء تحلقوا جميعاً حول سعيد بجوار المدفأة التي كانت تبث الدفء في أرجاء المنزل، وبدأ هو في سرد الأحداث التي مرت به منذ أن غادر داره، كانت أصواتهم تعلو حينا تعجباً ويصمتون حينا، وتنهمر دموعهم حيناً آخر حزناً وأسى، ويصرخون أحياناً من الإثارة والتشويق.

اقترب منتصف الليل ومازال في جعبته الكثير من الكلام، ولكنه توقف حينما رأى النعاس يداعب جفون أطفاله وقال لهم: حان الآن موعد النوم فقد تعبتم اليوم كثيراً، بيد أن شوقي وميسون تعلقا برقبته وطلبا منه مواصلة القصة، لكنه قام بدغدغتهما حتى استغرقا بالضحك وقال لهما: سوف أواصل الحكاية غدا إن شاء الله، ثم حمل كل واحد منهما بذراع وسار بهما إلى فراشيهما ثم غطاهما وطبع قبلة على خديهما، ثم ذهب إلى غرفة أمه واستأذن للدخول وقبل يديها ورأسها فقالت له: احذر يا ولدي أن تتركنا مرة أخرى، فقد كانت الحياة لا وجود لها في غيابك، كنا أمواتاً على قيد الحياة، حتى الألوان اختفت وأصطبغ كل شيء بالسواد، قال لها: لا تخشي بعد اليوم فراقاً يا أماه، انتهت الأحزان وذهبت إلى غير رجعة، تصبحين على خير يا أمي الحبيبة.

أشرق صباح اليوم التالي مفعماً بالنور مترعاً بالأمل مشبعاً بالفرح والسرور، كان كأنه يوم عيد لا تشوبه الأحزان ولا تنغص فرحته الهموم، بدت الشمس كأنها تبتسم وكأن النسيم يحتفل، وكأن الأغصان وأوراقها تهمس بأغنية الفرح والأمان، أما الطيور فكأنما أصابها جنون السعادة فأخذت تزقزق وتغرد وتتقافز في رشاقة بين الأغصان، عندما نفرح هل تتغير الدنيا من حولنا أم نحن من نتغير؟ وعندما تقبض علينا الهموم والأحزان بقبضتها القاسية، وتخنق أنفاسنا وتعتصر قلوبنا، لماذا نرى كل

شيء من حولنا لا معنى له ولا جدوى وتختفي كل مظاهر الجمال؟ هل لأن السعادة هي نبع ينداح من داخلنا؟

أفاق سعيد متأخرا ليس كعادته، وسار في غرف المنزل يبحث عن أهله فلم يجدهم في الداخل، ولكنه سمع أصواتهم تأتي من خارج البيت، فأطل عليهم من نافذة المطبخ فوجد زوجته ترضع الصغيرة وأمه جالسة بجوارها أمام الباب، وطفليه يلعبان لعبة الاختباء، فقال لهما يبدو أنكما تستمتعان بوقتيكما؟ قالت أمه: تعال واجلس معنا، فخرج وجلس بينهما وأخذ يداعب طفلته الصغيرة ويدغدغ قدميها الصغيرتين فتركت ثدي أمها وأخذت تكركر، قالت صفية: ما هذه الأرض العجيبة يا سعيد؟ فقال: ماذا تقصدين؟ قالت أمه: هذه الأرض ليست عادية أبداً، كأننا في جنة لقد تجولنا فيها من قبل الشروق فوجدناها في غاية الخصوبة والخضرة، ضحك سعيد وهو يقول: ومع ذلك لم تعرفوا عنها إلا القليل، ولو عرفتم ما أعرف لزاد تعجبكم، بالفعل يا أمي وصفك لها بالجنة وصف في محله سأخبركم عنها الآن، قاطعته زوجته: لا، انتظر لا تحكي شيئاً سأذهب أولاً كي آتي لك بالصبوح ثم بعد ذلك تحكي لنا، تناول سعيد إفطاره المكون من فتة خبز الدخن بالحليب والعسل والسمن، ثم قال لزوجته: تسلم يدكِ، أشهى إفطار أكلته، كم كنت مشتاقاً للطعام الذي تعدينه، ألذ طعام كنت أتخيله في صحوي ونومي وأنا مسجون، تورد وجه صفية خجلاً وقالت: هنيئاً مريئا.

قال أما الآن فسوف أخبركم عن صفات هذه الأرض التي أصبحت موطنا جديدا لنا، ثم بدأ يحكي لهم بالتفصيل، وهم يقاطعونه أحياناً كي يفهموا منه بعض الأمور الغريبة، وبعد أن أكمل حديثه قالت أمه: بالفعل هذه أرض غريبة فيها أشياء جميلة ومرغوبة مثل عدم وجود البعوض والذباب والحشرات المؤذية والحيوانات المفترسة وتوفر الماء وخصوبة التربة، ولكن بردها شديد كما قلت وأخبرك صاحبك، وجزى الله زوجته أم هلال خيرا على كل تلك الأغطية الصوفية التي صنعتها لنا، قال سعيد: صحيح جمايلهم علينا كثيرة، ولكن هكذا هي أخلاق أهل المروءة والشهامة، وهم أيضًا ينتظرون وصولكم كي يأخذوا قياسات أجسامكم لكي يصنعوا لكم ملابس وجوارب صوفية تقينا من برد الشتاء القادم، قالت زوجته: والله لقد جعلتنا نشتاق للتعرف عليهم قال: لا عليكم سنقوم بزيارتهم اليوم بعد صلاة العصر، وحتى ذلك الحين علينا ان نتعاون جميعاً يجب أن نرتب كل تلك الأشياء التي جئتم بها و نضع كل شيء في مكانه المناسب، قالت أمه ضاحكة: جئنا بها أم جاءت معنا، بادلها ابنها بالضحك، ثم قالت: هل تعتقد يا سعيد أننا سنقضي بقية حياتنا في هذه الأرض؟ قال: وهل هي لا تعجبك يا أمي؟ قالت: لم أقل ذلك فهي جميلة بالفعل وواسعة ولا أحد ينافسنا عليها ولكن يا بني لا أحد ينسى أو يستغني عن أرضه وبلده التي ولد فيها وتربى فيها ودفن في بطنها أحبابه، أليس كذلك؟ قال: بلى يا أمي

كلامك صحيح، لن ننسى بلادنا مهما حدث ولكن لا أحد يعلم سوى الله كم سنقضي من أعمارنا في هذه الأرض، ولكن مادام أننا أتينا هنا رغما عنا فلنستمتع بما وهبنا الله فيها من نعم، ولنفوض أمرنا كله لله، قالت: أمه ونعم بالله.

-17-

دار الصياد المهجور والأسرة المفقودة

بعض الرحيل نختاره وبعض الرحيل نجبر عليه فيأتي بثقل الجبال، نمارسه بخطى متثاقلة وكأننا ننتزع أقدامنا انتزاعاً في أرض موحلة، أو كأننا نجر العالم كله خلفنا، فنمضي ونحن نلتفت خلفنا، لأن في الخلف تكمن حياتنا كلها: أحلامنا آمالنا أشيائنا الصغيرة أرواحاً معلقة قلوبنا بها، أحيانا نعطى فرصة لوداعها وأحياناً حتى تلك الأمنية لا تمنح لنا، فنترك بقايا ذكرياتنا تنوح وتتوجع خلفنا.

في ذلك اليوم بزغت الشمس خجولة كنقطة في آخر السطر كأنها تتلصص عليهم، كان يوماً أغبراً عندما اكتشفت الجارة أن باب دار الصياد ونوافذه مشرعة مصاريعها أمام الريح تفتحه ثم تغلقه بعنف، كان صوت ارتطام الأبواب والنوافذ بفعل الريح هو ما استرعى انتباه جارتهم الحاجة قبول أم راشد بحكم قرب بيتها، فأطلت من نافذة غرفتها تستطلع الوضع.

كانت الحاجة قبول تحتفظ بعلاقات متميزة مع الجميع، ولكنها ترتبط بعلاقة صداقة حميمة مع أم الصياد الحاجة رشيدة، فلا يكاد يمر يوم من دون أن تلتقي العجوزان وتجلسا تحتسيان قهوة الصباح وتتجاذبا أطراف الحديث، لذا بدا لها الأمر ليس غريباً فحسب بل هو في غاية الغرابة، فلم يحدث سابقاً أن تركت الحاجة رشيدة الأبواب والنوافذ دون أن تحكم إغلاقها ليلاً، أو أن تضع لها حجارة تسندها كيلا تلعب بها الريح صباحاً.

شعرت الحاجة قبول بقلبها ينقبض وقالت في نفسها لابد أن هناك خطباً ما يحدث في بيت الجيران، لذا لفت مقرمتها حول رأسها على عجل ثم انسلت إلى دار الصياد التي يفصل بينها وبين دارها زقاق ضيق، وقفت أمام الباب ونادت: شوقي ميسون فلم يجبها أحد فنادت: يا حاجة رشيدة يا صفية.

كان الصمت هو سيد الموقف، دخلت قبول وهي ما زالت تنادي لكن الصدى كان هو من يجيبها فشعرت بالفزع، وأخذت تجوب البيت غرفة غرفة وعلامات الفزع والدهشة ترتسم على وجهها، كان البيت فارغاً تماماً من سكانه وأثاثه، لا يوجد فيه أي شيء، نظيفا تماماً كأنه لم يسكن من قبل، لم يعد به إلا أطياف الذكريات تسبح في فراغ الدار القاتل،

أكملت الحاجة قبول تجوالها في الدار الخاوية على عروشها والدموع تغرق عينيها.

ثم خرجت من الدار وصرخت بأعلى صوتها: يا أهل القرية الجن خطفوا أهل سعيد الصياد، أخذت تردد نداءها ذلك بينما كان المزارعون في ذلك الحين يتوجهون إلى حقولهم والرعاة يسوقون أغنامهم للمراعي، فتوجهوا إلى مصدر الصراخ وتجمعوا أمام باب الدار وأخذوا يسألونها ما الذي حدث؟ صلي على النبي يا حاجة كيف خطفوهم؟ قالت لهم: ادخلوا وانظروا إذا لم تصدقوني: الدار خالية لا يوجد فيها أحد.

كان صوتها متهدجاً تخنقه العبرات، فقال الناس المتجمهرون أمام الباب: كيف سندخل بيتاً بدون إذن أصحابه: جلست قبول على الأرض وأمسكت برأسها وأخذت تنوح وتنتحب وهي تقول: الدار لم يعد لها أصحاب، أقول لكم الدار خالية تماماً، الجن خطفوهم يا حسرتاه عليكم يا جيراني الطيبين، من أين أتت لكم كل تلك المصائب؟ أولاً سعيد الصياد اختفى قبل سنة والآن عائلته يا حسرتاه عليكم يا بيت المطنن.

لم يجرؤ أحد من الحاضرين على الدخول، فأنقذ الموقف عدد من نساء القرية اللاتي تطوعن للدخول إلى الدار الخالية للتأكد من مدى صحة أقوال الحاجة قبول، التي ظن البعض أنها ربما قد فقدت صوابها.

تجولن في أرجاء الدار من العريش الذي يقع في الطابق الأرضي وحتى المطبخ الذي يوجد في سطح الدار، ثم خرجن ليعلن للناس المتجمهرين أن كلام الحاجة قبول صحيح، وأن الدار فعلاً خالية تماماً من أهلها وحيواناتها وجميع أثاثها ولا يوجد فيها حتى حبة دخن، أسقط في أيدي الناس ودخلوا جميعاً يتفقدون الدار ثم أرسلوا أحدهم إلى دار الشيخ سلطان القاضي كي يخبره بما حدث لعائلة الصياد.

كان يوماً غرائبياً فقد أصبحت الساحة التي أمام دار الصياد مكتظة بالبشر من أهل القرية ونسي الناس أعمالهم، جلس الرجال واجمين أمام الدار والنساء في الداخل لا تسمع إلا نشيجهن وبكاء أطفالهن الذين يبكون لبكاء أمهاتهم.

حضر الشيخ سلطان وبقية أعيان ووجهاء القرية وهم يجرون خلف الشيخ الذي كان يهرول، لأول مرة يتخلى الشيخ عن وقاره ويهرول بتلك الطريقة، أفسح الناس له الطريق، ثم طلب من النساء اللاتي كن في داخل الدار إخلاءها فوراً، ثم دخل مع أربعة من أعيان القرية من بينهم الحاج ناصر مرشد وأخذوا يتفقدون الدار ويتفحصون المكان بعناية واهتمام لعلهم يجدون أي أثر.

بعد أن أكملوا جولتهم جلسوا على الأرض العارية في إحدى الغرف الخاوية، ثم سأل مرافقيه من أعيان القرية: ماذا ترون؟ كيف تفسرون ما

يحدث؟ سكتوا جميعاً كأن الفاجعة كانت أكبر من أن يجدوا لها أي تفسير، فوجه كلامه للحاج ناصر قائلاً: ما رأيك يا حاج ناصر؟ تنهد الحاج ناصر: وقال: والله أنني غارق في الحيرة والدهشة مثلكم، وتفكيري لا يكاد يستوعب ما يحدث، الأمر كله فوق الخيال أولاً اختفاء سعيد المطنن وبعد مرور عام من اختفائه تختفي كل أسرته بين ليلة وضحاها، ليس هذا فقط، بل كل أثاث البيت اختفى كأنه لم يسكن من قبل.

سكتوا لبرهة كأنها يفكرون ما هي الخطوة التالية التي من المفروض أن يقوموا بها، ثم قال الشيخ: إذن ماذا نعمل ماذا تقترحون؟ قال الحاج ناصر: أرى أن نستجوب أهل القرية ونبدأ بجيرانهم ربما نجد خيطاً يقودنا إليهم أو حتى تفسيرا لما حدث لهم، وافقه الشيخ عل ذلك الرأي.

نادى الشيخ مرافقه نعمان الحداد وقال له: أريد أن تطلب من راشد عامر وأمه أن يأتوا، حضر راشد وأمه فسأل راشد متى آخر مرة رأيت فيها أطفال سعيد المطنن؟ قال: وقت أذان المغرب وأنا متجه للمسجد، ولكن بحكم قرب بيتنا فقد كنت اسمع أصواتهم وهم يلعبون داخل الدار إلى ما بعد صلاة العشاء بساعة أو أكثر.

ثم سأل أم راشد وقال لها: يا حاجة قبول متى آخر مرة شاهدت فيها أم سعيد أو زوجته؟ قالت: بعد صلاة العشاء ذهبت واستعرت منهم بعض الثوم، قال لها هل دخلت أم من الباب فقط؟ قالت: بل دخلت

وتحدثت قليلا مع الحاجة رشيدة، قال: هل شاهدت أي شيء غريب في الدار؟ قالت: مثل ماذا؟ قال: مثلاً تجهيزات للسفر شنط أو صرر، قالت: أبدا لا يوجد أي شيء غريب فلم أشاهد أي ترتيبات للسفر أو الرحيل كان كل شيء مكانه وكل شيء على ما يرام.

كانت تتحدث وهي تكفكف دموعها التي تنساب على خديها الضامرتين، وبعد أن أكمل استجوابهما قال لهما: بارك الله فيكما عودا إلى بيتكما وإذا استجد أي شيء سنبلغكما.

استمر الشيخ سلطان ومعاونوه في استجواب أهل القرية. كانوا يسألونهم هل شاهدوا أي غريب بالقرب من بيت الصياد أو في القرية بشكل عام من بعد صلاة عشاء البارحة وحتى أذان الفجر، لكن الجميع قال أنهم لم يشاهدوا أمام بيت الصياد أو في القرية أي شيء يثير الريبة، عندئذٍ طلب من الجميع المغادرة و العودة إلى بيوتهم وأعمالهم وإخلاء الساحة أمام الدار الخالية.

كانت دار سعيد المطنن كمعظم بيوت القرية تحتوي على ثلاث طبقات، الطبقة الأرضية يوجد فيها عريش البهائم وزريبة للأغنام، والطبقة الثانية تحتوي على ديوان واسع للضيوف وحمام وغرفة الحاجة رشيدة لأنها تعاني من ألم في المفاصل فقد اختارت الطبقة الثانية مكاناً لغرفتها، أما الطبقة الثالثة ففيها غرفة نوم الصياد سعيد وغرفة لأطفاله وحمام وغرفة فارغة

تستخدم كمخزن للأدوات والأثاث غير المستخدم، أما المطبخ فهو في سطح الدار.

استفاد الشيخ سلطان من الدرس السابق فقام في اليوم التالي بإبلاغ الجهات العليا في الناحية بالحادث، ثم قرر- بعد التشاور مع وجهاء القرية- أن تغلق الدار ويوضع حولها سياجاً من الأغصان الشوكية التي يسمونها (الزرب)؛ كي يمنع دخول أو اقتراب أي شخص من الدار.

ثم تناقل الناس إشاعات وحكايات وصلت إلى حد الأساطير، فقال بعضهم أن الصياد رفض أن يرضخ لخاطفيه من الجان ويتحول إلى ساحر لذلك انتقموا منه واختطفوا أسرته، أصبح الناس بعد ذلك يتحاشون الاقتراب من دار الصياد أو المرور بجوارها، خاصة بعد أن ادعى بعض الناس بأنهم يسمعون صراخاً وأصوات استغاثة تصدر من داخل الدار المهجورة، والبعض قال بأنهم يشعرون بقشعريرة عندما يقتربون من تلك الدار الموحشة.

هُجرت تلك الدار لسنواتٍ عديدة، وأصبح ما حدث فيها ضرباً من ضروب الأساطير تحكيه الجدات لأحفادهن، ثم تغير اسم تلك الدار مع مرور السنوات وأصبح اسمها (دار السياد)[1] بدلا من دار الصياد،

---

[1] دار السياد: هذه الدار موجودة بالفعل في تلك القرية بهذا الاسم، ولكن تم توظيف اسمها بشكل روائي.

حيث قلب حرف الصاد إلى سين للتسهيل، وهذا التحريف مشهور عند العرب من قديم الزمان.

بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً كان الشيخ سلطان القاضي قد توفي وخلفه ابنه الذي يحمل نفس اسم أبيه، أراد أحد شبان القرية أن يتزوج فخطب فتاة من قرية بعيدة، ولكنه احتار أين سيتزوج، عرض عليه والده أن يبني له غرفة في سطح البيت، ولكن البعض قالوا بأن البيت قد لا يحتمل بناء غرفة فوق سطحه وقد يتعرض لأضرار، فعرض عليه والده ان يبني له بيتاً في أرض تتبع له خارج القرية، ولكنه لم يحبذ أن يكون بيته في مكان ناء عن القرية التي تربى فيها، وحينما سأله والده إذا أين ستسكن؟ قال له: في دار السياد!

جحظت عينا والده وقال له هل أنت جاد فيما تقول؟ قال: نعم أنا جاد البيت فارغ فإلى متى سيظل هكذا؟ قال له والده: وهل نسيت ما حدث فيه؟ قال: لا لم أنس وأنا واثق بأنه لن يحدث لي أي شيء.

حاول والده وبقية رجال القرية أن يقنعوه بخطورة قراره ذلك، ولكنه قال: آن الأوان أن نجابه تلك الحكايات والأساطير فالدار مازالت بحالة جيدة، إلى متى ستظل مغلقة ولا أحد يستفيد منها، هذا الوضع غير منطقي، لذا أنا مصمم على إحياء هذه الدار وإعادتها إلى سابق عهدها، اتفق أخيرا مع والده على شرطين الشرط الأول أن يستأذن من شيخ

البلاد والثاني أن يخبر أهل خطيبته بقراره هذا ويعطيهم فكرة عن ماضي هذه الدار، وافق الابن وتيسرت أموره فقد وافق شيخ البلاد الشيخ سلطان الابن، وتفهمت خطيبته وأهلها الأمر، ووافقوه على قراره خاصة بعدما جاء عمه أبو مخطوبته وشاهد الدار عيانا، بعدما تعاون الشاب مع بقية شباب القرية وأزالوا السياج الشائك الذي كان حول البيت وقاموا بحملة نظافة وأزالوا جميع خيوط العناكب التي كانت مسيطرة على حجرات البيت.

كان الدور الثالث قد تهدم وأصابته أضرار كبيرة من الصعب إصلاحها، ولكن بقية طبقات الدار كانت في حالة جيدة وتحتاج إلى ترميم بسيط، وبالفعل نفذ الشاب قراره وزفت عروسه إليه في دار السياد وعاش فيه وصار له بنون وبنات وما زال يسكن فيه حتى وقتنا الحاضر.

– 18 –

حلم العودة

بعد خمسة وعشرين عاماً – الأرض المفقودة .....

كان سعيد المطنن يمارس هوايته المفضلة برفقة حفيده أيهم ذي العشر سنوات، في الغابة السوداء بالرغم من كبر سنه واقترابه من سن الستين، إلا أن شغفه بالصيد لم يخبُ مازال يمارسه من حين لآخر أحيانا يكون بمفرده، وأحيانا مع أحد أبنائه أو أحفاده أو حتى مقبل الذي أصبح لا يبارح مسجد قريته إلا لماماً.

عاد سعيد وحفيده قبل الغروب بفترة وجيزة، وكم كانت دهشته حينما رأى مقبلاً ينتظره في حديقة منزله وبجواره أحد أبناء سعيد، قال سعيد لأيهم: لا بد أن جدك مقبلاً لم يأتِ في هذه الساعة المتأخرة إلا لأمر جلل ثم أسرع في خطوه.

لما وصل ألقى السلام على صاحبه الحميم ثم جلس متهالكاً على كرسي بجواره وقال له: مرحباً بك يا مقبل حياك الله، خطوة مباركة، رد مقبل هذه ليست زيارة عادية يا سعيد، قال أعرف ذلك فأنت ليس من

عادتك أن تزوريني في مثل هذا الوقت، قال مقبل: هناك أمر أريد أن آخذ رأيك فيه ولا يحتمل التأخير، ويجب أن نشترك جميعاً في أخذ القرار بشأنه.

قال: من تقصد بقولك جميعاً؟ قال: أقصد أنا وأنت، قال سعيد خيراً إن شاء الله تفضل بالحديث، قال مقبل: أفضل أن نتحدث على انفراد، أشار سعيد لابنه وحفيده بالدخول إلى البيت وأن يحضرا لهما كأسين من القهوة.

قال مقبل: هل تذكر يا سعيد حينما التقينا في المرج الغربي قبل أكثر من خمسة وعشرين عاماً؟ قال سعيد: وهل هذا أمر يمكن أن ينسى؟ كنتُ في حالة يرثى لها، خائف جائع محتار مذهول ضائع لا أدري أين أنا، ولكن لماذا تتذكر ذلك الآن؟ قال مقبل: وهل تذكر يا سعيد عندما سألتني: هل تظن يا مقبل أننا سنقضي بقية أعمارنا في هذه الأرض؟ هل تتوقع أنه قد يأتي يوم نعود فيه إلى بلادنا؟ قال سعيد: نعم أذكره كأنه كان بالأمس، سألتك في أول ليلة قضيتُها في بيتي، ولكن لماذا تستعيد تلك الذكريات الغابرة يا مقبل والآن بالذات؟

قال مقبل: لأن الإجابة على سؤالك ذاك وصلت للتو، قطب سعيد جبينه وأحد فيه النظر وهو يقول: ما تقصد يا مقبل؟ ماذا تعني؟ هل هناك مشكلة تلوح في الأفق؟ قال: لا أدري يا سعيد، لا أدري، هل هي

المشكلة أم هو الحل، أنا في أشد حالات الحيرة لذلك أتيت لك، قال: تحدث يا مقبل، قل ماذا حدث؟

قال مقبل: الليلة الماضية رأيت حلماً ثم سكت لبرهة، فقال سعيد: الله يسامحك يا أبا هلال والله لقد نشفت ريقي، هل كل تلك المقدمات من أجل حلم فحسب؟ كم من أحلام نراها فلو جعلنا من كل حلم مشكلة لما خرجنا من بيوتنا ولما بارحنا فراش نومنا، قال مقبل: لا تتعجل في لومي يا أبا شوقي حتى تسمع؛ فهذا الحلم ليس كأي حلم نراه أثناء النوم، بل هو مختلف جذرياً عنها، قال: تفضل تحدث وانا لن أقاطعك حتى تنتهي.

قال: رأيت فيما يرى النائم وكأنني في مكان عجيب، كأنني فوق السحاب كانت السحب تمتد على مد بصري كأنها بحر لا ساحل له، وفجأة رأيت شخصاً يأتي من الأفق ويقترب وأنا أنظر إليه، كان اقترابه سريعا بالرغم من بعده كأن الزمن يطوى له، وحينما أصبح أمامي ناداني باسمي ثم ألقى عليَّ السلام وقال: هناك عرض لك ولصاحبك، قلت: صاحبي، هل تقصد سعيداً المطنن؟ قال: فمن غيره؟ قلت: فمن أنت؟ قال: لا فائدة من معرفة ذلك، قلت له: فما عرضك؟ قال: إذا رغبتم في العودة إلى بلادكم فلا مانع لدينا ولكن بشروط، قلت: وما شروطكم؟ قال: إذا رغب أحدكم أن يعود فسيعود هو وجميع ذريته،

والذي سيعود يجب عليه ألا يتحدث عما حدث معه هنا إطلاقاً، وإلا سيصاب بالجنون بقية حياته؟

قلت: فمن رغب بالعودة فماذا عليه أن يفعل؟ قال: يعود إلى الكهف الذي وصل إليه في أول الأمر ثم ينام هناك، وعندما يعود لبلاده لديه مهلة شهرين كي يعد مكاناً مناسباً له ولجميع ذريته، فإذا انقضت الشهران وهو لم يجهز المكان فسيبقى هناك وحده، لديكم ثلاثة أيام بلياليها كي تفكروا في الأمر وتتخذوا فيه قراراً، أخبر صاحبك وأنا سأزورك غدا كي أؤكد لكم هذه الرسالة، ثم قال: وداعاً واختفى سريعاً كما جاء، صحوت وأنا خائف مذعور، وبقيت أفكر إلى الفجر لم تغمض لي عين.

قال سعيد: هذا أمر عجيب جداً، هل أخبرت أحداً من أهلك أو من أهلي؟ قال: لا، لم أخبر أحداً إلا أنت، قال سعيد: إذاً سنعود إلى ديارنا بعد غياب أكثر من خمسة وعشرين عاماً؟ قال مقبل: هذا بالنسبة لك، أما بالنسبة لي فهي ثلاثون عاماً، لكن يا سعيد هذا الأمر يحتاج إلى تفكير عميق وعدم استعجال قبل اتخاذ أي قرار.

قال سعيد: لماذا نحتاج إلى تفكير؟ نحن سنعود إلى ديارنا التي انتزعنا منها عنوة بلا اختيار منا، أليس هذا هو ما كنا نتمناه؟ قال مقبل: هذا كان قبل خمسة وعشرين عاماً، أما الآن فالأمر مختلف، قال سعيد: ما الذي

اختلف؟ قال مقبل: فكر معي يا صديقي نحن في هذه الأرض قد أصبحت لدينا حياة كاملة، بنيناها خلال سنوات طويلة، انظر إلى هذه الأرض من حولنا، مساحات شاسعة من الخضرة، خصوبة ومياه جارية لا تنقطع، أرض ثرية بمواردها الطبيعية، عطاء لا حد له، أصبح لنا جذور عميقة في هذه الأرض، هل سنترك كل شيء خلفنا ونغادر هكذا بكل بساطة؟ هل تستطيع أنت يا سعيد أن تترك هذه الأرض وتعود إلى بلادك؟ ماذا تبقى لنا هناك؟ وإلى أين سنعود؟ هل تتوقع أن بيوتنا وأراضينا هناك مازالت موجودة؟ هل نسيت يا سعيد أنني دفنتُ أمي وأبي، وأنت دفنتَ أمك في هذه الأرض؟

صمت سعيد ثم قال: بالفعل كلامك واقعي، لقد غابت عني كل تلك التفاصيل، كنتُ طوال وجودي هنا أشتاق للعودة إلى وطني، بل كان هو حلمي الذي كنت أتمنى أن يتحقق في يوم من الأيام، قاطعه مقبل قائلاً: لكن ذلك اليوم تأخر في القدوم، تأخر كثيراً لدرجة أنه حينما أتى سبب لنا الكثير من الحيرة والارتباك أليس كذلك؟

قال: بلى، ولكن ألا ترغب أنت في العودة إلى وطنك الذي ولدت فيه وتربيت فيه؟ قال مقبل: أنت حينما تتحدث عن الوطن تجعلني أتساءل ما هو الوطن؟ هل هو هنا أم هناك؟ هل الوطن هو الذي ولدنا فيه وترعرعنا فيه؟ أم هو الذي وجدنا فيه أنفسنا وحققنا فيه طموحاتنا

وأنجزنا فيه الكثير من الإنجازات؟ أهو حفنة من تراب؟ قطعة قماش، أصوات أغاني وأهازيج تعلن عن الانتماء؟ لنفترض أننا عدنا إلى وطننا، أنت إلى قريتك وأنا إلى قريتي ماذا سنفعل هناك؟ ماذا سنحقق من الآمال هناك؟ ما هو الوطن؟ هل هو الذي ولدنا فيه أم هو الذي زرقنا فيه؟ هذا سؤال جدلي احتار الكثير في الإجابة عليه،" ما هو الوطن فعندما يصف أحدهم الوطن بأنه موطن أمن وأمان وآمال، تنمو على أغصان الزمان"[1]

قال سعيد: بالفعل أقنعتني، لو عدنا من سنجد ممن نعرفهم؟ بالنسبة لي سأعيش هناك كالغريب، أتوقع أن كل من عرفتهم هناك، إما أن يكون قد مات، أو نسيني تماماً، أو فقد اهتمامه بي، سأحتاج إلى سنوات عدة كي أبني مجدداً شبكة علاقاتي وأكون صداقات جديدة، وأعتقد أنني في هذه السن لم يعد بي رغبة لذلك الأمر، فكلما تقدم الإنسان في السن تقوقع على نفسه واكتفى بالعلاقات التي بناها سابقاً في أثناء فترة شبابه إلا نادراً.

قال مقبل: هذا أمر مهم، لكن هناك أمر أهم أغفلنا ذكره، قال سعيد: وما هو؟ قال: أولادنا وأحفادنا يا جاري العزيز، قال: ما بهم؟ قال: ألم

---

[1] غسان كنفاني من رواية عائد إلى حيفا.

تفكر يا سعيد ما الذي سيحدث لهم لو أن أحدنا قرر المغادرة دون الآخر؟ قال سعيد: ما الذي تقصده؟

قال: أقصد أن أولادي تزوجوا ببناتك وأولادك تزوجوا ببناتي أليس كذلك؟ قال سعيد: بلى بالطبع فهمتُ ما ترمي إليه، لو أنني قررت العودة وأنت قررت المكوث هنا فهذا سيمزق العائلات؛ فقد يغادر أبنائي معي ويدعون زوجاتهم هنا، والله أعلم ما الذي سيحدث لأبنائهم هل سيغادرون مع آبائهم أم لا؟ وكذلك الحال مع بناتي أيضاً، بالفعل يا أخي مقبل الأمر معقد، عرضهم في هذا الوقت بالذات يشبه مأدبة فاخرة قدمت لشخص جائع في غاية الجوع ولكنها مسمومة، قال مقبل: لدينا ثلاثة خيارات، الخيار الأول أن نغادر جميعاً ويعود كل منا إلى بلاده، والخيار الثاني أننا نبقى هنا جميعاً، والخيار الثالث أن يغادر من يرغب منا في المغادرة، فما رأيك يا سعيد؟

قال سعيد: الخيار الثالث يستبعد تماماً، إذ لا أحد يرغب في تشتيت أهله وتفريق الأحبة عن بعضهم وتمزيق الأسر، بقي لدينا الخيار الأول والثاني ومازال لدينا الوقت الكافي للتفكير فيهما بروية وعقل ومنطق بعيداً عن العواطف، نحن وضعنا بين أمرين أحلاهما مر، هذه الأرض أعطتنا الكثير لكنها عزلتنا عن العالم بكله، لدينا فيها موارد كثيرة لكننا

لا نستطيع أن نبادلها مع أحد، مثلا لدينا منجم الذهب يوجد فيه الكثير من الثروة لكن لا قيمة لها هنا ما عدا استخدامه لزينة نسائنا.

قال مقبل: فما هو قرارك الأخير يا صديقي؟ قال سعيد: قراري هو قرارك والعكس صحيح، أرى أن نأخذ وقتنا الكافي ونفكر ملياً ثم نلتقي هنا في اليوم الأخير للمهلة التي أعطوها إيانا، قال مقبل: حسناً اتفقنا استودعك الله، ثم غادر متجها إلى قريته.

-19-

حقيقة أم خيال؟

" لسبب في أن الحقيقة قد تكون أغرب من الخيال هو أن الخيال يجب أن يربطه خيط منطقي ليجعلنا نصدقه، أما الحقيقة فقد لا تكون منطقية إطلاقاً"

سيدني جاي هاريس[1]

الزمان: منتصف عام 1957م

المكان: بندر عدن جنوب اليمن- مستشفى الملكة اليزابيث[2]

---

[1] هو محامي وقاضي كندي ولد في عام 1917م وتوفي عام 2009م

[2] في أبريل عام 1954م قامت الملكة اليزابيث الثانية بافتتاح مستشفى حديث في خور مكسر سمي هذا المستشفى باسمها، وكان يعتبر حينها من أكبر وأفضل المستشفيات في الجزيرة العربية والخليج، وقد شمل عنابر رقود تتسع لـ 500 سرير، وصيدلية ضخمة لصرف وتحضير الأدوية، ومختبرا كبير يعتبر حديثا بمقاييس تلك الفترة، وقسما للأشعة وقسما للعيادات الخارجية وعيادتين للأسنان، وقسما خاصا بمرضى السل يحوي 30 سريراً، سمي هذا المستشفى بعد الاستقلال بـ " مستشفى الجمهورية " ومازال يعمل حتى اليوم.

المصدر: جريدة الأيام العدنية 16 أغسطس 2007 م د. علي محمد الأكحلي.

في ركن قصي من الصالة التي أمام قسم الحالات الحرجة – العناية الفائقة – كان ثمة جسم متلفع بالسواد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، كان جالساً ينظر للفراغ وحركاته الرتيبة تنبئ عن ملل زاد عن حده وسأم استوطن أضلاعه، كان ذلك الجسم هو لشابة تنتظر، لا نعلم حتى الآن من تنتظر بالضبط، ولكن يبدو من هيئتها أنها تنتظر شخصاً ما تأخر عن موعده.

في نفس تلك اللحظات كانت هناك عيون تراقبها عن كثب منذ فترة، كانت امرأة أخرى، ولكنها تبدو أكبر منها في السن، كانت تلك المرأة تتوق كي تتحدث مع تلك الشابة التي يبدو من شكلها أنها قروية وأتت من مكان بعيد، لكن حياءها منعها من فتح باب الحديث معها، ولكنها اليوم ستستجمع جرأتها وتفتح معها الحديث بأي طريقة، بدلا من الاكتفاء بتبادل النظرات.

لذا اقتربت منها وجلست بجوارها وألقت عليها السلام، ثم قالت: من أين أنت يا شابة؟ قالت: أنا من تعز من الريف قضاء الحجرية، قالت: ما شاء الله هناك الكثير من سكان عدن ينحدرون من الحجرية وهم غالباً تجار محنكون، أنا اسمي سبأ وزوجي كان يعمل في مصفاة البريقة عندما سقط من سقالة ودخل في غيبوبة وهو كذلك منذ شهر تقريباً، قالت الشابة: شفاه الله وعافاه وشفى كل مريض، أنا اسمي رشيدة ولديَّ

ابني هنا منذ ثلاثة أشهر وهو في غيبوبة بين الحياة والموت، قالت سبأ: يا لطيف وما الذي أصابه؟

قالت رشيدة: نحن لا نعلم على وجه التحديد ما الذي أصابه، لكن على حد قول بعض رعاة الأغنام الذين صادف وجودهم قريباً منه، قالوا بأنه كان يطارد أرنباً برياً عندما انزلقت قدماه من قمة دردوش هيجة تسمى عندنا هيجة سعيد وسقط من الضاحة من على ارتفاع أربع قامات وسقط على صفا بالقرب من البركة التي في أسفل الدردوش على رأسه، فأصيب بكسور في الجمجمة وفي أطرافه ودخل في غيبوبة ومنذ ذلك الحين لم يفق.

قالت سبأ: لا حول ولا قوة إلا بالله وكم يبلغ عمره؟ قالت: عشر سنوات، في تلك الأثناء دخل رجل في مقتبل العمر وأخذ يتلفت، فقالت سبأ: استأذنك يا أختي رشيدة جاء أخي، أسأل الله أن يشفي ابنك وزوجي ويرجعا أحسن مما كانا، سأطمئن على ابنك لاحقا، في أمان الله ثم ذهبت إلى أخيها.

عادت رشيدة تنظر في الفراغ أمامها ونظرت في ساعتها ثم قالت في نفسها لقد تأخر عبد الواسع، تنهدت ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت: يا رب اشف ابني سعيد، يا رب أنت تعلم أنه ليس لي غيره؛

فلا تفجعني فيه يا رب اجعله يفيق من غيبوبته ويعود لي كما كان مليئاً بالنشاط والحيوية، يا رب أنت رجائي وأنت لا تخيب رجاء من رجاك.

عاد زوجها عبد الواسع وهو يحمل كيساً فيه طعام الغداء وجلسا في أحد أركان الصالة يأكلان بصمت وشرود، وبعد أن انتهيا من تناول الطعام سألها زوجها: هل حدث أي أمر جديد في أثناء غيابي؟ قالت: لم يحدث شيء غير أنني تعرفت على امرأة تقول إن زوجها في غيبوبة وموجود في قسم العناية الفائقة من جراء سقوطه من سقالة، كان يعمل في شركة مصفاة البريقة، قال: الله يلطف به وبسعيد ابننا، أنا أحاول جاهداً لدى الحكومة المحلية منذ عدة أسابيع كي ينقل ابننا لمتابعة علاجه في لندن أو حتى في القاهرة، وهناك وعود مبشرة.

استمر الوضع على ما هو عليه لمدة عشرة أيام أخرى، كان قد مر على الحادث ثلاثة أشهر ونصف، حينما دوى أروقة المشفى في منتصف نهار ذلك اليوم نداء يطلب من مرافق المريض سعيد عبدالواسع الحضور إلى داخل قسم العناية الفائقة، في ذلك الحين كانا يتناولان طعام الغداء وعندما سمعا النداء تركا كل شيء واندفع عبدالواسع وزوجته إلى باب القسم حيث استأذنا فسمح لهما بالدخول بعد أن ألبسا أردية خاصة معقمة وأغلفة بلاستيكية خاصة للأحذية، وهناك في حجرة الطبيب

المسؤول على القسم جلسا ينتظران وصوله، مرت عليهما دقائق كأنها ساعات حتى أن عبد الواسع لم يطق الجلوس فظل واقفاً.

أخيراً أتى الطبيب وهو يرتدي لباساً أزرقاً فاتحاً خاصاً بالقسم، والسماعة الطبية تطوق عنقه، كان كهلاً انجليزياً فارع الطول نحيف البنية ينادونه البروفيسور سكوت، ألقى عليهما التحية بلغة عربية مكسرة ثم جلس على مكتبه، وطلب من عبد الواسع الجلوس لانتظار المترجم الخاص بالقسم بالبرود المعروف عند الإنجليز.

قال عبد الواسع في نفسه: يا الله أعطنا الصبر، أولاً انتظرنا الطبيب ثم علينا الآن أن ننتظر المترجم، لماذا يستدعوننا إذا لم يكونوا جاهزين؟ هذا لعب بأعصابنا، لم يتأخر المترجم كثيراً، دخل وألقى السلام وجلس في الكرسي المقابل لعبد الواسع، كان شاباً عدنياً أسمرا ووسيماً.

بدأ الطبيب يتحدث والمترجم ينقل لهم كلامه باللغة العربية باللهجة العدنية الدارجة، قال الطبيب: لقد كنت قبل قليل عند ابنكم الطفل سعيد ثم سكت قليلاً، كان عبدالواسع وزوجته رشيدة في حال لا يحسدان عليه من الخوف والتوجس، كانت رشيدة تردد في نفسها يا رب لطفك يا رب لطفك، طال سكوت الطبيب فقال عبدالواسع خيراً أن شاء الله طمنا يا بروفيسور، ابتسم الدكتور سكوت وقال: حسناً لقد كانت حالته جيدة، قال عبد الواسع للمترجم: أخبره أن يخبرنا بالموضوع

الذي استدعينا من أجله دفعة واحدة؛ فلدينا القدرة على تحمل أي خبر ولو كان سيئاً.

كان عبد الواسع يعلم أن التعامل مع الإنجليز يحتاج أن تقابل برودهم ببرودة أشد قد تصل إلى درجة التجمد، لكن الوضع في هذه الحالة مختلف فهو يتحدث عن ابنه الوحيد الذي يصارع بين الحياة والموت، ابتسم الطبيب ابتسامة واسعة حينما أوصل له المترجم كلام عبد الواسع كأنه أعجبه ثقته واعتداده بنفسه، ثم قال: لقد أفاق ابنكم من غيبوبته قبل ساعة من الآن وحالته مستقرة.

هتف المطنن وزوجته بالحمد والشكر لله والثناء عليه، واصل الطبيب كلامه قائلا: وهو قادر على الكلام بشكل جيد ويبدو أيضًا أن ذاكرته لم تتأثر بالحادث، مع أنه لا يتذكر ما الذي حدث له ويتسأل ما الذي جاء به إلى هذا المكان لكنه كان يردد: أين أمي أين زوجتي صفية؟ قال المطنن وزوجته في استغراب: ماذا؟ زوجته صفية؟ واصل الطبيب كلامه: عجيب أمركم يا يمنيون كيف تزوجون طفلا لم يبلغ العاشرة من عمره؟ ولا استغرب إن كانت صفية هذه عمرها سبع سنوات.

لم يطق عبد الواسع صبرا وقاطع الطبيب قائلاً: لا يا بروفيسور نحن لم نزوج ابننا وهذه العادة غير موجودة في بلادنا إطلاقاً، أقصد تزويج الأطفال، هذا يعني أن ابني يعاني من مشكلة ما في ذاكرته، قال

الطبيب: عجيب ظننتُ أن الأمر طبيعي، لكن إذا لم يكن متزوجاً فمن أين أتى بفكرة أن له زوجة وذكر اسمها؟ ولماذا لم يطلب أبوه ولم يذكر اسمه؟ قال عبدالواسع: هل تسمح لنا يا دكتور برؤيته؟ قال الطبيب: بالطبع هذا أمر ضروري بالنسبة لكم وله ومفيد بالنسبة لنا لأننا على ضوء استجابته وردة فعله حينما يراكم سوف نقوم نحن بتقييم مدى سلامة دماغه بعد الضربة التي تلقاها على إثر سقوطه، أتوقع الآن أن تكون الممرضات قد جهزنه لاستقبال ضيوفه، تفضلوا معي واستعدوا نفسياً لكل الاحتمالات كأن لا يتعرف عليكم مثلا، مجرد نجاته من الموت يعتبر بالنسبة لنا إنجازاً عظيماً، كما أن ثلاثة أشهر ونصفا من الدخول في غيبوبة يترك أثرا بالغاً في الدماغ، في معظم الحالات يزول مع مرور الوقت، وفي حالات أقل يكون الضرر دائم.

دخل الطبيب يرافقه المترجم ووالدي المريض، طلب الطبيب منهما أن يتقدما ويطمئنا على ابنهما وطلب من المترجم أن يكون قريبا منهما كي ينقل له طريقة تفاعل المريض مع والديه وقدرته على التجاوب معهما، اقترب الوالدان من طفلهما وابتسما له بحنان، كانتا عيناه تسبحان في الفراغ، وحينما شاهد والديه يبتسمان له ابتسم لهما في وداعة وحياء.

جاءت والدته عن يمين سريره ووالده عن يساره انكبت الأم تقبل يده التي لا تربط بقربة نقل السوائل إلى وريده وتحاشت تقبيل جبينه أو

وجهه خوفاً عليه من الأربطة والضمادات التي كانت تخفي خلفها جروحه، نظر إليها في حنو وإشفاق وترك لها يده تقبلها وهي تعبر عن فدائها له بروحها، وتحمد الله على سلامته، ثم نظر لوالده الذي كان يبتسم له ثم قال له: الحمد على سلامتك يا بطل مرحبا بعودتك إلينا يا ولدي الحبيب، حينئذٍ قال الطفل في استغراب: قلت ولدي؟ قال نعم أنت ولدي العزيز، خفنا عليك كثيراً بعدما أصبت في الحادث، قال: حادث؟ أي حادث؟ قال: أتى بك الرعاة إلى البيت وأنت بين الحياة والموت مغطى تماماً بالدماء وقالوا إن قدميك انزلقتا وسقطت من ضاحة هيجة سعيد؟ قال: أنا حصل لي ذلك؟ قولا لي من أنتما أنا لا أعرفكما؟ شهقت والدته وضربت صدرها وقالت وهي تغالب دموعها: هل نسيت أباك وأمك يا ولدي؟ يا حسرتا عليك؟ أنا أمك وهذا أبوك، قال الطفل: أبي وأمي؟ ولكن كيف حصل ذلك؟ صحيح أنك تشبهين أمي كثيراً، لكنك شابة وصغيرة في السن، أما أمي فهي كبيرة في السن وكهلة، وأبي توفي وأنا في الخامسة عشرة من عمري وشاركت في الصلاة عليه ودفنه.

فغر عبد الواسع فمه دهشة لما يقوله ولده، فها هو يميته ويدفنه وهو حي يرزق، لكنه تمالك نفسه وبقي رابط الجأش وقال لولده: لا بد أنك فقدت جزءاً من ذاكرتك بسبب الحادث، قل لي ما أسمك؟ قال: اسمي هو سعيد عبدالواسع المطنن، قال: تمام أنا هو والدك عبدالواسع

المطنن، فما اسم أمك؟ قال: رشيدة سيف علي الطيار، قال: تمام هذه هي أمك، قال الطفل: فأين زوجتي صفية غانم صالح؟ قالت أمه متعجبة: عرفتها صفية غانم صالح هي طفلة في الثامنة أو السابعة من عمرها تلعب مع البنات أمام بيتها في القرية، لماذا أخترتها هي من بين البنات؟

بدأ الطفل يتشنج ويرفع صوته قائلاً: هي زوجتي وأم أولادي أين هم أولادي شوقي وميسون وسلوى وعبد الرحمن؟ وأين أحفادي؟ أريد منكم أن تأتوا بهم حالاً، ثم ماذا فعلتم بي كيف جعلتم جسمي صغيراً هكذا، قولوا لي من أنا؟ أين أنا؟ قال له والده: أنت ابني سعيد عبد الواسع ردمان المطنن، قال: لكن هذا ليس جسدي، أنا أبلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً كيف تحولت إلى طفل؟ هاتوا لي مرآة أشاهد فيها وجهي؟ كيف قال لي مقبل أنهم عرضوا علينا العودة إلى بلادنا بعد نفي في الأرض المفقودة لمدة ثلاثين عاماً ثم أجد نفسي طفلا مربوطاً إلى سرير في مستشفى؟

بدأت أمه تجهش بالبكاء، أما الأب فقد أخذ ينظر إلى ابنه في ذهول كأنه يرى أمراً خارقاً للعادة، بدأ الطفل في الصراخ ومحاولة النهوض من السرير وهو يقول: ماذا فعلتم بي أيها المجرمون؟ اختطفوني من قريتي وحرمتموني من أسرتي ثم ها أنتم تجعلونني طفلا صغيراً كيف تتلاعبون

بحياتي هكذا؟ كان يهدد ويتوعد المجهول، حاول أن ينزع الحقنة التي في يده لكن الطبيب صرخ: "nurses come her now.....now"[1] فأقبلت بسرعة ثلاث ممرضات أمسكن به ثم أمرهن الطبيب بإعطائه حقنة مهدئة فقاوم قليلاً وحاول أن يتملص منهن ولكنه استسلم ثم نام نوماً عميقاً.

انسحب الجميع من غرفة المريض وخرجت الأم وهي تنتحب فأسندها زوجها على كتفه وقدماه هو أيضًا لا تكادان تحملانه، سارا خلف الطبيب إلى مكتبه، وقبل أن يجلس قال له عبد الواسع: ما الذي حدث لعقل ابني يا دكتور؟

جلس الدكتور على مكتبه وهو يتنهد ثم قال: أمر طبيعي جداً- كما قلت لك سابقاً- أن يفقد ذاكرته من تعرض لحادث في الدماغ سواء بصفة جزيئة أو كلية لفترة محدودة أو قد تطول، لكن حالة ابنك أذهلتني، من المنطقي أن يستعيد الإنسان ذاكرته لما حدث له قبل الإصابة لكن ابنك يتحدث عن المستقبل البعيد، هو اختزل أكثر من سبعة وأربعين عاماً قادمة، يعني هو يعيش الآن في عام 2004م وهذا أمر في غاية الغرابة، هناك أيضًا أمر يحيرني كثيراً، قال الأب: وما هو؟

---

[1] الترجمة لها هي: أيتها الممرضات تعالين هنا حالاً.... حالاً.

قال طريقة ابنك في الحديث ليست أبداً طريقة طفل في مثل عمره، إنه يتحدث كأنه رجل كهل قد خبرته الدنيا وعركته، يتحدث بمنطق وحجة وثقة ويذكر مصطلحات لا يمكن أن يمتلكها طفل صغير في العاشرة لم يغادر قريته، قال عبد الواسع: فما هو العمل؟ هل جنَّ ولدي يا دكتور؟ رد الدكتور: بالطبع لا لم يجن، ولكن في مثل هذه الحالات عندما تكون هناك إصابة مباشر للدماغ فقد يحدث تأثير غير مرغوب على نحو غير متوقع، قد يكون دائماً وقد يزول مع مرور الوقت.

لكنني حالياً لا أستطيع أن أشخص حالة ابنك لأنني ببساطة لست مختصا بمثل هذه الحالات، لذا أريد منكم أن تعودوا الآن إلى بيتكم، وأنا سأقوم بطلب الاستشارة من زملائي الأطباء في مختلف التخصصات الطبية وخاصة استشاري جراحة المخ والأعصاب، وسنقوم بالفحص السريري الشامل للمريض، كي نخرج بتشخيص موحد، وعلى ضوء ذلك سنتخذ القرار بصفة جماعية حول البروتوكول العلاجي الذي سنقوم بتطبيقه على ابنكم للوصول إلى الشفاء التام.

أطمئنكم بأن حالة ابنكم تثير اهتمامي وسأجعلها من الآن قضيتي الشخصية، لأن حالته نادرة ولم أشاهد مثلها خلال مسيرتي المهنية، وإذا لم يكن لدينا إمكانيات للعلاج هنا في عدن فأنني سأسعى جاهداً لنقله إلى لندن في أسرع وقت لاستكمال العلاج في أرقى المراكز البحثية

الطبية هناك، أريد منكم ألا تقلقوا مع أن طلبي هذا يبدو صعباً عليكم لكن حاولوا، غدا في مثل هذا الوقت سألتقي بكم هنا كي أناقش معكم ما توصل إليه المجلس الطبي الاستشاري.

عاد الوالدان إلى مقر إقامتهما يجران أقدامهما جراً كأنهما يحملان هموم الدنيا كلها فوق كاهليهما، كان الصمت مخيماً على الوضع، وكان عبد الواسع يريد أن يواسي زوجته التي كانت حالتها تفتت قلبه، كانت كطير منتوف الريش ومكسور الجناحين، حتى الدموع جفت في مآقيها واستعصت على العيون أن تذرفها، وعندما تكون الفجيعة فوق الاحتمال حتى الدموع لا تطيق أن تترجم أحزاننا، فتتراكم الأحزان في القلب لتشكل جلطة روحية هي أخطر بكثير من تلك الجلطات الدموية القاتلة.

تشجع عبدالواسع وكسر حاجز الصمت وقال كأنه يحدث نفسه: اللهم لك الحمد كنا خائفين أن لا يصحو من غيبوبته أو أن تفضي تلك الغيبوبة إلى فقدانه تماماً، لكن الله لطف به و صحا من غيبوبته الطويلة تلك، تنهدت رشيدة وقالت: صحيح نحمد الله على عودة وعيه، لكن ما الفائدة يا عبدالواسع، واختنقت بعبرتها وغُصت بحزنها فابتلعت ريقها بصعوبة وقالت: إنه لا يعرفنا، لا يعرف أبويه، ويقول أشياء لا يصدقها عقل، أنت ميت وأنا عجوز وهو في الخمسين من عمره ولديه زوجة

وأبناء وأحفاد، حالته تخيفني يا عبدالواسع أصبحت أخاف منه وأخاف عليه، كم كنت أتمنى ان أحتويه بين أحضاني لكنه يتعامل معي كأنني غريبة عنه.

قال: بالفعل كلامك صحيح وأنا أيضًا أشعر بنفس شعورك يا رشيدة، لكن يجب أن نعتصم بالصبر في مثل هذه الحالات العصيبة، لا فائدة من اليأس لأن ابننا في حاجة إلينا كي نقف إلى جواره في معركته، ولا ننسى أن الذي أعاد لنا جسده وأنقذه من الموت المحقق قادر على أن يعيد لنا عقله، يجب أن نحسن الظن بالله ونثق بلطفه وقدرته التي لا حدود لها، كي نستمد منه الحول والقوة على مساعدة ابننا على تخطي حالته.

عاد الوالدان في صباح اليوم التالي باكراً ولم يطيقا صبرا على الانتظار حتى الموعد الذي ضربه لهم الطبيب، سألا عن ابنهما فقالت لهما رئيسة الممرضات في قسم العناية الفائقة: لقد غادر القسم لم يعد موجودا لدينا، كاد قلبهما أن يسقط فهتفا سوياً أين ذهبتم به؟ قالت الممرضة: لقد انتقل إلى قسم النقاهة لما بعد العمليات الجراحية.

فغر الوالدين أفواههما دهشة وقالا في وقت واحد: وهل أجريتم له عملية جراحية؟ ضحكت الممرضة الهندية وقالت: لا لم نجر له أي عملية، ولكن أمس اجتمع حوله عدد كبير من الأطباء من مختلف التخصصات لو رأيتموهم لتعجبتم، كل المستشفى كان موجود حوله،

وهذا الأمر لا يمكن أن يتم داخل قسمنا الذي نحافظ فيه على مستوى عال من التعقيم والهدوء؛ لذا فقد قمنا بنقله لمكان مناسب، أيضًا هو في تحسن مستمر ولم يعد في حاجة للمكوث في قسمنا كما قرر البروفيسور سكوت، فقالت: رشيدة فأين هي غرفته إذا؟ فأشارت لهما بمكان غرفته.

ذهبا يكادا يهرولان وعندما دخلا وجداه يتناول طعام الصبوح؛ فاقتربا منه في حذر وجلسا على كرسين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، ابتسمت له والدته فبادلها بابتسامة كأنها انتزعت من شفتيه وتوقف عن المضغ، تشجعت رشيدة فاقتربت وأخذت لقمة وقربتها من فمه، فنظر ليدها الممتدة ثم نظر إلى وجهها الضارع إليه في حنان، كأنه تردد لبرهة ولكنه لم يستطيع أن يقاوم تلك النظرة الحانية المفعمة بالحب الأمومي الخالص، ففتح فمه وألتقم تلك اللقمة من يد أمه التي يشك أصلاً أنها أمه، واصلت الأم إطعام ابنها اللقمة تلو اللقمة وهو مستسلم لها، حتى انتهت.

أخرجت من صدرها منديلها الحريري الأبيض المطرز ومسحت فمه، وهي تنظر له نظرات لا تستطيع كل قواميس اللغة أن تصفها، ذلك لأن أحاديث القلوب لا تفهمها إلا القلوب، انتقلت رشيدة للخطوة التالية في إثبات وجودها كأم؛ فالتقطت كفه ووضعته بين كفيها، ثم رفعته

ببطء ولثمته بقبلة طويلة أودعتها كل حبها وحنانها لأبنها الوحيد، اتسعت عيناه ونظر في دهشة إلى عيني أمه كأنه يقول لها: لماذا فعلت ذلك؟ أخذ للحظات ينظر إليها بنظرة محايدة.

لا أحد يعلم ما الذي كان يدور في ذهنه في تلك اللحظات؟ كانت لحظات استثنائية لأم تحاول أن تتواصل عاطفياً مع ابنها الذي لا يعرفها، ثم أخذ ينظر إلى يدها الممسكة بيده كأنه يفكر في إجراء معين ولكنه يختبر عواقب ذلك الأجراء، وبحركة غير متوقعة إطلاقاً رفع يد أمه وطبع على ظاهر كفها قبلة خفيفة، ارتاعت الأم وأخذت تمطره بوابل صيب من القبلات الممتزجة بالدموع، كانت تنتحب وهو ينظر إليها في استسلام تام، كان مشهدا دراميا تراجيديا من الصعب احتماله؛ لذا أشاح عبد الواسع بوجهه نحو النافذة كيلا تُرى دموعه وهي توشك على مغادرة مرافئها.

مرت لحظات كانت الأم ما زالت متشبثة بكفي طفلها، والأب ينظر واقفا بجوار النافذة مشيحاً عنهما بوجهة محاولا أن يخفي قطرات الدموع التي تحدرت على لحيته، عندما فاجأهما سعيد فتنحنح كأنه يهيئ الطريق أمام الكلمات التي ستخرج من حنجرته، ثم قال: أنا آسف أن سببت لكم الحزن والألم، التفت الأب ينظر إلى ابنه في استغراب وتعلقت عينا الأم بشفتي ابنها وهو يواصل حديثه: أعلم أنني سببت لكم الكثير من

الآلام والأحزان والكثير أيضًا من المتاعب، أنا أشعر بمعاناتكم وألمكم ولوعتكم؛ فأنا أضع نفسي مكانكم فأجد نفسي في وضع صعب لا أحسد عليه، أنا أيضًا أب وأعرف تماماً شعور الأب عندما يرى صغيره في حالة حرجة يناضل كي يتعرف على نفسه.

كان يتحدث وهما مذهولان لا يكادان يصدقان ما تسمعه أذانهما، كان الأب يقول في نفسه: كيف لطفل قروي في العاشرة أن يتحدث كفيلسوف، واصل سعيد حديثه: أنا أرجوكم أن تعذروني ما زلت غير مستوعب ما حدث لي، كنت بالأمس في حيرة في أمري هل أعود إلى قريتي بعد غياب قسري امتد لخمسة وعشرين عاماً، أم هل استمر في حياتي التي أسستها في الأرض المفقودة، لذا أرجوكم احتملوني حتى أجد طريقة ما كي أجد حلا ما لهذه المعضلة الجديدة التي وقعت لي، إن حياتي ما هي إلا سلسلة من المعضلات.

غامت الدنيا في عيني عبد الواسع، وتهاوت رشيدة على الأرض تنشج في لوعة وأسى، كانا يظنان أنه قد بدأ في التحسن من خلال التجاوب العاطفي الذي حدث بينه وبين أمه، لكن كلامه الآن نسف كل ما بنوه من آمال، واتضح لهم أن المأساة التي هم في أتونها أعمق بكثير مما كانا يظنان، فقدت رشيدة رشدها وأخذت تصرخ: أريد منكم أن تعيدوا لي ابني كما كان، أين هو ابني؟ أين أنت يا سعيد؟ عد إلينا يا ولدي.

أما الطفل فقد اجتاحته عاصفة عنيفة من بكاء هو أيضاً، وأخذ يرتجف كأنه غصن في وجه زوبعة، حينما رأى عبد الواسع أن الوضع كاد أن يخرج عن السيطرة قرع جرس استدعاء طاقم التمريض، فكانت الاستجابة سريعة، فقد أتو وفورا حقنوا الطفل بدواء مهدئ الكيتامين وكذلك وضعوا الأم بسرير بقربه وحقنوها هي أيضًا بدواء مهدئ فنامت هي وابنها نوماً عميقاً.

أخذ عبد الواسع يتأملهما وهما نائمان في سلام ووداعة، نظر في ساعته فوجد أن الموعد مع الطبيب مازال مبكراً بقي عليه أكثر من ساعتين، خرج يهيم على وجهه في أروقة المستشفى، ثم قادته قدماه ولم يعِ إلا وهو على شاطئ البحر بالقرب من الميناء.

كان يسير في الطرقات والأزقة وهو لا يعي ما حوله غارقاً في تفكيره، لقد كان عبد الواسع رجلاً عميق الإيمان ثابت الجنان في المحن والمصائب، يعلم تماماً أنه الآن هو وابنه وزوجته في خضم ابتلاء صعب وشديد، لذا عزم على الالتجاء إلى لطف الله ورحمته.

كان موعد صلاة الظهر قد أزف لذا توجه إلى جامع العيدروس[1] وتوضأ ثم صلى تحية المسجد وجلس ينتظر أذان الظهر وأخذ يقرأ ما

---

[1] مسجد العيدروس هو مسجد يقع في حي كريتر في مدينة عدن، ويعد من أقدم وأبرز المساجد التاريخية في مدينة عدن، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ أبوبكر بن عبدالله=

تيسر له من القرآن، ثم صلى الظهر وخرج واشترى رطلاً من سمك الديرك[1] ثم ذهب إلى مخبازة الشيباني المشهورة في الشيخ عثمان، وشواه هناك وأخذ خبزاً من النوع المنزوع منه القشور ويسمى " رَطِب".

عاد إلى المستشفى، فوجد زوجته جالسة بجوار ابنها تنظر إليه وهو مستغرق في النوم يبدو أن جرعة المهدئ التي تلقتها كانت خفيفة، في البداية رفضت أن تأكل، قالت: أنها عافت الطعام لكنه ذكرها بواجبهما نحو ابنهما المريض، وقال: يجب علينا أن نكون في كامل قدرتنا وقوتنا على الوقوف بجانبه، فانصاعت له وجلست تلوك الطعام بلا شهية.

اقترب موعد لقائهما مع البروفيسور سكوت فتجهزا وذهبا في الموعد، جاء الطبيب في موعده فوجدهما ينتظران أمام مكتبه، دخلا وجلس الطبيب كان أثر الإرهاق بادياً على وجهه الكهل، انتظرا لفترة وجيزة كي يحضر المترجم فلما حضر قال الطبيب: أهلا بكما سأخبركما عنما توصل إليه المجلس الطبي الاستشاري.

=العيدروس، الذي قدم إلى عدن في حوالي العام 1485م – 890هـ، وتوفي في عام 1508م – شوال 913هـ، وقبره موجود إلى الشمال من المسجد.

[1] الديرك هو سمك من سلالة أسماك التونة، ويسمى في اليمن ديرك وفي الخليج يسمى كنعد، وهو سمك ذو قيمة غذائية عالية، ونوعية لحمه فاخرة ويعتبر من أغلى أنواع الأسماك في اليمن نظرا للإقبال الكبير عليه.

بعد فحص سريري شامل للمريض والاستماع إليه تبين لنا أنه لا يعاني من أعراض مرض الشيزوفرينيا[1] أو تعدد الشخصيات وهو التشخيص الأولي الذي كنا نتوقعه، لكننا الآن نميل بشكل شبه مؤكد إلى أن طفلكم سعيد يعاني من سجن الأحلام، أو ما يطلق عليه الاستيقاظ الكاذب وهو حلم مقنع وعميق عند الاستيقاظ من النوم، في حين أن الحالم لا يزال في الواقع مستغرق في النوم، وهناك نوع خاص من الاستيقاظ الكاذب يسمى الأحلام المتصلة وفي هذه الحالة يغرق الحالم في النوم في الواقع بينما هو ما زال يحلم، يخيل لدماغ الحالم بأنه مازال يحلم.

على كل حال، فالذي حدث لابنكم أنه خلال فترة إغمائه دخل في حالة الاستيقاظ الكاذب من نوع الأحلام المتصلة فبنى حياة كاملة في حلمه وتواصلت أحلامه حتى وصلت إلى درجة الحلم الجلي، وهي الحالة التي يكون فيها الشخص مقتنعاً تماما بأنه مستيقظ وأن الحلم هو الحقيقة بينما الواقع هو الخيال، هذا ما حدث لطفلكم راودته أحلام وهو غائب

---

[1] الشيزوفرينيا وتسمى أيضًا انفصام الشخصية أو الفصام. مرض عقلي خطير تصاحبه اضطرابات في التفكير لا يمكن التنبؤ بها وتعني كلمة شيزوفرينيا انقسام العقل. وتشير إلى السلوك المميز للشيزوفرينيا، وهو الانسحاب من الواقع والتفكير بطرق غير منطقية ومشوشة. والمصطلح لا يعني أن المصاب له أكثر من شخصية.

عن وعيه وحينما استيقظ أنكر الواقع وتشبث بالخيال، فاختلطت عليه الحقيقة بالخيال.

قال عبد الواسع فما الذي أدى لكل هذه المشكلة؟ ما السبب؟ قال الطبيب: نتوقع أن ابنكم لديه استعداد من خلال قدرات غير عادية في الخيال، لديه خيال واسع بالإضافة أن الإصابة التي حدثت لدماغه كان لها دور محوري في هذه الحالة.

قال عبد الواسع: فما هي فرص الشفاء يا دكتور؟ قال الطبيب: لحسن حظه أن هذه الأمراض هي أمراض نفسية مرتبطة بأسباب عضوية؛ لذا فإن نسبة شفاء المصابين كبيرة قد تصل إلى حوالي 90%، ولكن الصعوبة تكمن أنها تحتاج إلى وقت طويل قد يصل إلى سنة تقريباً، ويحتاج أيضًا إلى دعم نفسي كبير ودفء عائلي، وأنا من خلال معرفتي بكم أتوقع أنكم قادرين على لعب هذا الدور بجدارة.

قال الأب: فماذا تقترح يا بروفيسور؟ قال الطبيب: حسناً يا سيد عبد الواسع أعتقد لو أنكم رأيتم جمجمة طفلكم حينما شرعنا في العملية الجراحية له لهالكم الوضع، كانت الجمجمة مهشمه بشكل مريع، ولكن المدهش في الأمر بالرغم من سقوطه من ارتفاع ثلاثين قدماً لم يكن في الدماغ أي شظايا من عظام الجمجمة، وكانت الكسور كلها منتظمة ونظيفة بالرغم من كثرتها، وحينما جمعنا قطع العظام التأمت وتداخلت

في بعضها بشكل مريح، وفي خلال أقل من شهرين كانت تلك الكسور قد جبرت.

أريد أن أقول لكم: لو أن شخصا بالغاً سقط من نصف ذلك الارتفاع على أرض ترابية لكانت فرصة نجاته من الموت هي 5%، إن السقوط من ذلك الارتفاع على صخرة صماء على الرأس لا تصل نسبة النجاة فيه إلى 1%، إن نجاة طفلكم وعدم إصابة عموده الفقري وإصابته بالشلل التام هو أمر يفوق الخيال، فما يحدث له الآن ما هو إلا شيء بسيط مما قد كان يحتمل أن يصاب به.

سكت الطبيب قليلاً ثم قال: إن ما حدث لطفلكم هو أمر خارق لكل ما درسناه في علم الطب وما مارسناه خلال عملنا في الطب، وهو أيضًا خرق لقوانين الفيزياء ولجميع قوانين الجاذبية، ببساطة ما حدث لسعيد هو ما تطلقون عليه أنتم معجزة كونية،

وهناك أيضًا أمر آخر أثار اهتمامنا، قال عبدالواسع وما هو يا دكتور؟ قال البروفيسور: أثناء فترة إغماؤه كانت تنتابه حالات غريبة غير مفهومة لنا، قال: مثل ماذا يا دكتور؟ قال: كانت أحياناً تزداد ضربات قلبه ويرتفع النبض إليه إلى ما فوق الحد الطبيعي، وأحيانا تنساب من عينيه الدموع غزيرة، وأحياناً تتباطأ نبضات قلبه وتصل إلى مستوى

خطر مما يجعلنا نتدخل ونحقنه بمادة الأتروبين[1]، كل هذه الأمور جعلتنا في حيرة ولم نستطع أن نجد لها تفسيرا علمياً، لكنها برغم ذلك مضت ولم يكن لها تأثير دائم.

أنا في الحقيقة مدين لطفلكم الصغير ذي العشر سنوات الذي جعلني أعيد نظري في كثير من أفكاري عن الدين والخالق؛ فقد كنت طيلة عمري لست مقتنعاً بوجود الخالق، لكن ما حدث مع ابنكم سبب لي صدمة سيكون لها تداعيات مستقبلية، لذا فأنا أسجل عميق شكري لكم ولطفلكم بشكل خاص.

قال عبد الواسع الشكر والفضل والمنة لله وحده الذي لطف بابننا، ثم لك ولجميع العاملين في المستشفى وخاصة في قسم العناية الفائقة الذين تحملوا ولدي لأكثر من ثلاثة أشهر، لكن ما العمل الآن يا بروفيسور سكوت؟

قال الطبيب: سأقول لك أنا قمت بجميع الإجراءات وجهزتها اليوم قبل أن ألقاكم فتواصلت مع مستشفى أدينبروك[1] في مدينة كامبريدج في

---

[1] الأتروبين: دواء يستخدم لتسريع نبضات القلب (لرفع ضغط الدم) في حالات انخفاضه خلال عمليات الإنعاش ولتوسيع حدقة العين والتحضير للعمليات الجراحية التي يتم إجراؤها تحت التخدير الكامل.

إنجلترا حيث كنت أعمل هناك رئيساً للأطباء، فشرحت لهم حالة المريض وقد وافقوا على الفور في استقبال ابنكم وهذا المستشفى يحوي أكبر مركز لجراحة المخ والأعصاب في أوروبا، كما نسقنا لكم سكنا عائلياً عند عائلة إنجليزية متميزة وودودة، كل ذلك مجاناً على حساب مركز أبحاث الدماغ التابع لكلية طب كامبريدج، أدخل الطبيب يده في جيب معطفه ثم أخرج جواز سفر وقال: هذا جواز سفر ابنكم جاهز لم يبق إلا أنتما.

مرا بعد خروجكما من هنا على قسم العلاقات العامة في المستشفى كي يأخذ لكما صورة فوتوغرافية، وغدا في مثل هذا الوقت سيكون جوازاكما جاهزان مع تذاكر الطيران، الرحلة ستكون يوم الخميس القادم يعني بعد خمسة أيام من الآن، ستنقلكما مع المريض سيارة إسعاف إلى مطار عدن وسأكون أنا أيضًا في وداعكم، وفي مطار كامبردج الدولي ستكون هناك أيضًا سيارة اسعاف تابعة لمستشفى أدينبروك في استقبالكم، وسترافقكم طيلة إقامتكم فتاة يمنية لطيفة من سكان شفيلد

---

(1) مستشفى أدينبروك: هو مستشفى تعليمي يتبع كلية الطب التابعة لجامعة كامبريدج، وهي من أعرق الجامعات في العالم، أفتتح هذا المستشفى في عام 1766م، وفيه مركز الصدمات الرئيسي في شرق انجلترا، وكان أول مركز من نوعه في المملكة المتحدة، ويحتوي على 1000 سرير، وهو المركز الإقليمي لجراحة المخ والأعصاب، ولديه أكبر وحدة عناية مركزة للمخ والأعصاب من نوعها في أوروبا، ويقع في مدينة كامبريدج التي تبعد عن لندن 80 كلم شمالاً.

تسمى آلاء، ستكون هي المترجمة الخاصة والمرافقة لكم، وابنتي جودي ستكون قريبة منكم إذا واجهتم أي صعوبات، هي طبيبة تحت التمرين (امتياز) هناك.

لم يحتمل عبد الواسع كل ذلك فقال وصوته يتهدج: هذا كثير... كثير يا دكتور كيف لنا أن نعيد لك كل تلك الجمايل؟ ارتبك المترجم ولم يعلم كيف يترجم هذه الجملة للبروفيسور وبعد عدة محاولات وصلت الفكرة للطبيب فابتسم وقال: لا ليس كثيرا مطلقاً؛ فقد استفدت أنا منكم فوائد جمة لا تخطر على بالكم، وهذا ما هو إلا جزءاً بسيطا من المفروض أن نقوم به، لكنني أريد منكم أن تتعاملوا مع سعيد بشكل طبيعي تماماً مهما قال أو فعل، كلما كانت ردود أفعالكم متحكم بها ومتزنة كلما كانت فرصة الشفاء لديه كبيرة، يكفيه الصدمة التي عرضناه لها.

قال عبد الواسع: أي صدمة يا دكتور؟ قال الدكتور: قبل عدة أيام حينما اجتمعنا حوله استمعنا له وهو يردد نفس الكلام الذي قاله سابقاً لكم، كان يحاول أن يقنع الأطباء أنه مختطف من بين زوجته وأولاده، فقلنا له نحن لدينا الدليل المادي بأن كلامك هذا غير صحيح، فهل لديك أنت أي دليل مادي على كلامك.

طبعاً حاولنا أن نتحدث معه بالعقل والمنطق كما يحاول هو أيضاً، سكت قليلا ثم قال وما هو دليلكم؟ قلنا له دليلنا موجود تحت الأربطة التي في رأسك وقد حان وقت إزالتها، ثم طلبنا من الطبيب الجراح أن يزيل الأربطة والضمادات، وبعد أن أزيلت قلنا له تحسس رأسك ستجد أثر خمس عمليات جراحية فيه، فمن أين أتت تلك العمليات؟

أخذ بالفعل يتحسس بيده الصغيرة رأسه وهو صامت، ثم قلنا له انظر هذا فلم الأشعة ستشاهد كيف كانت جمجمتك حينما أتيت لنا، وهذه أيضًا صورة فوتوغرافية لرأسك وأنت في غرفة العمليات عندما بدأنا في العملية، أخذ ينظر إلينا في وجوم ثم قال: إذا والحياة التي عشتها سابقاً أين ذهبت؟

شرحنا له أنه كان يحلم حلماً جلياً وأنه أنغمس في حلم طويل حتى ظن أنه حقيقة، وعندما أفاق من غيبوبته لم يستطع أن يفرق بين الحلم والواقع، قال الأب فما كان ردة فعله؟ قال الطبيب: سحب الغطاء فوقه واختبأ تحته، أظن أن هذا كان درساً كافياً له.

قال عبد الواسع: شكرا لك ..... شكراً جزيلا لك يا دكتور، لا أجد في قاموس كلماتي ما يسعفني كي أعبر لكم عن عميق شكرنا وامتناننا، سنظل طوال أعمارنا نحفظ لكم هذا المعروف.

قبل السفر بثلاثة أيام كان عبدالواسع وزوجته في مقر إقامتها، في بيت صغير شعبي يتكون من دارة ومخزن في حافة القاضي[1]، يتجهزان لتناول طعام العشاء، كانا يتناقشان في ترتيبات السفر، فجأة طُرُق الباب فنظر كل واحد منها للآخر، فقالت: رشيدة من تتوقع يأتينا زائراً في مثل هذه الساعة؟ قال زوجها: ربما إحدى جارتك تريد تستعير منك شيئاً.

اقتربت من الباب وقالت: من الطارق؟ قال: أنا افتحي يا رشيدة، استغربت، الصوت صوت رجل ويعرف اسمها أيضاً، صوته ليس غريباً عنها، تعرفه تماماً لكنها لا تستطيع تذكره، فقالت: من أنت؟ قال: غريب يا أختي أنا أخوك، شهقت رشيدة وهي تفتح الباب على مصراعيه وتهتف: أخي عبده الزغير، احتضنته وأخذت تقبله ويقبل رأسها، ويقول بلهجة عدنية أصيلة وهو يضحك: "خلاص نسيتوني، يعني من لقي أحبابه نسي أصحابه"؟

أخذت رشيدة ترحب به، ثم أقبل عبد الواسع فعانق صهره ورحب به ووجهه يتهلل من الفرح، وقال له: ما هذه المفاجأة السعيدة يا أستاذ عبده، قال عبده: هل فاجأتكم بالفعل؟ قالت أخته ألم تكن في دورة دراسية في لندن لمدة ثلاث سنوات؟ فكيف أتيت وأنت لم يمض على

---

[1] هي من أقدم وأعرق أحياء كريتر في مدينة عدن، وتنسب إلى أحد أشهر قضاة عدن وهو القاضي محمد داوود البطاح الذي ولد في زبيد 1890- وتوفي في عدن 1982م.

سفرك سوى أقل من سنتتين؟ قال لها: أخوك شاطر ومتميز وعبقري أستطاع أن ينهي جميع المتطلبات الدراسية في وقت قياسي، وحصل أيضًا على تقدير امتياز مع مرتبة الشرف، فقامت أخته تزغرط معبرة عن فرحها فأمسك بفمها وقال لها: اسكتي يا مجنونة، فضحتينا بين العربان سيأتي الجيران يظنون أن لدينا وليمة عرس، قالت أخته وهي كذلك بالفعل.

جلس بينهما وقال: قبل كل شيء أنا جائع لم آكل شيء، أريد أن آكل من يد أختي الحبيبة الفاضلة رشيدة، قال له عبد الواسع: عمتك تحبك، كنا على وشك البدء في تناول العشاء عندما طرقت الباب، قال: يا سلام كم أنا محظوظ فما هو عشاءكم؟ قالت له أخته على الحاصل، تفضل على الحاصل، قال: لا تضحكوا علي وتقولوا لي على الحاصل، أنا جائع وربما آكلكم أنتم أيضاً.

ضحكوا جميعاً، فقالت أخته طبختُ (مطفايه[1])، صفر بفمه وقال: يا سلام عليك يا رشيدة كأنك تقرأين أفكاري، هذه ألذ طبخة تعجبني، ولك أسلوبك المميز في تحضيرها، هيا نهجم عليها فضحكوا جميعاً، ثم

---

[1] المطفايه: هي من الأطباق الشعبية المشهورة في اليمن، وهي وجبة عدنية متميزة عبارة عن قطع من السمك يقلي ثم يمزج بصوص الطماطم والبطاطا والكزبرة والبسباس العدني الأحمر المجفف وتؤكل عادة باردة.

انتقلوا جميعاً للمائدة، وبعد الانتهاء من الطعام ذهبوا للجلوس في الدارة وهي عبارة عن فناء البيت، وبعد المزيد من عبارات الترحيب قال لهم، عبده الزغير لقد علمتُ بما حدث لنسيبي الصغير سعيد وتألمت كثيراً، قالت أخته: كيف عرفت؟

قال: تواصلت مع بعض الأقارب هنا فأبلغوني، لماذا لم ترسلوا لي برقية تخبروني؟ عنواني لديكم، قال عبد الواسع أنت تدرس في بلاد الغربة فلم نكن نريد أن تصاب بالقلق والهم، قال: إذا خبروني كيف وضعه الآن؟ فقد اتصلت بالأمس قبل أن أغادر لندن بالمستشفى فطمأنوني عليه وقالوا إنه أفاق من غيبوبته.

نظرت رشيدة لزوجها، ثم قالت وهي تتنهد ومسحة حزن تكسو وجهها: الحمد لله يا أخي، الحمد لله على كل حال، نظر إليها أخوها وقال: وجهك يقول كلاما آخر، أنا أعرفك يا رشيدة أستطيع أن أترجم قسمات وجهك، قولوا لي ولا تخفوا عني ما الذي حدث؟ لم تستطيع أن تخفي رشيدة حزنها فاض بها الكيل، فأطلقت العنان لدموعها كي تروي ما لم تستطع أن ترويه شفتاها.

قال عبده الزغير: اذكري الله يا أختي، أنا لا أطيق أن أرى دموعك لأنها تسقط كالجمر على قلبي، التفت لعبدالواسع وقال له: قل لي يا أبو سعيد ما الذي حدث لصغيرنا؟ ابتلع عبد الواسع ريقه ثم قال: حسناً

سوف نخبرك بكل شيء، تكلم عبد الواسع بكل شيء وشرح حالة ابنه بالتفصيل، وأخبره بما قاله البروفيسور سكوت، وأنهم قد نسقوا لنقله إلى انجلترا لمتابعة علاجه هناك.

مرت فترة صمت ثم قال عبده: لا تقلقوا أبدا وتفاءلوا بالخير، هذا المستشفى هو من أعرق وأفضل المستشفيات في أوربا، وحسب ما سمعته منكم اعتقد أن فترة علاجه لن تطول، غداً إن شاء الله سأقوم بزيارته، قالت أخته: أخشى أنه لن يتعرف عليك؟ قال: لا بأس هذا أمر محتمل ويمكن لنا أن نتجاوز عنه.

في اليوم التالي ذهبوا جميعاً للمستشفى وقالوا له ادخل أنت أولا لنرى هل سيتعرف عليك أم لا؟ دخل الخال عبده الزغير خلسة على سعيد وهو منشغل ينظر إلى النافذة، ولم يشعر به إلا وهو بجواره، التفت سعيد ليرى هذا الظل لمن؟ ثم شهق وقال: خالي عبده، فرد عليه خاله ضاحكاً نسيبي سعيد ناطح الصخور، تعانقا طويلا ثم قال له: انظر يا سعيد لقد جئت لك بهدية من تلك التي تحبها، قال سعيد متلهفاً: وما هي يا خال؟ أخرج له لفافة ورقية وأعطاه إياها، أخذها سعيد والبشر باديا على وجهه.

فض الورق ليخرج كتابا، فقال: هذا كتاب يا خال؟ قال: ليس أي كتاب، هذه من أشهر الروايات العالمية عنوانها هو " الأمير الصغير"[1] وهي مكتوبة بطريقة جديدة صفحة باللغة العربية والصفحة التي تقابلها باللغة الإنجليزية، يعني أنك ستستمع بالراوية وفي نفس الوقت ستتعرف على كلمات جديدة من اللغة الإنجليزية، قال له شكرا لك يا خال عبده هديتك أعجبتني كثيرا، ثم أخذ يده وقبلها، فقبل خاله جبينه، ثم قال له سعيد: أين أبي وأمي؟ بينما هما كانا يستمعان للحوار من خلف الباب ظهرا وقالا سويا: نحن هنا، فلما اقتربا منه قالت أمه: عجيب يا سعيد، كيف تعرفت على خالك ونحن لم نتعرف علينا؟

قال سعيد: ليس كذلك يا أمي، أنا عرفتك وعرفت أبي ولكنني لم أستطع أن أفهم كيف عدت أنا طفل وأنتما شابين، لم أستطيع أن أستوعب كيف عاد بي الزمن للوراء خمسين عاماً، في المرة الأولى بالفعل لم أكن قادراً على التعرف على نفسي ولا عليكما، لكن صوت أمي وأبي لا يمكن أن يتغير، فأنا أستطيع أن أميزه من بين ألف صوت.

---

[1] هي من أشهر روايات الكاتب والطيار الفرنسي أنطوان دي سان إكسيوبري، 1900م-1944م، فيها يُطلع أميرٌ صغير من كوكب ناءٍ، الكاتب على تجربته في البحث عن الحكمة بين الكواكب.

شعر الوالدين بشيء من الراحة لسماع كلامه ذلك، وضحك خاله محاولاً أن يضفي جواً من البهجة والسرور على الموقف، وقال: الحمد لله على سلامتك يا بطل، والحمد لله أنك عرفتني وإلا كنت با أردعك[1]، ثم جلسوا حوله وأخذ خاله يذكره بالكثير من المواقف الطريفة والذكريات التي مرت بهما في أثناء زيارات الخال للقرية، والرحلات التي قاما بها لوادي الأخمور[2] ولقمة جبل سمدان وهيجة أسس وغيرها.

في اليوم المحدد وقفت سيارة إسعاف تابعة لمستشفى الملكة إليزابيث أمام سلم طائرة الخطوط الجوية البريطانية **British Airways**، وترجل منها البروفيسور سكوت ماكلمان، ثم هبط عبدالواسع وزوجته رشيدة، والخال عبده الزغير، وممرض يساعد الطفل الحالم سعيدا المطنن على الهبوط من السيارة وقد أزيلت عن رأسه الضمادات، فبدا شعره البني الناعم تتلاعب به نسمات ذلك الصباح المفعم بالأمل.

تقدم البروفيسور من عبد الواسع وصافحه ثم احتضنه والتفت للطفل سعيد وصافحه وداعب شعره وقال له وداعاً فابتسم الطفل، وعانق عبده الزغير صهره وأخته، واحتضن سعيدا وقبل وجنتيه وقال له مع

---

(1) كلمة يستخدمها أهل عدن على سبيل الدعابة والمزاح، والمعنى الحرفي لها: سأنطحك

(2) وادي يتميز بخصوبته وجريان السيل فيه طوال السنة تقريباً والمناظر الطبيعية الخلابة، يتبع لمحافظة تعز مديرية المواسط عزلة الأخمور، ويشتهر بزراعة المانجا والموز شديد الحلاوة رغم صغر حجمه ويسمى (شكلت)، وكذلك شجرة البن.

السلامة انتبه لأبيك وأمك وأنا سألحق بكم إن شاء الله بعد ثلاثة أسابيع، صعد الممرض بسعيد على سلم الطائرة وهو ينظر في رهبة للطائرة الرابضة على أرض المطار في هيبة وشموخ ويلوح بيده لخاله مودعاً والذي كان يلوح له أيضا.

كان جميع الركاب قد أخذوا مقاعدهم ما عدا ثلاثة مقاعد شاغرة تنتظر ركابها كي يجلسوا عليها، جلس عبد الواسع بجوار النافذة وبجواره ابنه سعيد ثم أمه رشيدة، بدأت الطائرة في التجهز للإقلاع ثم رفعت من وتيرة سرعتها وشقت ببدنها الممشوق صدر الفضاء كسهم أطلق من قوسه.

انكمش سعيد خوفاً حينما شعر بمغادرة عجلات الطائرة لسطح الأرض وشعر كأن روحه تنتزع منه، فلاذ بأمه مع أنه كان يربط الحزام إلا أن هذا لم يمنعه من أن يمسك بيد أمه بلا شعور منه، فأخذت أمه يده وأمسكت برأسه وأسندته على صدرها.

نظر عبد الواسع لأرض بلاده وهي تغيب شيئا فشيئا حتى اختفت تماماً وظهرت السحب بدلاً عنها، توكل على الله وسلم أمره لله، ثم أخذ ينظر لولده الذي كان مسنداً رأسه على صدر أمه، استقرت الطائرة في مسارها على الارتفاع المحدد لها متجهة إلى مطار هيثرو بلندن ومنه إلى مطار مدينة كامبريدج.

انطفأت إشارة ربط الأحزمة ففتح الكثير من الركاب أحزمتهم، ساعد عبد الواسع زوجته وابنه على فتح حزاميهما ثم قال لابنه هل تحب أن تشاهد السحب والأرض من تحتنا؟ فهز الولد رأسه موافقاً، فأخذه والده من كرسيه بحذر وعناية ووضعه في حضنه وجعله يشاهد من نافذة الطائرة المناظر البديعة للسحب البيضاء المتناثرة حول الطائرة.

قال سعيد في نفسه وهو يشاهد تلك المناظر العجيبة التي كان يراها لأول مرة: سبحان الله فقدت زوجتي وأولادي وأبدلني الله بأمي الحنونة وأبي الحنون، عدت حوالي خمسين عاماً للماضي، هل أنا في حلم أم أنني مستيقظ؟ هل هذه هي الحقيقة أم أنه محض خيال؟ هل كنتُ أحلم بالفعل؟ وهل يمكن أن يكون الحلم يمثل حياة بأكملها؟ ويكون واضحاً وجلياً كما حدث معي؟

يا رب احفظ لي عقلي، والله أخشى أنني أحلم الآن، على كل حال لن أتحدث مرة أخرى عن زوجتي وأولادي أمام والدي لأن هذه القضية تضايقهما كثيراً وتسبب لهما الحزن، سأتعامل معهم على أنني طفل في العاشرة من عمره، وسأصبر وأعتصم بالله حتى يجعل لي فرجاً ومخرجاً من هذه المحنة التي لا أحد يستطيع أن يصدق كيف حدثت. ثم تساءل في حيرة يا ترى ماذا حدث لصديقي مقبل؟ هل حدث له مثلما حدث لي؟

أم مازال هناك في الأرض المفقودة؟ عندما أعود إلى البلاد سوف أبحث عنه.

تواردت تلك الأفكار على ذهن سعيد الطفل بينما كانا يشاهدان من النافذة السحب البيضاء حول الطائرة كأنها تمخر عباب بحر من السحب، كان وجهاهما يكادان يكونان متلاصقين فخطرت فكرة على ذهن سعيد الطفل يريد منها إسعاد والده،

أحاط بذراعيه رأس والده ثم اقترب بشفتيه من خد أبيه وطبع قبلة سريعة عليه، ذهل عبد الواسع فضم ابنه بلطف، وقبله والدموع تترقرق في عينيه، وقبل جبينه وقال هامساً في أذنه أهلا بعودتك إلينا يا ولدي الحبيب، ومال على رشيدة وهمس في أذنها: رشيدة، لقد قبلني سعيد، رفعت كفيها وقال: اللهم لك الحمد يا رب ما أكرمك يا رب.

طارت الطائرة لتدخل شمس الظهيرة وجاءت المضيفة بطعام الغداء، أخذت رشيدة تأكل وتلقم طفلها فيما كان هو يناضل ليستخدم الشوكة والملعقة والسكين، كان سعيد يرى بقية الركاب وهم يأكلون باستخدام تلك الأدوات فحاول تقليدهم، أبقى عبد الواسع نظره على ابنه فابتسم وهو يرى محاولات ابنه المستميتة وهو يطارد حبة الزيتون بالشوكة يحاول التقاطها وهي تهرب منه، أخذ منه الشوكة وعلمه كيف يلتقط بها الزيتون، وبعد نهاية الغداء أضاءت إشارة ربط الأحزمة

وطلبت قمرة القيادة من جميع الركاب ربط الأحزمة وإغلاق الطاولات التي أمامهم استعدادا للهبوط في مطار هيثرو بلندن، نظر من نافذة الطائرة فرأى لندن تحته كانت أبراجها العالية تتوهج تحت شمس الظهيرة، هنا كانت أميال الفولاذ والزجاج المتجذرة والنامية كثيفة باتجاه السماء تبدو بلا حدود، كانت تعطيه حس يأس وأمل في آنٍ واحد.

غطست الطائرة وقامت بسيلان بطيء ورشيق إلى اليسار فيما دارت حول المدينة ثم هبطت، سقفاً أبيضاً لسقفٍ أزرق، ثم هواء تنيره الشمس مع المدارج الرمادية الأسمنتية والرقع الخضراء المبعثرة التي كانت تشكل الأرض السجادية التي يخترقها نهر التيمز كثعبان أزرق يلتوى متباهياً لامست الأرض بارتطام من الصلابة بحيث تكفي لإيقاظ من كان لا يزال نائما من الركاب.

– 20 –

الخاتمة – عودة الغائب

عاد سعيد إلى قريته الوادعة بعد ثمانية أشهر قضاها في مدينة كامبريدج يتلقى العلاج في مشفاها، وتم تصوير دماغه بأحدث الأجهزة التي لا توجد إلا في تلك المستشفى، منها جهاز التصوير بالموجات فوق الصوتية[1] والذي لم يمض على اختراعه سوى سنتان،

أظهر الجهاز وجود تورم طفيف في "الفص الصدغي من قشرة الدماغ ويسمى (الحصين)، وهو المركز الرئيسي للذاكرة قصيرة وطويلة الأمد"[2]، غير أنهم اكتشفوا أن ذلك التورم سببه هو الضربة التي تعرض لها دماغ الطفل وأنها آخذة في التلاشي، ولا تشكل خطرا على المريض،

طبق عليه علاجاً نفسياً مكثفاً عند طبيب نفسي رشحته إدارة مركز المخ في المستشفى، كان يحضر بصحبة المترجمة آلاء – التي أصبحت صديقته

---

[1] يسمى بجهاز السونار (Ultrasound)، بدأ العلماء في نهاية العام 1955م باستخدامه في الكشف المبكر عن الأورام الدماغية، وهذه الأشعة ليس لها أي أضرار على الجسد.

[2] هذه عبارة عن معلومات علمية موثقة وليست جزءا من الرواية.

الحميمة – ثلاث جلسات أسبوعيا لمدة شهر ثم انخفضت إلى جلستين في الشهر الثاني، ثم أصبحت جلسة واحدة كل أسبوع لمدة شهرين.

تحسنت صحة الطفل كثيراً وعادت له روحه المرحة، وعاد إلى عبث الطفولة وشقاوتها، عاد طفلاً كما ينبغي للطفل أن يكون، واختفت تلك الكلمات التي كانت أكبر من عمره، فتلاشى قلق الوالدين، وزاد من مرح الطفل وسعادته وجود الخال عبده الزغير الذي كان بينهما تلائم وتفاهم ومودة عجيبة،

فأخذه هو ووالديه في نزهة إلى لندن وزاروا ساعة بيج بن، وقصر وستمنستر والمتحف الوطني والعلمي ومتحف الشمع وقصور وحدائق كينجستون وباكنجهام وسانت جيمس الملكية وحديقة الهايد بارك، ومتحف التاريخ الطبيعي، لكن أكثر ما خلب لب سعيد هو (عين لندن) وهي عبارة عن عجلة دوارة ضخمة استمتع سعيد بركوب إحدى كبسولاتها المضيئة، مع أنه كان في البداية خائفاً فتشبث بأمه ولكنه بعد ذلك وبتشجيع من والده وخاله وقف على قدميه وأخذ يشاهد لندن وهي تتلألأ في الليل كأنها ألماسة نجمة أفريقيا[1].

---

[1] هي قطعة ألماس تزين رأس صولجان الصليب الملكي البريطاني وهي أكبر قطعة أماس مصقولة في العالم تزن حوالي 543.4 قيراط وتسمى أيضًا ماسة كولينان أو نجمة أفريقيا الكبرى لونها أزرق مائل للبياض.

كانت عودته للقرية مفاجئة لجميع أهل البلاد، فرح الجميع بعودته، وقام والده بعمل وليمة دعا لها أهل البلاد الأغنياء منهم والفقراء، وسارت الحياة بعد ذلك وادعة آمنة، لا يشوبها خوف أو حزن، عاد سعيد لممارسة هوايته المفضلة وهي الصيد بمرافقة بعض أصدقائه وخاصة مروان غانم صالح وهو صديقه الحميم، ولكنه كان محظورا عليه من قبل والديه الاقتراب من الأماكن الخطيرة والمنحدرات السحيقة التي تسمى ضاحة.

بعد مضي حوالي شهرين على وصوله إلى قريته، كان سعيد في ذلك اليوم قد استطاع أن يصيد بواسطة إحدى فخاخه ظبياً صغيراً، فقرر أنه لن يذبحه، بل سيقوم بتربيته، وسيكون حيوانه المفضل، وبعد عصر ذلك اليوم وبينما كان سعيد خارجاً من المعلامة التي توجد في المقصورة الملحقة بالجامع متجهاً إلى بيته.

وفي مكان يقال له الشرف هو عبارة عن درب ضيق في القرية، تواجه سعيد مع بنت صغيرة يبلغ عمرها تقريبا ثمان سنوات، كان المكان خالياً في ذلك الوقت، ظنَّ أنها ستتجاوزه وستمضي في حال سبيلها، ولكنها توقفت أمامه في إصرار وعناد، بل وأمسكت بيده، ذهل سعيد وشعر بقشعريرة تسري في جسده، حاول نزع يده من يد البنت ولكنها

تشبثت بيده في إصرار عجيب، فقال لها: ماذا حصل لماذا تمسكين بيدي؟ أليس هذا عيباً؟

قالت له: ألم تعرفني يا سعيد؟ قال لها: لا من أنت؟ قالت: أنا صفية، قال: عرفتك أنتِ صفية غانم صالح أخت صديقي مروان؟ فماذا تريدين؟ قالت له: بل أنا زوجتك صفية يا سعيد، كيف نسيتني ونسيت أولادك؟ أين أولادنا يا سعيد؟ أين ذهب أولادنا؟ أين شوقي وميسون وسلوى وعبد الرحمن؟ ما الذي حدث لنا؟ وأي مصيبة حلت بنا؟

تلجلج سعيد وهزته رعدة شديدة وجحظت عيناه وتشوش نظره، ثم أخذ يردد في هلع: زوجتي ..... أولادي.... شوقي... ميسون .... سلوى .... عبد الرحمن...، ثم أمسك رأسه بكلتا يديه وأخذ يصيح يا رأسي ... يا رأسي.... يا رأسي، ثم تهاوى على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء، بينما انسلت البنت هاربة تبكي ولا تلوي على شيء.....

انتهت

صنعاء – الخميس 5 / 5 / 2022م

كلمات شكر وامتنان

كلمة شكر للشاعر والأديب الدكتور عبدالله العواضي على جهوده المبذولة في تصحيح هذه الرواية لغوياً، وكلمة شكر أيضًا للأستاذ حميد القعادي على مشاركته في التصحيح اللغوي.

شكراً زوجتي أسماء القاضي فما كانت لتوجد روايتي بهذا الشكل من دونك.

شكراً للأديبة الجزائرية الأستاذة فريدة أملياس فلولا تشجعيها ودعمها لما واصلت الكتابة ولوقفتُ في بداية المشوار.

شكرا لكل من شجع ودعم وأسدى لي النصح والتوجيه، ثم شكرا لمن قرأ روايتي وأبدى لي ملاحظة أو نصيحة.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي برعايـة داربسـمة للنشـر الإلكتروني
بشـــراكة مـــع جـــروب ملتقـــى الأقـــلام المُبدعـــة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيســـبوك، اضـــغط علـــى الأيقونـــة.

المحتويات

الإهداء..... 6
تنويه..... 7
خطوات نحو المجهول..... 9
الراعي الملهوف.....14
رحلة في آخر الليل 23
مواجهة مع دخانٍ متبدد.....34
أسئلة تبحث عن إجابات 44
انتقام في رابعة النهار 52
إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصارا 61
نداء الجبل السحري.....70
من شرايين الجبل إلى قلبه 85
البحث عن الرجل المفقود 98
قافلة سُراة الليل 115
أشياء تحدث في الظلام.....137
زيارة فوق العادة.....162
سراديب التيه.....177

الأرض المفقودة 204
البيت الأزرق الجميل..... 237
دار الصياد المهجور والأسرة المفقودة 270
حلم العودة..... 279
حقيقة أم خيال؟..... 287
الخاتمة ـ عودة الغائب..... 322
كلمات شكر وامتنان 326

وحيد عبد العالم الفقيه

تدور أحداث رواية جبل سمدان للكاتب وحيد الفقيه في ريف مدينة تعز اليمنية خلال فترة ما قبل ثورة 1962م والسنوات التي تليها. حيث يعيش الصياد سعيد المطنن في قريته الوادعة في أمن وطمأنينة، ولكن حدثا غريبا يغير حياته للأبد. عندما هاجم وحش غامض لا ينتمي إلى عالمنا اسمه "طاهش" ويفتك بالماشية فيبري الصياد لمطاردته والنيل منه ولكن الأحداث لن تسير كما كان يتوقع وتتطور لتكتشف قصة الصياد وتأثير قراره بمواجهة ذلك المسخ عليه وعلى كل من حوله.

هذه الرواية رمزية عميقة في مدلولها الثقافي ستبدو لك وكأنها واقعية للغاية على الرغم من تمحورها حول أسطورة الطاهش في الميثولوجيا الشعبية.

ستنتقل بين سراديب التشويق والإثارة والرعب في سرد قصصي فريد ثم ترمي بك في عالم غريب تنسى فيه نفسك وسيفرض عليك بطل الرواية أن تعيش في عالمه كأنه حقيقية لتضحك بشدة أحيانا في أثناء القراءة لتجد نفسك بعدها بلحظات تبكي تأثرا.

وفي الأخير ستردد مع بطل الرواية: هل كان حلما أم حقيقة؟ واقع أم خيال؟

باختصار هذه الرواية لن تتركك بسهولة. ستبقى أحداثها عالقة في ذهنك مدة طويلة.

Bassmabook
0021277181493
Contact@darbassma.net